

المصري

رواية

بيتر شفيق

دار كليوباترا للنشر والتوزيع

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية
شفيق/ بيتر

المصري : رواية / بيتر شفيق

ط ١. / القاهرة : دار كليوباترا للنشر والتوزيع.

الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٦٦١٩-٥٩-٣

رقم الإيداع: ٢٠١٧/٢٨١٨٧

تصنيف الكتاب :

القصص العربية



الناشر دار كليوباترا للنشر والتوزيع

المدير التنفيذي: ضحى جبر

إشراف عام: عفاف محمد على

تصميم الغلاف : محمد جمال

عمليات الإخراج الداخلى والتصحيح اللغوي

(دار كليوباترا للنشر والتوزيع)

المراسلات:

لاتصال: / ٠١٠١٩٩٨٣٣٧١ / ٠٢٢٥٢٤٤٥٣٤ / ٠١١٢٥٥٧٤١٢٩

dar.cleopatra@gmail.com

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف والناشر، ويحظر نشر أو اقتباس

هذا العمل ، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية.

هذا العمل هو من وحي الخيال. الأسماء والشخصيات والشركات
والأماكن والأحداث، فإنها من وحي خيال المؤلف أو قد يكون
إستخدامها بطريقة وهمية. أي تشابه بينها وبين الواقع فهو من قبيل
الصدفة البحتة.

**This is a work of fiction. Names, characters,
businesses, places, events and incidents are either
the products of the author's imagination or used
in a fictitious manner. Any resemblance to
actual persons, living or dead, or actual events is
purely coincidental.**

إهداء

أهدي عملي هذا إلى روح السيد المحترم / حسن فهمي رفعت
(الكاردينال)، فبدونه لم أكن لأعلم معنى تخطي الحواجز العقيمة
لأصل للآخر.

مقدمة الكاتب

أعزائي..

إسمحوا لي أن أقتبس بعض المقتطفات القصيرة المأخوذة عن الدكتور نيل دي-جراس تايسون، والتي قمت بترجمتها بنفسى آخذاً حرية التصرف في بعض التعبيرات إضافة للمعنى. فلم أجد أفضل منها لتوضيح ما أحاول إرساءه في هذه الرواية.

هذا الكوكب الذي نعيش عليه، والمسمى الأرض هو أملنا الوحيد، وعلى الرغم من هذا نجد أن هناك عددا لا حصر له من الناس يعيش بلا أمل. فالمجاعات والكوارث بشتى أنواعها أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياتنا اليومية، لكنك بكل أسف تجد المُعذِّبين يلقون بأنفسهم في أحضان الحروب.

تقتلُ الشعوب بعضها البعض بسبب مفهوم الآخر عن الله، ونرفض، بل نعانده، الاعتراف بأن أفكارنا ومعتقداتنا، بل تصرفاتنا وأسلوب حياتنا اليومي، كلها تؤكد إيماننا العميق المطلق بأننا مركز الكون.

مع كل صراع مصطنع، وكل قنبلة مدمرة للذات وللغير، بل مع كل خلق لديكتاتور وهمي وتحيز حزبي، تضل الأبناء خلف ستار من الصراعات الطائفية العرقية الدينية القومية والثقافية. ومن المدهش أننا لا نزال نجد غرور الإنسان يدفعه إلى شد الأجزاء، وفتح الأبواب على مصراعها ترحيباً بالحروب المدمرة.

حين أتت مدارات الكويكبات والمذنبات والكواكب، أجد كلا منها يرقص في تناغم متكامل مع بعضها البعض كراقصي الباليه، فكل منها منجذب للآخر بقوة وقوانين الجاذبية في غير تنافر أو صراع.

عندما أنظر لما وراء الصراعات البشرية، أرى الكون ومازال يتمدد ويتوسع أكثر من أي وقت مضى. فها هي المجرات قد رُسِّخت بكونٍ يتمدد في نسيج رباعي الأبعاد من المكان والزمن.

ومهما بلغ خيالنا عن مدى كبر عالمنا، ففي عمق أفكارنا نعلم علم اليقين أن الكون أكبر، فهناك عدد من النجوم في الكون الفسيح أكثر من حبات الرمال المتناثرة على شواطئ البحار والمحيطات، وهناك عدد من النجوم في الكون أكثر من عدد الثواني الزمنية التي مضت على الأرض منذ تكوينها إلى الآن، بل إن هناك عددا من النجوم في الكون أكثر من الكلمات والأصوات التي صدرت عن كل نفس بشرية عاشت على هذا الكوكب.

في هذا العالم الكئيب، الحامل للسلح، المتعطش للموارد، ستظل الشعوب والدول ذات التحيز والتعصب المتعاقد عليه عرضة للتصرف بحماقة. وإلي أن ييزغ فجر التنوير وإلى ظهور ثقافة جديدة، وبصيرة تحتضن مرة أخرى وجهة النظر الكونية بأننا جميعًا أمر واحد، فسنظل ننظر ونبحث في شتى الأماكن حولنا، والإجابة تكمن بداخلنا.

أعزائي، أعلم يقينًا أن هذه الرواية ستحظى بإعجاب الكثير، كما سينالها سخط الكثير في المقابل. وبغض النظر إلى أي فريق ستنتهي، ففي بادئ الأمر أود أن أشكركم جميعًا على تخصيص الوقت لقراءة ما كتبت. وهنا أود أن نتذكر ما قاله السير فرانسيس باكون منذ أكثر من أربعمئة عام حين قال " عند تبني الفهم البشري لرأي - إما عن ورود خارجي أو أن يكون مقبولًا ذاتيًا - فهو يجذب كل شيء ليتفق ويدعم هذا الرأي. وبالرغم من وجود إثباتات أكثر وأضخم على الجانب الآخر، فإما يتم إهمالها أو احتقارها أو يتم دحضها وتنحيها جانبًا، حتى يتسنى لهذا التحديد المسبق الخبيث أن يظل على إستنتاجاته دون مساس."

أمنيته الوحيدة، بل دعائي، أن تنجحوا في الذهاب لأبعد وأعمق مما هو موجود بين السطور، عليكم تكتشفون وتدركون البعد الخامس في هذا الكون الذي نعيش فيه.

بيتر شفيق

نياجرا، تلك المدينة السياحية المزدهمة، الصاخبة دائماً، أحياناً بسبب الوافدين من جميع أنحاء العالم ليشاهدوا إحدى عجائب الدنيا السبع، ودائماً لتدفق كميات من المياه تفوق تصور البشر في اندفاع أرعن عنيف من ارتفاع ساحق، تسقط لترطم بالأرض فتزأ زئيراً مخيفاً، مهيباً.. لكنه ساحر يخلب العقول.

فهي رائعة، قوية، جميلة، وللبعض سيربالية مُخدّرة. فقد تمضي ساعات طويلة تشاهد فيها تدفق المياه في انسيابية وعنفوان عجيبين دون أن تدري. وأحياناً، قد تشعر بأنك تستطيع التحليق فوق هذا المكان الرياني مثل هذا النسر المُسبّح لقدرة الرحمن. وبين الحين والآخر تجد نفسك تحمق في وجوه البشر كافة باختلاف أجناسهم وألوانهم، وتعجز عن ألا تبتسم لمجرد رؤية الفرحة على وجوههم.

إنها شلالات نياجرا، أحبّها وأحبّ التنزه في شوارعها على الرغم من ازدحامها الدائم. حضر إليها هذا اليوم هو وأسرته، مُحضراً لجدول

زخم بالأنشطة. وبعد الإستمتاع بمشاهدة هذا المنظر السرمدى، والتقاط بعض الصور التذكارية لزوجته وأطفاله الاثنين، شرع في الاتجاه إلى داخل نفق كان قد حُفِر في بطن الجبل مؤدياً إلى ما وراء الشلالات. إرتفع الصوت وزمجر، فأمسكت زوجته بيده، واندفع بِكِرِهِ في كل مكان يجري ويلهو فرحاً. أخاف الصوت المزمجر إبنته، فحملها على كتفه وأخذ يداعبها محاولاً أن ينسيها الرذاذ المتطاير حولهم والمنبعث من ملايين الجالونات من المياه المتدفقة أمامهم.

بعد أن خرجوا جميعاً من هذا النفق الرهيب، لم يرد إنزال ابنته الصغرى من فوق كتفيه، بل استمر في التنزه بجوار الشلالات الكندية، فرحاً بالابتسامة الحاملة التي كانت قد إرْتُسِمت على وجه زوجته الماسكة بيد إبنه.

باغته اللقاء بذلك الطفل ذي العشرة أعوام. فكانت ملامحه شرقية بعض الشيء.

شيئاً ما كان قد جذبته إليه.. أمراً آخر غير نظرة التلهف للقاء المختلطة بالخوف من المجهول في عيني هذا الحدث.

شيئاً ما جذبته إليه عند عبوره إشارة المرور راکضاً، مكلوماً. وظل يراقبه من بعيد، وفي لحظة توقف فيها الزمن وصمت الكون من حوله، ظنّ أن الطفل يبكي. فذهب إليه حائياً، متوجساً. فقد سمع عن عمليات نصب إجرامية مشابهة، لكنه لم يكن ليسمع لصوت المنطق تلك اللحظة. ولسبب ما أعمق وأبعد من الفضول، قرر سامح الاقتراب من الطفل، وسأله بالإنجليزية:

- Hey kid, are you OK?

نظر الصغير إلى سامح بطريقة أثارت الرعب في نفسه. فكيف لحدث في مثل هذه السن أن تحمل نظراته كل هذا الألم الممتزج بالحنق المكبل بالخوف؟

بعد عدة لحظات من صمت مريب، عاود سامح سؤاله:

- Kid... Are you OK? Do you speak English?

- Yes I do, and I don't know.

إنتصب شعر سامح على ذراعه من غموض الإجابة، فلم تكن وافية على الإطلاق، بل كانت شرارة انطلاق العشرات من الأسئلة الأخرى

في ذهن سامح. كيف لا يعرف إذا كان على ما يرام؟ لا أرى أحدا يطارده. أهارب هو من أبويه؟ هل تدور في عقله أفكار انتحارية، ولهذا أتى إلى نياجرا؟ هل إختطف ثم تمكّن من الهرب من مختطفيه؟ هل حياته في خطر؟ هل حياتي أنا وأسرتي أصبحت في خطر لإقترابي منه؟ فمن المستبعد أن تكون " صديقته " قد تركته . ولم لا؟ فهذا الجيل مختلف عن أي جيل آخر.

وفي خضم تلك المعركة الذهنية، تفكر سامح لحاله وشعر بصوت العقل ينادي عليه من بعيد: أنت في غني عن كل تلك المهارات الخطرة. وبالرغم من ذلك وجد سامح نفسه يميل ناحية الطفل ليسأله مرة أخرى بلهجة مباشرة بعض الشيء:

- What do you mean you don't know?

قاطعته إبنته متلهفة على آيس كريم. فنظر حوله، ولم يجد لزوجته أو ابنه أي أثر أو دليل أنهم على مقربة منه. فكّر بالرحيل وترك الطفل للحاق بذويه، لكن شيئًا ما كان قد غرس في قلبه، ولم يستطع تركه وحيدًا.

نظر سريعًا للطفل، وأومأ بحركة من يده طالبًا أن يُوجَل الإجابة على سؤاله. أخرج هاتفه الخلوي من جيبه طالبًا زوجته باحثًا عنها وعن صغيره، لكن هيهات أن تسمع صيحات هاتفها في وسط تلك المدينة المفعمة بالحياة والنشاط.

نظر للولد، وقال:

- OK listen, I'll go get some ice cream for my daughter. Do you want me to get you some? Or maybe you'd prefer to tag along?

تردد في الإجابة، لكنه بعد ثوان انفجر صارخًا في وجه سامح:

- Listen Mister, the only thing I need from you is to tell me where the closest police station is... I lost my parents, OK! I can't find them... And I am a stranger to this city...

وللتو إنهار باكياً، وشلّ تفكير سامح، وسيطرت عليه فكرة واحدة، وهي أن يضمه لصدره للتهدئة من روعه وتجفيف دموعه غير مبال

لنظرات المارة، وخاصة هؤلاء من سمعوا صراخ الولد. أخذه لصدرة ممسكًا إبنته بيده اليسرى، مرتعبًا أن تمر هي الأخرى بمثل هذه التجربة القاسية. أخذ يدعو في سره لحدوث معجزة وأن تحضر هناء وولده، وينضموا لهم. فقد شعر أن الأمور على وشك أن تزداد تعقيدًا، وبسرعة.

- OK, Alright... Calm down now... You'll be alright... I won't leave you until we find a police officer.

- Thanks...

- What's your name kid? And where are you from?

على الرغم من حياة سامح المشيرة والشيقة والمليئة بالأحداث والشخصيات غريبة الأطوار، لم يكن أبدًا جاهزًا، ولا مُدربًا على التعامل مع ما كان الطفل على وشك الإفصاح به.

- My name is Ahmed, and I'm from Egypt.

بعد صمت ثوان، ظنّ أنها أيام قال:

- عاشت الأسامي يا أحمد

حالا تغيرت ملامح أحمد، ويابتسامة أظهرت أسنانه البيضاء في منتصف وجهه الخمري قال:

- هو حضرتك بتتكلم عربي؟

بطرف عينه اليمنى لمح هناء راکضة، وابنهما راکضاً معها ماسكاً بيدها. إستقام ورفع يده حتى تراه، ونجح في المهمة.

ثم إستطرد أحمد قائلاً بصوتٍ متقطع مكسور:

- أنا مش لاقى بابا ولا ماما، ومش عارف راحوا فين

أجهش أحمد في البكاء مرة ثانية، فضمه سامح لصدره مجدداً، وقال له:

- ماتخافش حبيبي كله هيبقى كويس، أوعدك. أنا هاخذك نروح للبوليس، بس الأول لازم تاكل حاجة عشان إنت شكلك بقالك فترة مأكلتش وأكيد جعان

– بس أنا ما معايش فلوس

إبتسم سامح ابتسامة هادئة دافئة، وقال لأحمد:

– يا سيدي ما تقلقش، لما نلاقي باباك هبقي أحاسبه.

- حسابك كام؟

- خلي علينا يا بيه...

- عشت يا سيدي، حسابك كام عشان مستعجل.

- اللي تجيبه...

- يا أسطى خلصني لو سمحت أنا فعلاً مستعجل. أقولك، خد ١٠ جنيه.

- عشة جنيه إيه بس يا بيه؟ أنا عايز خمسين.

كاد أن يفتك سامح بسائق السيارة الأجرة، لولا هناء - خطيبته
آنذاك - من أمسكت بيده، فهدأ وسلّم أمره لربه ودفع الخمسين
جنيهاً كالبطل الفاتح.

- امشي بسرعة شوية يا هناء، مش عايزين نتأخر ودورنا يروح علينا.

تمت هنا بكلمات غير مفهومة، لكنها كانت كافية بأن تُشعر
سامح بحقتها، فأحب تهدئتها وكأنه دينٌ يجب عليه دفعه. لكنه لم
تكن لديه الفطنة في محاوره بنت حواء، وخائنه كلماته.

– أنا مش فاهم البلد دي هتفضل كده لحد إمتي؟ يعني السواق ابن
الكلب مش بس يسرقنا في خمسين جنيهه عشان عرف إننا رايعين
السفارة، لأ وكمان ينزلنا في المكان اللي يعجبه هو.

– معلش، أنا مش تعبانة، وأدينا بنتمشى.

– طيب يلاً بسرعة عشان نلحق معادنا.

كان الطابور أمام مبني السفارة الكندية بالقاهرة غير مزدحم على
خلاف العادة، فالיום تحديداً كان مخصصاً لمن وقع عليهم الاختيار
لإجتياز المرحلة الثانية من إجراءات الهجرة، فقط لم يعرف ذلك
مسبقاً.

بشغفٍ حريص سألته هنا:

– إنت تفتكر هما طلبوا يقابلونا ليه؟ تفتكر إترفضنا؟

- لو كنا إترفضنا كانوا بعثوا لنا جواب وخلصوا أنفسهم. مين عارف؟
فور وصولهما لسفارة كندا بالقاهرة، أوقفهما أحدهم عند المدخل
سائلاً:

- ممكن يا أستاذ لو سمحت تجرا لي الجواب ده؟ أصل الناس
جالوا لي ده من السفارة بس أني الصراحة ما بعرفش أجرا إنجليزي.
تمتم سامح بكلمات سمعها الشاب الصعيدي:

- طب لما إنت ما بتعرفش إنجليزي جاي هنا تعمل إيه؟
تفكر الشاب قليلاً، وسبّ حظّه. تَبّاً للحاجة، وبئس الحياة التي
تُجبر أحدا على ترك بلده ومسقط رأسه بحثاً عن الرزق. فتلك
الظروف هي حقاً أكبر الكبائر وأعظم الخطايا، والويل كل الويل لكل
من تسبب في إجبار شاب في مقتبل العمر على السفر والترحال سعياً
وراء مستقبلٍ أفضل له ولأسرته. ثم رد مكفهرًا على ملحوظة سامح
قائلاً:

- معلش يا أستاذ.. أصل أني الصراحة زي شبان كتير جوي لو لجيت فرصة أهاجر الصومال حتى، هيجي برضك أحسن من المخروبة دي.

نظرت هناء للشاب شذراً، رافضة تعليقه الحاد المجحف بحق البلد، وقالت بلهجة صعيدية مصطنعة متهكمة:

- البلد دي أحسن من غيرها كتير برضك.

- طب لماهي أحسن من غيرها، عدم اللامؤاخذة حضرتك إبتعملي إيه هنا؟

قاطعهما سامح حتى يقتل ذلك الجدل الواشك على البدء قبل أن يستفحل، وقال محدثاً الشاب:

- عشان كندا أحسن.. وعلى أي حال الجواب ده مش من سفارة كندا. ده من سفارة أمريكا، ويقولوا لك إنك أخذت الفيزا وتروح تستلم الباسبور بتاعك من هناك النهاردة.

- طب هي مش دي سفارة أمريكا؟

- هو مش حضرتك رحتها قبل كده لما قدمت على الفيزا؟

- إيوة..

- طب مش حاسس إن الديكور على الأقل مختلف شوية؟ وبعدين ما أنا لسه قايل لك إن دي سفارة كندا.

- مش فاكرا الصراحة..

- على العموم هي مش بعيدة من هنا. إنزل خد تاكسي أو حتى إمشيها. بس إنت إسأل أي حد وهو هيدلك.

نظرت له هناء نظرة ذات معنى فهمه سامح، وأوما برأسه مؤيداً.

كان سامح وهناء جيران في حي شبرا بمدينة القاهرة، وكانا في نفس المرحلة الدراسية بحكم سنهما المتقارب. وكانت إهتماماتهما

المشتركة كثيرة جدًا لدرجة أنها طغت على مناطق الاختلاف. كما كان الأستاذ جرجس والد سامح هو الصديق المُقَرَّب للأستاذ ألفونس والد هناء. أيضاً كانا يذهبان للتعبد في الكنيسة الإنجيلية بشبرا منذ الصغر، كما كانا عاشقين الرحلة الصيفية السنوية التي ينسق لها سنودس النيل الإنجيلي لبيت السلام بالعجمي. ومن شدة حبهما لهذا المكان الخلاب المتباعد الأركان، المزين بأشجار متنوعة نمت في أرض ظن البعض أنها قاحلة غير صالحة للاستصلاح، قاما بالتطوع للعمل فيه دون أجر في كل إجازة صيفية للإطالة من فترة إقامتهما فيه قدر المستطاع.

وحيد أبويه كان، كما كانت هناء هي الأخرى الابنة الوحيدة للأستاذ ألفونس، والسيدة ليليان، والتي كانت بمثابة أم لسامح بعد أن توفت والدته السيدة مادلين وهو في الرابعة من عمره بعد صراعٍ قصير مع المرض .

زُيِّن المدخل الرئيسي للعمارة التي يقطنها سامح مع والده تمثالان لأسدين شامخين كانا قد نحتا من الرخام البلجيكي، والباب الرئيسي للعمارة كان قد صنع من الخشب الأبوس المزين بالحديد المشغول .

كما شُغل خشب باب منزل الأستاذ جرجس على يد فناني مصر من نجاري زمان مضى بأسلوب مميز، وخاص بعمارات ومنازل حي شبرا آنذاك. أدى هذا الباب لصالة مستطيلة مفتوحة على غرف ست مزينة حوائطها وأسقفها الشاهقة بالزخارف والرسومات، واللوحات الفنية. وفي آخر الصالة، كان باب زجاجي من خلفه شيش خشبي يأخذ الفرد لبلكونة متسعة الأطراف طلّت على شارع الترعَة البِولاقية.

وفي أمسية ربيعية معتدلة المناخ، دعا الأستاذ جرجس هناء لمعركة شطرنج، والتي كانت دائماً تتخذ أحداثها في بلكونة منزله المتواضع. وبعد إحضار سامح الشاي والمقرمشات للمتبارزين، بدأ الصراع على أنغام أغنية "إنت عمري" للسيدة أم كلثوم. في حين تابع سامح خطوات كل من المتنافسين الحذرة، سرح مع نغمات تلك الأغنية الخالدة، ومع صوت "الست" الفريد، وبعد بضعة دقائق إستوقفته تلك الكلمات:

إبتديت دلوقتي بس، أحب عمري

إبتديت دلوقتي أخاف لا العمر يجري

كل فرحة إشتقها من قبلك خيالي

إلتقاها في نور عينيك قلبي وفكري

يا حياة قلبي، يا أعلي من حياتي..

شعر فجأة أن قلبه قد توقف عن النبض، وأيقن لحظتها تمام الإيقان أنه يحب هناء. سرح بخياله في أضواء السيارات المارة، وتاه بعقله ظاناً أنها أجرام سماوية في ظلام الكون الفسيح، نجوم رسمت وجه أميرة، ملكة تربعت على عرش قلبه. أيقن أنه يحبها بكل ما فيه من مشاعر. يحبها من كل قلبه ووجدانه، وشعر بكل ذرة في كيانه تصرخ: هناء، أحبك.

أخذ ينظر من مسافة ليست بالبعيدة إلى عينيها الزرقاوين، وشعرها الكستنائي المموج العجري في صمت دون دراية منها، وسرح بباله طويلاً متأملاً شفيتها الممتلئين، مستسلمًا لما ملأ صدره، إلى أن فجر أبوه صيحة إنتصار من فتح عكا.

- كش ملك!!

نظرت هناء لسامح، وفي أقل من الثانية أدركت أن لا وجود له معهم
على كوكب الأرض إلا بجسده، فإستدعته قائلةً:

- باباك متخيل إنه ممكن يغلبني.. طب شوف الحركة دي كده يا
أنكل.. كش الملك بتاعك إنت بقي عشان مات.

صمت الأستاذ جرجس، ومن قمة دهشته فغر فاه غير مستوعب ما
حدث، ونظر لهناء، ثم إلى سامح، ثم إلى الطاولة وقال:

- استحالة .. إزاي يعني؟؟ ده أنا لسه كاشش الملك بتاعها. إزاي
بس؟

وبالطبع إنفجر كل من سامح وهناء في الضحك، لكن الأستاذ
جرجس أكمل التحدث إلى نفسه مستنكراً:

- إيه يعني؟؟ علمناهم الشحاتة؟؟

- إيه يا بابا الجديد يعني؟ ماهي هناء من أكثر من سنة وهي كل مرة
بتغلبك فيها. آمال أنا ما بالعبش معاها ليه؟

ظل الأستاذ جرجس يحملق في طاولة الشطرنج غير معترف بهزيمته،
وقال محدثًا هناء:

- هاخذ بتاري منك يا بنت إنتي الأسبوع اللي جاي.
- وأنا مش ضد طموحك يا أنكل. المهم، أنا لازم أروِّح دلوقتي.
- طيب سلميلي على أبوكي وقولي له هأشوفه بكرة في الكنيسة.
- حاضر..
- إنزل يا سامح وصلها.
- إرتبك الفتى اليافع لأول مرة في حياته لسماعه هذا الطلب، وقال:
- آه.. أيوه.. طبعًا.. مش عايز حاجة من برة يا بابا؟
- نظر إليه الأستاذ جرجس، وتركه وهو يضرب كفًا على كفٍ متمتمًا:
- الواد لسه عنده ١٤ سنة وبيتعامل معايا أكثُه ٢٥ وهو اللي
بيجيب طلبات البيت.
- جاءه صوت سامح من خلفه:

- العفو يا بابا، أنا ما اقصدش .أنا بس مش عايزك تنزل من البيت تاني وتتعب نفسك.

لم تكن المسافة بالبعيدة بين منزل سامح وهناء، وفي الطريق وأثناء تحية سامح لبعض الجيران وأصحاب المحال والمتاجر على ناحيتي الشارع، سألته:

- هي مامتك كانت بتحب باباك؟

- هي ماتت وأنا عندي ٤ سنين، بس أكيد بابا كان بيعحبها أوي لانه دايماً بيحكيلي عنها، عن كل حاجة كانت بتعملها، حتى طريقة كلامها ومشيتها، وإيه أكلتها المفضلة والألوان اللي كانت بتحب تلبسها، لدرجة إني بأحس أحياناً إنها لسه عايشة معنا في البيت.

أبطأت هناء خطواتها حتى تتلافى الوصول لمنزلها بسرعة. فكانت ترغب في إطالة حديثها مع سامح قدر الإمكان، خاصة بعد أن لاحظت تلك النظرة الحاملة في عينيه العسليتين اللامعتين، وبتنهده قالت:

- يا ريت حد يحبني كده.

إبتسم سامح إبتسامة الظافرين المفتخرين بإنجازاتهم وفتوحاتهم،
فعلم أن اللحظة المناسبة قد أتت كي يفصح لها عما يجيش به
صدره، وقال فاحصًا عينيها الياقوتيتين:

- إبتديت دلوقتي أخاف لا العمر يجري.

كان لكلامه البسيط والقصير وقع السحر على نفس هناء، فأمسكت
يده بيد مرتعشة دافئة مُؤمّنة، وقالت:

- وأنا كمان، إبتديت دلوقتي أحب عمري.

إكتفي الشاب الهمام بالإبتسام في وجه هناء المستدير الدافئ، وقال
بنبرة رزينة:

- هاشوفك بكرة في الكنيسة ونكمل كلامنا.

في طريق عودته لمنزله أحسّ وكأنه لا يلامس الأرض. شعر بنشوة
الفتاحين، وإنتصار الضعفاء. لم يدرك مدى إنشراح معالم وجهه حتى
سأله والده عند وصوله للمنزل:

- يا رب دايمًا وإنت فرحان.

إرتبك الفتى، ولم يعرف كيف يُعقّب على تعليق أبيه هذا، فقاطع
الأستاذ جرجس تفكيره المُشرّد المُعذّب قائلاً:

- هناء بنت كويسة وطيبة ومن بيت محترم، وانتوا الاتنين بينكم
عوامل مشتركة كتير. ما أتمناش حد غيرها ليك، ولكن..

نظر سامح لأبيه متفحصًا، مترقبًا حين أكمل كلامه:

- إنت لسه يادوب ١٤ سنة، وده مش معناه إن حبك ليها مش
حقيقي. بس ده معناه إنك لازم تعمل حاجتين: أولًا، لازم تتأكد إن
حبك ليها مش هيتغير مع الوقت. وثانيًا، لازم تكون إنت نفسك جدير
بيها، مش بس من الناحية المالية، لكن كمان إنك تكون راجلها .
والرجولة يابني مش بالشنب ولا بالشخط والنظر وقلة الأدب.

- بص يا عم جرجس..

إندهش "عم" جرجس من مناداة وحيدته له مستخدمًا هذا اللقب،
فطالما أحب لقب: بابا، لكنه أيقن لحظتها أن ابنه لم يعد طفلًا بل
فتى ناضجًا، فسمح له بمواصلة كلامه.

- أنا معنديش أي أسلوب يخليني أتأكد من إن حبي لهناء مش هيتغير، وعشان دي حاجة ترعب، هافضل أفكر نفسي كل يوم بحاجة واحدة بس.. حبك إنت لماما.

إغرورقت عينا عم جرجس بالدموع، وضم سامح لصدره ويحنان الأب قال:

- بكرة بعد الكنيسة نعزم ألفونس وليليان هنا على الغدا، وإنت تكلم هناء.

إنشרכת أساير سامح، وشعر كأن الغد هو يوم خطبته، حتى فاجأه الأب قائلاً في طريقه لغرفته:

- بكرة مش خطوبتك يا مدهول. لسه بدري عليك يا بن الرقضي.

إستيقظ سامح اليوم التالي قبل صياح الديك وهب للاستعداد لليوم الحافل الهام. وفيما هو يرتدي ملابسه، وقف لحظات أمام المرأة محملاً، وأيقن أن حبه لهناء ليس كالنار في الهشيم، مُحْرِقَة، عنيقة. ولكنها بالحري كنار السبرتاية، متوسطة القوة لكنها عنيدة، وتؤكد لحظتها أن هناء ستكون امرأته حتى آخر العمر.

في الطريق للكنيسة هذا الصباح، لم يكن عم جرجس كعادته في تحية أهل الشارع وتجاره وأصحاب المحال، بل كان متجهماً شارداً الدهن.

لم يبال سامح بمزاج أبيه، بل لم يلاحظه. فالفتي في عالم آخر، عالم حالمٍ فيه يتداخل الواقع بالخيال، عالم العُشَّاق.

وباغته عم جرجس قائلاً:

- اسمع يا سامح، لازم توعدي بحاجة.

لم يتوقع سامح ما كان لِيُطلب منه، لكنه توجس من الأمر.

- خير يا بابا مالك؟ أوعدك بياه؟

- لازم توعدني يا بني إنك تعمل أقصى ما في وسعك عشان تهاجر من البلد دي.

وقع ذلك الطلب على أذني سامح كالصاعقة. فكان عم جرجس آخر شخص في الدولة المصرية يُتوقع منه التفكير في الهجرة، أو أن يحث أي شخص آخر على ترك البلاد. فهذا الرجل مصري للنخاع، عاشق لتراب هذا البلد. لم يكن عسيرًا التأكد من ذلك، خاصة حين كان يتحدث عن مصر مستخدمًا عبارات وألفاظ العاشق لمعشوقته. كان يعرف كل شارع وزقاق وحارة بالقاهرة القديمة، بكل حوانيتها وتاريخ تلك المحال وأصحابها بصفة شخصية، وكان يفخر بصداقته للكثير منهم. فكيف لمن شارك في حرب أكتوبر أن يطلب من وحيدته أن يتركه ويرحل بعيدًا عن مصر، خاصة أنه على دراية كاملة أن السيدة ليليان سترفض تلك الفكرة من أساسها. فهناءً إنبتها الوحيدة، ومبدأ

السماح لها بالإرتباط بشخص يُفكر في الهجرة يعني الحكم على تلك
العلاقة بالموت قبل أن تبدأ.

في هلع، حاول الفتى تفهّم منطق الأب بطلبه هذا، داعيًا السماء
بالتدخل سريعًا حتى تشيئه الملائكة عن مطلبه.

- ليه يا بابا بتطلب مني الطلب ده؟ إنت مش عارف إن....

قاطعته والده قائلاً:

- بص حواليك يا بني وإنت تعرف. دي مش شبرا بتاعة زمان، ودي
مش مصر بتاعة زمان، واللي حاربت عشانها ومات عشانها كثير من
زمايلي. الحال من سيئ لأسوأ، ومن الآخر كده، عايز تعيش مش بس
سعيد، لكن في بلد تقدر مجهودك، يبقى مكانك إنت وهناء مش هنا.

- خير يا بابا؟ إيه اللي حصل وإتغير من إمبارح بالليل؟

- كل حاجة إتغيرت يا بني، ولسه هتتغير كمان وكمان.

- طيب إهدا بس كده، وخلينا نروح الكنيسة ونكمل كلامنا بعدين.

- مش هتحرك خطوة واحدة إلا أما توعدني.

وعده سامح فقط حتى يهدأ، ولم يظن وقتها أنه سيفكر جدياً فيما طلبه عم جرحس، بل ظن أنها مجرد فضفضة من أب يكثر لحال ابنه ويهتم بمستقبله.

بعد أن انتهى الجميع من تناول وجبة الغداء، والمكونة من مكرونة وكوسى بشاميل، وقطع من البوفتيك الشهي، وسلطة بلدي مُطعمة بالتوابل الحارة وزيت الزيتون، قامت السيدة ليليان لتنظيف وغسل الصحون، ووثب كل من سامح وهناء ليساعداها في ذلك، لكنها أوقفتها قائلةً:

– مش عايزاكم تساعدوني.. روحوا إنتوا الاتنين ذاكروا. وإنت يا سامح خلّي هناء تذاكرلك علوم عشان إنت خيبان فيه.

ذهب الإثنان لغرفة سامح، وإستمع الأستاذ ألفونس لهناء وهي تغيظ سامح وتعايره بأنه "خيبان" في العلوم. فنأدى على سامح من غرفة المعيشة قائلاً:

- ماتسيهاش تتريق عليك يا سامح. هي كمان خيبانة في الحساب وأمها عارفة.

ثم تركهما للإنضمام لعم جرجس في بلكونة المنزل الشاسعة، وقال له بشيء من الحسرة:

- إيه يا جرجس.. العيال بتكبر وتكبرنا معاهم ولا إيه؟

- إتكلم عن نفسك يا راجل يا عجوز. أنا عن نفسي هافضل شباب على طول.

حدق النظر إليه، وبنبرة لا تخلو من السخرية قال ألفونس:

- شباب إيه بس؟ انت هتاخذ زمنك وزمن غيرك؟

- طب أروح أتجوز بكرة وأجيب أخ لسامح عشان أثبتلك؟

- جدع إعملها.. ويبقى كده هتفضح نفسك بنفسك يا حلو، عشان العروسة يوم الصباحية هتطلب بطلان زواج.

- يلاً يابن ال....

- لم نفسك عشان ليليان لو سمعتك بتبّح هتبقى ليلتك مش فايتة.

- طب روح هات الطاولة وأقعد نلعب عشرين.

- إنت ماحرمتش من آخر مرة لما أخذتك مرس يجي ٣ عشرات؟

- إنت هتستهيل؟ ده أنا اللي لازم أسجلك من هنا ورايح.

ذهب أيفونس لإحضار الطاولة من مكانها المعتاد بجانب جهاز الفونو والإسطوانات الكلاسيكية. فكان عم جرجس يهوى تجميع تلك الأسطوانات، وكان على حق في تحدي التطور التكنولوجي للأجهزة السمعية، وفي رفضه مواكبة التحديث. فالصوت الناتج من تلك الأسطوانات لا يضاهيه أي من الاختراعات الحديثة والتي تؤثر سلبيًا على نقاء ودفء، وجودة الصوتيات.

وفي طريقه أخذ أيفونس يرمق بطرف عينه داخل غرفة سامح حين
إنضمت له ليليان من داخل المطبخ حيث كانت تقوم بتنظيف
الصحون وغسلها، ودون أن يشعر بإقترابها سألته:

- من إمتي بتتجسس على العيال؟!

فاجأه وجودها، وفي إرتباك رد متلعثمًا:

- لا أبدًا، بس عايز أشوف بيلعبوا ولا بيداكروا؟

تنهدت ليليان، وقالت لأيفونس ممسكة بيده وكان قد نفذ صبرها:

- بص يا أيفونس، إنت عارف إن هناء وسامح متربيين مع بعض،
وعارف أخلاق سامح كويس. إنت ريته زي ما جرجس رباه بالضبط.

- وإنتي كمان زينا بالضبط.

قاطعته بحركة من يدها اليمنى قائلة:

- وعشان كده هاقولك للمرة الأخيرة، ثق في تربيتك وفي بنتك،
واعرف أن أحسن حاجة ممكن تحصل للأسرة دي إنهم يرتبطوا ببعض
لما يكبروا. وحتى لو ما ارتبطوش ببعض، إنت عارف كويس إن حب

المراهقة هو أنقي أنواع الحب.. سييهم في حالهم وما تضايقهمش
بأفكارك.

شعر ألفتونس بالخبجل، وإكتفي بأن أمسك بيد زوجته ولشماها في
حنان معتدراً.

أما سامح فأمسك بيد هناء ناظراً نظرة ثاقبة في عينيها الهادئتين
وقال لها في حنوٍ بالغ:

- هناء، أينعم إحنا يادوب عندنا ١٤ سنة، لكن أنا بحبك من كل
قلبي وفكري.

توردت وجنتها العاليتان، وقالت:

- وأنا كمان.

- ولكن..

- ولكن إيه؟ إحنا لحقنا أما هتقولي لكن؟؟

- ولكن يا هناء.. عشان إحنا لسه صغيرين، لازم إحنا الاتنين ننتبه
لأهم حاجة في حياتنا دلوقتي.

- ألا وهي؟

- تعلمينا.. أنا قررت إنني أبقى صيدلي.

وقعت هناء على الأرض ضاحكة، عاجزة عن التوقف مما أثار فضول سامح، وحنقه في ذات الوقت.

- بتضحكي على إيه يا هيلة؟

- لا أبدًا.. أصل إنت بتقول..

إستمرت هناء في الضحك بهستيريا لدقائق بلا توقف، وتركها سامح حتى هدأت، ثم قال:

- أنا عارف إنني خيبان في العلوم، بس عشان كده أنا محتاج لمساعدتك. وعلى فكرة، أنا هاكون محتاج لمساعدتك ووقوفك جنبي في كل حاجة. ببساطة أنا مقتنع إنني بيكي هاقدر أتحدى المستحيل.

أمسكت هناء بيد سامح، وقالت بثبات:

- وأنا هاكون كتفي بكتفك، ومش هسيبك مهما حصل.

إنطلق صوت من سماعات صالة الإنتظار بسفارة كندا بالقاهرة
صارخًا، وأيقظ الجميع منادياً:

- Number C115. Window 3 please...

قفز سامح من مقعده، ممسكًا بيد هناء:

- يلاً، دورنا جه.

مخاطبًا السيدة خلف الفاصل الزجاجي قال:

- Hello, how are you today? I'm Sameh, and this
is my fiancé Hanaa...

- Yes, hi. Please have a seat. We can continue
this conversation in either English, or Arabic.
Your choice.

- We can do either.

- OK, great. So we've reviewed your application, and our decision is to proceed with you to the next step.

شدت هناء على يد سامح مباركةً له، وفعل هو كذلك وكأنه يقبلها،
وأكمل حديثه للسيدة فرحًا بالأخبار:

- WOW! That's great. And what would be the next step?

- The next step would be to perform a thorough medical examination. Here's a list of the approved, and recognized doctors, and medical facilities where you can do your tests. After that, and based on your results, we may ask you to come back to the embassy for one final interview. Please remember, you have only 30 days to get the medical examination done, and have the results returned to us.

- OK, Thank you...

- Do you have any other questions?

لم يكن لدى سامح ما يريد الإستفسار عنه، لكنه نظر لهناء متسائلاً
إذا ما كانت لديها أية أسئلة تريد أن تطرحها على سيدة السفارة،
فسألتها قائلةً:

- So, assuming the tests are OK and all, and after the interview we may need to have with you, how long would it take to get the immigration visa?

- I am in no position to provide you with a solid answer to this question, simply because it depends on many different factors. However; normally after the final interview is done, and based on the agent's recommendations, and assuming it would be in your favour, you will be asked to transfer a lump-sum of money to a Canadian financial institution that is located in Canada of course. Once we get confirmation the

funds have been transferred, it may take up to 90 days to receive your immigration visas. Once you do, you will have 12 months to arrive at any Canadian port, and register as landed immigrants.

خارج السفارة الكندية بدت على هناء ملامح الغضب، خاصةً بعد أن انشرفت أسارير خطيبها، فسألته متهكماً:

- فرحان؟! -

لم يلحظ سامح نبرة الإستياء في صوت محبوبته، فقال بكل براءة:

- طبعًا.

ثم نظر إليها، ولم يكن قد إستوعب مشاعرها غير الراضية بعد. سألها بإستنكار ولم تغادر الإبتسامة وجهه:

- هو إنتي مش فرحانة؟

- لأ إزاي؟ ده أنا هأطير من الفرحة!

قاطعها منادياً على سيارة أجرة:

- شبرا يا أسطى؟

ثم قال لهناء وهو يمسك بباب السيارة المفتوح لها، وكان قد بدأ في إستيعاب أن أمراً ما يدور في بالها:

- إركبي طيب ونتكلم في البيت.

- بيتنا ولا بيتكم؟

إستوقفه سؤالها ونظر إليها مندهشاً، لكنه لم يرغب في مناقشتها أمام سائق التاكسي، خاصة أنه كان من الواضح عليه عدم الرضا عنهما كزبائن.

- بس يا أسطى على يمينك هنا لو سمحت ... كام حسابك؟

- اللي تجيبه..

وبعد صمتٍ دام للحظات قصيرة، انفجر سامح كما لم ينفجر من قبل.

- بأقولك إيه، خلصني. إنت واللي زيك أكبر دليل على إن البلد دي عمر ما هينصلح حالها. إنجز وقول عايز كام. مالهاش لازمة المناهدة دي. إنت تقولي اللي تجيبه، وأنا أقولك عشت، فتقوم تقولي خلي عنك خالص، وإحنا الاتنين نضيع من عمر بعض نص ساعة في هري مالوش أي تلاتين لازمة.. بص، أهى ٥ جنيه ولو مش عاجبك يبقى ما قدامكش غير إننا نروح القسم عشان أنا خلاص جيت جاز من أمها بلد.

بيروود الجراحين الإنجليز، رد عليه سائق التاكس قائلاً:

- يا بيه خلي عنك خالص.

- ماشي خلاص.. هات أم الخمسة جنيه وإتكل عشان أنا مش طالبة معايا الحوار ده من أساسه.

سبب السائق، لكنه لم يجرؤ على بدأ أي شجار مع سامح. ربما خاف منه أو من جمهرة الجيران وأصحاب المحال الذين هبوا بعرض المساعدة على ابن خليلهم. وحيث كان سائق التاكسي من أصحاب السوابق، قرر مغادرة الحي المزدهم لاعتنا:

- مادام البلد دي مش عجباك قاعد فيها ليه؟ ما تغور إنت والبهيمة اللي معاك في أي داهية.. غوروا على كندا.

كاد سامح أن يفتك بالرجل، لكن أهل الحي سبقوه لذلك في جمهرة عظيمة. ودون أن يدري غادرت هناء المكان دون إنتظار خطيها متجهة إلى منزلها. شكر سامح أهل حيه، وإنطلق وراء أميرته، وبالرغم من سرعة خطاها، تمكن من اللحاق بها. لكنها لم تنبس ببنت شفة. كما إنترم سامح الصمت، لكنه لاحظ الغضب على معالم وجهها.

- هاجي أقعد معاكي بالليل.

لم تجبه، وكأنها لم تسمعه. تركته وكأن لا وجود له في الحياة. وفي طريق عودته للمنزل لمح عم جرجس منتظراً في بلكونة المنزل متلهفاً لرؤية وجه ابنه، لكن للأسف لم يبد وجه سامح أي تعبير ليُفرح قلب الأب.

لاقاه عم جرجس على درج العمارة الرخامي وسأله بشغف:

- إيه الأخبار يابني؟ طمني..

- تعالى بس نطلع البيت وأحكيك بعد ما آخذ دُش. تخيل
التاكسي....

قاطعهُ الأب بحدّة:

- مش مهم التاكسي دلوقتي، المهم إيه اللي حصل في السفارة؟
- إتقبلنا في أول مرحلة، بس في خطوات تانية كتير قبل ما ناخذ
فيزة الهجرة.

- تمام. طب خش إنت خد دُش وبعدين ناكل لقمة مع بعض. أنا
عامل ملوخية وفراخ. أُمّال فين هناء؟

- هناء تعبانة فروحتها البيت، وهاروح أقعد معاها بالليل.

- إوعى تكونوا إتخانقتوا!

تنهد سامح متحاشياً النظر لأبيه، مندهشاً من قدرته على قراءة
الأحداث، والتكهن بمجريات الأمور، ثم قال:

- لسه.. بس غالباً هنتخانق بالليل لما أروح أقعد معاها.

رمقهُ عم جرجس محذراً، فلم يكن يسمح لنفسه تحت أي ظرفٍ من الظروف أن يتعارك مع زوجته الراحلة، أو أن يغضبها.

- متخافش يا بابا، مش أنا اللي هأتخانق.

- مش إنت الراجل؟

تجهم وجه سامح وفكر لحاله "هل حقاً والدي العزيز بحاجةٍ إلى إثبات؟!"

- رُدْ عليا، مش إنت الراجل؟ خلاص يبقى إنت اللي تحتوي هناء. أنا قلت لك مئة مرة قبل كده، الست مش محتاجة غير حاجة واحدة بس: حب. أنها تتحب، ويس. وهناء بتحترمك، ودي أكثر حاجة الراجل محتاجها. معادلة سهلة. إحنا كده، ربنا خلقنا كده. الست تحترم الراجل والراجل يحب الست ويفني نفسه عشانها. بس خلاص.

- بحياتك يا أبي، لا أشعُر برغبةٍ في أن أوعظ.

- طب ورحمة أمك يابن الرفضي، لو زعلت هناء لا أكون ضاربك بالشيشب على قفاك وأنا عمري ما عملتها وإنت صغير. دي هناء يا

غبي، هناء.. حته منك. ده إنتوا الإثنين من كتر ما بتقصوا وقت مع بعض بقتوا شبه بعض. وإوعى ترد عليا مرة تانية بالفصحي. فاهم؟
جزمة ابن كلب صحيح.

إستم سامح وهم بتقيل جبهة أبيه، لكن عم جرجس رفض ذلك
ودفعه بعيداً قائلاً:

- إبقى بوس على راسي بعد ما تقعد مع هناء وتصالحها، مش قبل
كده.

بعد لحظات من طرق باب منزل هناء، فُتح الباب وإذ بالأستاذ
ألفونس شخصياً يستقبل سامح قائلاً:

- إنت جيت يا مدهول؟

كان هذا هو لقب سامح والاسم المتداول له بين كل من عم جرجس والأستاذ ألفونس.

- إزيك يا عم ألفونس؟

كانت تلك هي المرة الأولى التي فيها يستخدم سامح لفظ "عم" في مخاطبته لحميه.

- إنت يابني عبيط؟ ! مجنون زي أبوك.

دعاهُ للدخول ضاربًا كفًا على كفٍ وقال:

- بس ها أقول ايه؟ بنتي بتحبك. المهم، اسمع..

- خير؟

- هناء قافشة على اللي جابوا أهلك، وقاعدة في البلكونة وواضح إنها مش هتعددي الليلة دي على خير. وبصراحة لو أمها شمت خبر وعرفت إنك مزعلها، هتعملك كفتة. إنت عارف ليليان من يوم ما اتقدمت رسميًا لهناء وإنك أصبحت في مقام ضرتها.

- عارف.. مش محتاجك تفكرني.

- هي بتحبك آه، بس في الأول وفي الآخر إنت هتاخذ بنتها الوحيدة، لأ وكمان عايز تاخذها وتهاجروا. جاتكم الهم انتوا الإثنين. اسمع، من الآخر كده، إنت داخل حقل ألغام. سلام.

- إيه ده؟ إنت رايح فين؟

- يابني إنت غيبي؟ بأقول لك إنت داخل حقل ألغام، وأنا معنديش استعداد أُنْفَجَّر معاك. إبقى قول لحماتك أنا على القهوة.

- سلام يا عم أَلْفونس.

- إْتفوا عليكم، خِلْفَة وسخَة.

إنضم سامح لهناء في بلكونة منزلها، وشعر بإنعقاد في معدته. ذلك الشعور السخيف الذي يداهم تلاميذ المرحلة الإعدادية قبيل إمتحانات آخر العام. جلس قبالتها دون أن ينطق بكلمة حين تأكد أنها في حالة استنفار عام، متربصة لأي كلمة تخرج من فمه لبدء الشجار، لكنه أضع عليها تلك الفرصة بصمته، فبدأت هي بالكلام:

- تقدر تقول لي مين اللي كان بيتخانق مع السُّواق النهاردة؟

إلتزم سامح الصمت، متحاشياً النظر إليها، فنظر بعيداً إلى سراب وهمي لا نهائي. فإستطردت هناء قائلةً:

- مين ده؟؟ مين الشخص اللي انفجر في السُّواق في نص الشارع ده ولم علينا الناس؟ قول لي عشان أنا ماعرفهوش.. الشخص ده أنا معرفهوش، وبصراحة خُفت منه، ومش هينفع أكون مراته ولا أروح معاه لا كندا ولا أي مكان وأسيب أهلي وبلدي.

- طب إهدي طيب..

- إنت عارف كويس إنك لما بتقولي إهدي أنا بأتعصب أكثر.

- طيب أنا آسف.

- لا يا سامح، الموضوع مش "آسف". إحنا لسه معملناش الكشف الطبي حتى وإنت بدأت تتعامل مع الناس بتعالي، وفجأة مش طابق إنك تقعد في البلد. لسه ما أخذتش فيزة الهجرة أصلاً وتتعامل كأنك مولود في كندا.

- كل ده عشان انفجرت في وش لص؟

صرخت هناء في وجه سامح في محاولة لتوضيح لُب غضبها:

- هو حرامي، إنت تنزل نفسك لمستواه ليه؟ وتكون النتيجة إني أتشتم بسببك. وبعدين هو إنت متخيل إن مافيش حاجة هتتحرق دمك هناك؟ متخيل إني أنا شخصياً مش هاعمل حاجات تكون بتغيظك؟ هيبقى إيه الوضع ساعتها؟ هتنفجر فيّ أنا كمان، وترجع تقولي أنا آسف؟

لمح سامح السيدة ليليان بطرف عينه حاملةً كوباً زجاجياً تقوم بتجفيفه، فابتسم إبتسامة بلهاء وكأنه يعتذر لها عن علو صوت خطيبته، و عليه عادت إلى مطبخها لإستكمال غسل الصحون بعد أن رمقته بنظرة مُحذرة.

لم يجد ما يقوله سامح لهناء، فالموقف حقاً أكبر وأعقد من مجرد الاعتذار. فإكتفي بأن أمسك بيدها، مترجياً أن تصفح عنه.

وبعد لحظات، قال بصوت خافت:

- أنا كمان خايف من المجهول، ومش بأحلم أحلام وردية وعارف ومتأكد إن كندا مش جنة الله على أرضه. وأصلاً مش عايز أهاجر عشان الاسم إني صيدلي هنا، وإني في واقع الأمر بياع بامبرز ومخدرات وفياجرا. ومش عايز أهاجر ولا حتى أوجد في الحياة من غيرك. كتفي في كتفك.. فاكرة يا هناء؟ أنا من غيرك ضهر وسند ليّ أبقى ولا حاجة. ولو إنتي ماويختينيش هأحسن من أخلاقي إزاي؟ أنا مش هقولك آسف لكن هقولك شكراً.

إلتفتت إليه هناء بهدوء، وسألته بثبات وشموخ:

- شكراً على إيه؟

- على إنك عارفة عملي خصوصية لحياتنا، ومش كل حاجة بتحصل بينا تحكيها لأهلك.

إبتسمت هناء إبتسامة باهته أظهرت الإجهاد على وجهها المستدير،

وقالت:

- أمي لو كانت عرفت، كانت فرمتك عشان تكون عارف بس.

- ما عم ألفونس قالي كده برضه؟

- إيه "عم" دي؟ من إمتي؟

رفع سامح يد هناء، ولثمها بكل الحب وقال:

- أنا فعلاً آسف.

- وأسفك مقبول.. يا مدهُول.

ضحك الحبيبان ضحكة طفولية، لكن للأسف لم يُكتب لتلك اللحظة العمر الطويل. فكانت ليليان على بعد ثانيتين من الانضمام إليهما، وعلى الفور سألتهما بشراسة متهمة:

- خلاص هتسافروا وتسيبونا؟ هتسيب أبوك يا خايب؟ هتسيبي أمك

يا هناء؟

- يا ماما مالهبوش لازمة الكلام ده. إحنا إتكلمنا في الموضوع ده

كتير قبل كده و....

- إنتي تخرسي خالص، ما اسمعش صوتك.

ثم باغتت سامح بنظرة شرسة، واستكملت دهسها لهما قائلةً:

- وإنت متفكرش أصلاً أنك تتكلم.

حملق العاشقان بعضهما لبعض غير مستوعبين ما صدر للتو من ليليان. فعادة هذه المرأة الهدوء والرزانة وسعة الأفق وحكمة التصرف ولباقة الحديث. لكنهما آثرا الصمت خاصة أن بدأت ليليان في البكاء. لم يكن بكاؤها نحيبًا، لكنه دلّ على عمق جراحها.

وبعد مرور دقائق ظنوا أنها الدهر، إسترجعت ليليان قواها العقلية،
وقالت:

- عقلي يقولني إن إحنا ربيناكم صح لما إديناكم حجم من الحرية أكبر من اللي الأهالي المصريين بيدوه لعيالهم. ومقتنعة إنكم كبرتم وعارفين يعني إيه تحمّل مسؤولية اختياراتكم، ومش هأعرف أغير من نفسي وأبدأ أتدخل في حياتكم الخاصة، ومش من حقي أقول لكم فين المكان المناسب اللي لازم تعيشوا فيه. بس قلبي يقولني إني من حقي أهزأكم عشان هتمشوا وتسيبونا.

صاح الأستاذ ألفونس منادياً إبنته من خلال ردهة المنزل المترامية الأطراف، طالباً منها إلتقاط الهاتف من غرفتها للتحدث مع خطيبها.

- ألو، إزيك حبيبي عامل ايه؟

- أنا كويس، إنتِ يومك كان عامل ايه؟

- مُرهق.. لفيت كتير أنا وماما، ومن حارة اليهود لشعبان للفجالة،
لما ورمنا.

- مش إنتي اللي عايزة تتجوزي؟ إشريني بقي.

- ده على أساس إنك من غيري كازانوفا؟ يا بابا إنت من غيري الدير
نفسه يرفض ياخذك. أنا عاملة فيك خير بجوازي منك أصلاً.

- خايف تكون أخلاق أمك تكون بنتقع عليك من غير ما تحسي.

- طب ما هي أمك هي كمان، مش هي اللي مريباك؟

- ما هو ده العجيب .أنا أخلاقي تطلع محترمة، وإنّ أخلاق من السبّية.

- ده على أساس إنك من المعادي؟ نسيت أنك شبراوي؟

- آه صحيح بمناسبة الشبراوي، أنا بعد الشغل خارج مع الواد عليّ وهنروح الشبراوي.

- يا دي عليّ.

بعد ثوان من الصمت المفاجئ، إستوعبت هناء ما قالت.

- أنا مش قصدي يا سامح، أنا بس كنت عايزة أشوفك.

- هناء.. علي مش مجرد صديق، ده أخويا. والصديق الوحيد اللي طلعت بيه من الدنيا. أنا وإنّتي نعرفه من وإحنا عيال. كل أصحابنا بتوع المدرسة أو الجامعة أو حتى الكنيسة يا إما هاجروا، يا إما عزّلوا من شبرا أول ما ربنا فتح عليهم وبقت شبرا خلاص مش من مستاواهم. إلا عليّ. هو زي ما هو، أصيل وما إتغيرش.

- أنا عارفة يا سامح.

- وأنا بس حبيت أفكرك، وبمناسبة الكلام على علي. أنا هأطلب منه
يكون إشييني في الفرح.

بحماسٍ مفاجئٍ، في الأغلب نتج عن شعورها الداخلي بالذنب
قالت:

- أكيد هيوافق، بس تفتكر الكنيسة هتوافق إن الإشيين بتاعك يكون
مُسلم؟

- وهو إنتي من إمتي تعرفي عني إنني يفرق معايا رأيهم؟

- يعني ايه؟

- يعني سببي لي الموضوع ده، ما تقلقيش.

- آلو، ممكن أكلم السيد علي القاضي؟

- نقوله مين يا فندم؟

- إحنا هنا يا فندم مركز المصل واللقاح، وبلغنا إنك مريض بمرض
خطير ومُعدي ولازم نيجي نديلك حقنة في تسيبيت

هزت ضحكة عليّ أركان مطعم الشيراوي، وفي عدم مبالاة بالجمع
الشاخص نحوه، قال بصوتٍ أجش:

- إنت فين يا حيوان؟ أنا مستنيك عند الشيراوي وفي حوالي
خمسين بهيم ونعجة باصين لي دلوقتي، وأنا مش مرتاح للموقف.

- أنا حيوان يا جزمة قديمة نعلها مخروم؟ وبعدين مش خايف الناس
اللي إنت بتشتهمهم دول يضربوك؟

- يضربوني؟ ده بجد؟

وبأعلى صوت له قال متحديًا الجمع الشاخص:

- طب لو فيهم ذكر ابن ذكر شارب من صدر أمه خليه يجي يحاول.

- طب بس بس إهدا وإطلع لي برّه. أنا واقف قدام الشيراوي.

منذ أن علم عليّ بحصول سامح وهناء على أوراق الهجرة الرسمية
لكندا، وفي كل مرة يتقابل فيها مع سامح يقوم بلف ذراعيه القويتين
حول حمله من على الأرض في ترحيبٍ لا مثيل له. لكنه اكتفى في
ذلك اليوم بسلام اليد وتقبيل الخدين، مما أثار فضول سامح.

- إيه مالك؟ سلامك مش زي كل مرة. أنا مزعلك في حاجة؟ ولا
تلاقي أبوك ضربك بالخرزانة كالعادة.

وجد عليّ في منظر سيارة والد سامح الخنفساء فرصة ليُغيّر دفة
الحديث:

- إنت أبوك مش هيغير الخنفسا دي بقي؟

- مالها يا عم الخنفسا؟ ما هي ياما شالتنا، وياما طلعا بيها
إسكندرية.

- صح، وياما كسّرت ركبي.

- دي غلطة أبوك على فكرة. هو راجل طويل، يقوم متجوز واحدة
طويلة زيّه، فيجيبوا جُليات الجبار.

- بقولك إيه، صلي على النبي. أنا جعان.

- وأنا عايز أتمشي على الكورنيش.

- خلاص هاخس أجيب سندوتشات ناكلها في الطريق.

- أنا مش جعان، بس عيش إنت.

وبعد مرور أكثر من نصف الساعة، خرج عليّ بكيس ورقي ضخم مليء بأطعمة وساندوتشات شهية، فصاح فيه سامح:

- يا عم شمشون، أنا قلت لك أنا مش جعان.

- وإنت مال أهلك؟ ده ليّ أنا لوحدي

ضرب سامح كفًا على كفٍ وقال لعلّي ساخرًا:

- وبعدين ترجع تشتتم سوزي..

- هو إنت سميت العربية سوزي؟

- آه ليه؟

- طب ما تجيها لفة.

- ده على أساس أني مستغني عن عمري؟ أنا يا عم فرحي كمان أسبوعين، ومهاجر بعدها بشهرين، ومش عايز أخرج من الدنيا قبل ما أدخلها.

أغلق عليّ فمه بعد أن كان فتحه على آخره ليلتهم أول رغيف من الفلافل الساخنة.

- الله يسد نفسك زي ما سدبت نفسي.

ثم ألقى بالكيس الورقي على الأريكة الخلفية بالسيارة، وأشعل سيجارة. وصمت الصديقان حتى وصلا إلى دار الأوبرا المصرية، وبمعجزة وجد سامح مكان يركن فيه سيارته. وفي الحال حضر السائس لتقديم خدماته، وهي في واقع الأمر إتاوة فرضها على أي شخص يرغب في ترك سيارته في هذا المكان. أخرج سامح ورقة نقدية بقيمة خمسة جنيهات وأعطائها للسائس.

- من إمتي الفنجرة دي؟ وبعدين ده كده أكثر من تمن العربية نفسها.

- ما أنا قلت لك، أنا ماشي من البلد كمان شهرين ومش عايز
مشاكل مع حد، وكده كمان يهتم بالعربية.

- يا دي الليلة السوداء. إنت إيه يا سامح؟ مافيش إحساس خالص؟
يعني إنت مقابلني النهاردة عشان تشلني يعني؟

توقف سامح عن المشي، ولم يلاحظ عليّ، وبعد أن فصلتهما بضعة
خطوات، باغته بسؤاله:

- هاوحشك يا عليّ؟

نظر عليّ جانبه فلم يجد سامح، ثم نظر خلفه ودون أن يرد عليّ
سؤال صديق طفولته، ذهب إليه مسرعاً، وضمّه إلى صدره، وبصوت
غلبه الحزن قال:

- إنت إيه رأيك يا حيوان؟

- طب نزلني عشان عايز أطلب منك طلب.

مجفّفًا لدموع غلبت من يظنه الناس وحشًا كاسرا، قال:

- إنت تؤمرني..

- الأمر لله يا أخ عليّ.

قبض عليّ على تلايب صديقه، وقال محذراً:

- وله.. متخلينيش اسمعك سيمفونية إسكندراني من الحنجرة.

- طب خلاص، هدي أعضائك. أنا عايزك تبقي الإشبين بتاعي في فرحي.

ترك عليّ رقبة سامح، وبعد أن استعرض عضلاته المفتولة لثوانٍ قال:

- أنا بأشوف البتاع ده في الأفلام الأجنبي، وأنا طبعاً معنديش مانع، بس..

- بس إيه؟

- يعني..

- يعني إيه مالك؟ فجأة بقيت يونس شلبي ليه؟ إشحال مكناش تعليم

مدارس خاصة مع بعض؟

- لأ مش الفكرة، بس الكنيسة وضعها إيه؟

- إنت كلمت هناء قبل ما نتقابل؟

- لا والمصحف ما حصل.

- أصل هي قالت لي نفس الكلام.

. سؤال منطقي يا فتى ولا بد من الإجابة عليه يابن زحلمة.

- أحبك بالنحوي يا ونش.. بس ما لاكش دعوة، أنا هأتصرف.

- إزاي؟ أنا مش عايز أكون سبب مشاكل ليك. أنا عارفك عنيد،
وممكن تطربق لهم الكنيسة لو رفضوا، وبعدين تلزقوها في واحد
مسلم ويقولك بقي المسيحيين مضطهدين في مصر والحوارات دي.

إبتسم سامح ابتسامه خبيثة وقال:

- لأ، مش انا اللي ها اطربق لهم الكنيسة، عم جرجس هو اللي
هيقوم بالواجب المرّة دي.

صمت عليّ للحظات وشرّد بفكره، لكن سامح قاطع تفكيره
المُعذّب قائلاً:

- يا عليّ، بعد هناء، معنديش أغلي منك. إنت مش مجرد صديق يا عليّ. أنا أكلت من خيركم ويا ما بيّت عندكم، وإنت كمان يا ما جيت تقعد معايا أنا وأبويا بالأيام.. ويا ما غلبت أبويا في الطاولة.

- آه، ويا ما أبوك ضربني على قفايا لما كنت بأغلبه.

- وفوق كل ده، ده فرحي أنا، ومش هاسمح لأني حد يحرمني من وقوف أخويا جنبي في اليوم ده.

- ماشي، بس قول لأبوك ما يتغاباش جامد عليهم، عشان أنا اللي هاشيل الطين.

نظر إليه سامح مستفسرا، فإستطرد عليّ:

- مش إنت بسلامتك مهاجر؟ ولو أبوك عمل مشكلة مع أي حد مين اللي هيشيل؟ مش أنا؟ خلاص، يبقى تقوله بلاش يتغابي.

- حاضر. وعلى فكرة يا عليّ، زحلمة دي تبقي خالتك.

Et si tu n'existais pas

Dis-moi pourquoi j'existerais

Pour traîner dans un monde sans toi

Sans espoir et sans regret..

حلم سامح قبلاً بمشاهدة هناء أثناء نومها، وتحقق حلمه هذا الصباح على أنشودة المطرب المحبوب چو داسين مترددة في ذهنه. لم يرد إيقاظها حتى يستمتع بمشاهدة وجهها الفائق الجمال وشعرها الكستنائي المموج، وأنفها الصغير المدبب، وشفتيها الوردية المليئة بالحياة والحنان لأطول فترة ممكنة. وكان قد أمضى الليلة الماضية ناهماً منها، ذائقاً الشهد في جسدها، ملامساً السحاب في عينيها الياقوتيتين الحالمتين.

وبعد بضع دقائق، بدأت محبوبته في الاستيقاظ، وبعد أن فتحت عيناً واحدةً، مصارعةً ضوء الشمس الغاشم القادم من نافذة الفندق الفاخر الذي أقاما فيه، قال سامح مقبلاً شفيتها:

- صباحك سُكَّر..

إنفضت هناء من الفراش منفزعة، وصرخت في وجه سامح:

- أنا فين؟؟ انت عملت فيّ ايه؟؟

تجمد سامح في مكانه، وارتعشت مفاصلة. نشف ريقه فجأة، وفقد القدرة على الكلام، بل التفكير، ثم قال بصوتٍ مدعور:

- إنتي هبله، ولا بتستهيلي؟

إنظر سامح لسماع إجابة من هناء، لكنها ظلت محدقة في وجهه، شاخصة متأهبة كالفهد يستعد للفتك بفريسته في أية لحظة. وبعد أن إسترجع بعضاً من شجاعته، استطرد قائلاً:

- عشان في الحالين هأرجعك لأمك حالاً. أنا جوزك يا مدام وفي شهود، منهم أبوكي وأصحابك المهايل وبنات خالتك المجانين.

بكل ثقة، ونعومة راقية، قالت مبدلة نظراتها الشرسة:

- طب ما أنا عارفة، بس بأشغلك .وبعدين اسمها مامتك يا دكتور.

تنفس سامح الصعداء، ويدي لازالت ترتجف أشار لها قائلاً:

- آخر مرة تخضيني على ريق النوم بالأسلوب ده.

- إنت لسه شوفت حاجة، ده أنا هأشيبك.

- طيب مادام هتشييني، يبقى ألحق..

أمسك بذراعها، جاذبًا إياها لتعود للفراش، وبدلال حريم السلطان

سألته:

- تلحق إيه؟

حملق سامح في عينيها بكل الحب والحنان، نظرة إحتوت كيائها

الأنثوي.

- ألحق أشوف السحاب في عينيك يا صغيرتي، يا جميلتي .ألحق

ألمس الفردوس في شفئك يا تاجي وعزة رأسي.

بعد برهة من الزمن، ترك سامح فراش الزوجية ليستحم، ومن تحت
المياه المندفعة من الدُّش سمع هناء مخاطبة له بصوت مرتفع بعض
الشيء.

- إنت لازم تقطع علاقتك بعلي نهائيًا.

- إشمعنى!؟

- عشان هو أكيد اللي علمك الحاجات اللي إنت بتعملها دي.

أوقف سامح تدفق المياه، وخرج لهناء ليجدها ملقاة على الفراش
منهكة القوى، فقال لها بفخر وإعتزاز، وغرور:

- علي ده غلبان. كل اللي حصل إمبراح والنهاردة ده من إمضاء د.
سامح إسكاروس. وبعدين إنتي لسه شوفتي حاجة؟

إقترب من محبوبته وأمسك بها، وإستندت هي على صدره شاعرة
بضربات قلبه تتسارع. لامست أنامل أصابعه، فأمسك بذراعها ضامًا،
محتويًا. نظر إليها عاشقًا، فإتسعت حدقتا عينيها ثم أغمضتهما حاملة،

وسلمته شفتيها الممتلئتين، فقبّلها طويلاً. ومضت الساعات دون أن يدركوا، أو يأنسوا.

لم يتناول العروسان الجدد أي طعام منذ أكثر من أربعة عشرة ساعة، ولم يتذمرا. لكنهما قررا الذهاب إلى مطعم من المطاعم الملحقة بالفندق الفخيم، وسألته هناء بعد أن حضر الطعام:

- هي طيارتنا تقوم الساعة كام؟

نظر إلى ساعته الجديدة الملتفة على معصمه الأيسر، فرحاً بهدية أبيه له وقال:

- تقوم من مطار القاهرة بكرة الساعة 6:35 صباحاً وتأخذ حوالي أربع ساعات ونص لباريس. هنقضي يومين هناك، نعمل الجولة السياحية بتاعتنا واللوفر وكل الكلام ده، وبعدين ناخذ القطر ونروح على بروفنس.

- إشمعني حجزت في بروفنس صحيح؟

- أول ما هنوصل فندق أكابلا هتعرفني.

- تمام، ييقى كده لسه عندنا وقت نروح نشوف ماما.

أخذ سامح المنشفة ليمسح فمه من بقايا الطعام من على جانبي شفتيه، وبنظرة واثقة قال:

- واضح انك هتتعينني معاكي.

وبشات إنفعالي، أكمل قائلًا:

- مامتك نفسها قالت أنها مش عايزة تشوفنا يوم "الصباحية" عشان الأفكار والعادات العقيمة دي مالهاش لازمة. وبعدين أمك عارفة إنك غلاباوية، فهنروحلها ليه؟

- طب وإحنا يعني هنعمل إيه لحد معاد الطيارة

- نلعب شلح.

غممرته نشوة كبيرة عند رؤية هناء قادمة من السوق الحرة بمطار القاهرة، بعد أن قامت بشراء بعض الهدايا ومستلزمات السفر.

وكانه يراها لأول مرة.

"كم هي جميلة"

"كم هي أليفة، وحكيمة"

"كم أنا محظوظ لوجودها في حياتي، بجاني"

- جاهزة حبيبي؟

- أنا جاهزة، بس لسه دمي محروق من اللي عمله ضابط الجوازات.

- إنسي.. مش عايزين أي حاجة تعكفن علينا أسبوع العسل.

- بأحاول صدقتي، بس هما ليه بيعملوا كده؟ يعني هو أول مرة يشوف فيها إثنين متجوزين والعريس مالحقش يغير بطاقته لعائلية؟ يعني إيه مُصمم يشوف القسيمة؟ وبعدين حتى لو مش متجوزين هو ماله طالعين مع بعض نتفصح، ولا عندنا شغل، ولا حتى طالعين نهبل.. هو ماله؟

وبنبرة عتاب قال لها سامح:

- إيه يا هناء؟ انتي نسيتي إن مصر دولة دينية؟

- الدستور يقول....

- دستور إيه بس، بلاش نضحك على نفسنا. الدستور شكله شيك
ما فيش كلام، لكن السلطة الحقيقية هي السلطة على العقول، ودي
للأزهر والكنيسة زي ما إنت عارفة.

- عارفة خلاص، قفّل على الموضوع.. بَصْ أنا جيت ايه؟

وهنا قاطعهما نداء قادم من السماعات المتناثرة بأركان مطار القاهرة
الدولي معلناً عن قيام رحلتها إلى العاصمة الفرنسية باريس.

- سامح، هاقول لك على حاجة بس ما تضحكش..

- خير؟

- أنا خايفة من الطائرة.

- لأ خالص ماتخافيش من أي حاجة .دي زي الرولر كوستر في دريم بارك كده.

شعرت هناء بإنعقاد مفاجئ في معدتها، وبدأ العرق يتصبب من جبينها.

- طب ما أنا نزلت من الرولر كوستر وقعدت أزعج وكان هيغمي عليّ ..إنت بتتكلم بجد؟

- يا شيخة دي حاجات بسيطة.

شكّت هناء في أن سامح يرغب بالأخذ بثأره من خدعتها له بالبارحة، لكن الخوف من الطيران سيطر على تفكيرها، وباغتها سامح قائلاً:

- أهم حاجة، ما تصوتيش عشان هيقبضوا علينا.

- ها يقبضوا علينا في الطائرة؟

- لأ طبعاً يا أذكي عائلتكم .لما نوصل باريس، هيقلولوا للسلطات هناك إن الولية دي كانت بتصوت في الطائرة.

قالت هناء مستنكرة:

- ولية؟ أنا ولية؟؟

- مش إحنا هنجيب قد ٦ عيال؟ خلاص تبقي في حكم الولاية.

- لأ بأقولك إيه، أنا مش نقصاك الساعة دي. ٦ عيال إيه دول

كمان؟

وقع سامح على الأرض ضاحكًا، وقال ممسكًا بيدها اليسرى:

-لو إنت ناوية تشيبيني، أنا هأجنن اللي جابوكي. ما تنسيش إن إحنا

الأثنين صيادلة، ودماغنا بايطة من التركيبات الكيميائية من زمان.

قفز عليّ من على مقعده في المقهى، راکضًا ناحية سامح للترحيب به، وبذراعين مفتوحتين أخذه بالأحضان وكادت عضلاته المفتولة أن تُكسّر ضلوع سامح، وقال:

- حمدا لله على السلامة يا مدهول. وحشتني يا حيوان.

- بعد الحزن ده، مش قادر أقول وإنت كمان.

طلب عليّ قدحا من الشاي لنفسه، وقهوة على الريحة لسامح وحجرين معسل، ثم إتخذ مكانه على المقعد، وبإبتسامة لم تفارق وجهه الضخم، سأله:

- إحكيلي بقي بالتفصيل، عملتوا إيه؟

- إيه أم السؤال ده؟ عايز تفاصيل روح إتفرج على فيلم سكس وإخلص.

- يا جحش أفندي، مش التفاصيل دي. عملتوا إيه في بروفنس؟

- برضه عايز تعرف أخبار البلد دي روح زُرْها.

- أنا ما أسيش مصر أبدًا، ولا حتى زيارة لأي مكان. بس بأحب

اسمع عن بلاد برّة من كل اللي بيسافروا.

تنهد سامح بحسرة، وبعد أن رشف جرعة من قهوته، قال لعلّي وهو

يهز رأسه في إستنكار:

- بُص يا عليّ، كل اللي هأقوله لك، إحنا أول يومين كنا بنزل نلف

ونرجع، وقبل ما نطلع على بروفنس لقيت هناء جاية ماسكة الباسبور

بتاعها وبتقولي: "سامح، إنت عارف إن إحنا بقالنا يومين بنزل ونلف

ويننسي ناخذ الباسبورات معانا؟"

سرح سامح لثوانٍ متذكّرًا حوارَه مع زوجته، وكانت حسرتَه بلا نهاية،

وأكمل قائلاً:

- أنا كل اللي نزل على إني بقيت بأضرب كف على كف لدرجة إن

هناء مكانتش فاهمة في إيه، ولما سألتني قلت لها: "انتي متخيلة إحنا

في بلد مش بلدنا أصلاً، وشكلنا واضح إننا أغراب ومحدث سألنا عن
أي أوراق، ولا طلب مننا نطلع بطايقنا بكل رزالة."

قاطعته علي مندهشاً:

- هو فعلاً مافيش حد سألكم عن بطايقكم.. قصدي عن
الباسبورات؟

نظر سامح لعلّي نظرة كانت كافية لتجيب عن سؤاله، فهزّ عليّ رأسه
دون تعقيب منه. وبعد لحظات، وفي محاولة منه لغلق الموضوع قال
متنهدياً ناظرًا لفراغ إفتراضي أمامه:

- يلاً، أهي كلها كام يوم وتخلص من البلد دي، وتنفد بجلدك.

إغرورقت عينا سامح، وقال بصوت تخنقه الدموع:

- تصدقني يا علي لو قلت لك إني مش عايز أسيب مصر؟

ضحك عليّ بطريقة هستيرية، وإتضح بعد مرور بضعة ثوانٍ أنها
ضحكات ساخرة، وكانت لاذعة علي مسمع سامح. ثم قال عليّ
مستهزئاً:

- بص يابن جرجس، إنت تصيع على الناس كلها، إلا على علي القاضي.. إشحال ما أنا اللي كنت بأوديك وأجيبك من السفارة لمكتب الترجمة، للمستشفى عشان تعملوا الكشف الطبي، للسفارة تاني. جاي دلوقتي بعد ما أخذت تأشيرة الهجرة هتعملهم عليًا؟ خلاص يا سيدي مصدقك. إرتحت؟

أصابت سامح حالة من الدهول التام. فلم يتخيل للحظة سماع مثل هذا الكلام من صديق عمره، بل أخيه. تلعثم في إيجاد أي دفاع ضد تلك الاتهامات، وأحسّ بخنجر الظلم صائر في نفسه. لكنه في نفس الوقت اتخذ العذر لعليّ، فلا بد أن رد فعله العنيف هذا كان بسبب رفضه قبول فكرة أن سامح سيغادر البلاد، بعد ليالٍ معدودة.

وبعد دقائق طويلة من الصمت المتبادل، إستكمل سامح فنجان القهوة ثم هبّ للرحيل، فأمسك عليّ بذراعه الأيمن وقال:

- أنا آسف. مش قصدي يا صاحبي.

بابتسامة بلهاء لم تُخف عُمقَ جرحه مما قاله عليّ، أردف سامح:

- بكرة هتعرف أنا ليه سعيت ورا الهجرة، بس تأكد إنه مش عشان
أنا مخنوق من البلد بالرغم من كل السلبيات اللي فيها.

لم يكن عند هناء ذرة شكٍ في إكمال حب سامح لها، لكن أثناء
ممارستها الحب في تلك الليلة شعرتُ بأمر غريب لم تفهمه. لكنها
أحبت سامح حباً جماً حيث جعلها تشعر أنها ملكةٌ مُتَوَجِّهَةٌ على عرشِ
الدنيا. وفي صباحِ اليوم التالي، وبعد تناول وجبة الإفطار، سألته:

- كان مالك إمبارح؟

كالعادة، فهم سامح مغزي سؤالها، وردّ ممسكاً بيدها اليمني:

- قرار الهجرة بالنسبة لي يا هناء هو قرار الاستغناء عن وطن.
وبالرغم من إن كندا مش زي دول الخليج اللي عمرك ما بتاخدي
جنسية البلد اللي إنتي روحتي تشتغلي فيها، هي هتديلك جنسيتها.
أكيد فيها الحلو والوَحْشُ زي أي بلد، وأكيد مش جنّة الله على أرضه
زي ما كتير من المهاجرين بيتخيلوا. بس كل ده لا يمنع إن مفهوم

"الوطن" سيُفقد مني. وبما إني مستحيل أعيش من غير وطن، أنا
إخترتك تكوني وطني.

رفعت هناء يد سامح إلى شفيتها، وقبلتها في حنان وقالت:

- من وإحنا صغيرين وإنت دائماً عندك طريقة غريبة وفريدة في إنك
تحسسنني إني ملكة.

لم يعرف سامح كيف يتعامل مع مثل هذه المجاملات، فقبّل يدها
وحاول تغيير الموضوع فقال:

- بابا إنكلم الصبح وبيقول لما يرجع من عند عمتي مش عايز
يشوف وشنا في البيت.

صممت هناء على عدم الإنسياق وراء ما قاله سامح كي لا يتغير
الموضوع وتُفقد تلك اللحظة الهامة في حياتهما، ثم قالت بنبرة أكثر
جدية:

- لو أنا هبقى وطنك، إنت هتبقى تاج راسي.. أبويا وأمي وأخويا
وصاحبي وحببي، وأبو عيالي.

أخذ سامح في إختلاس النظرات من عينيَّ أحمد. فلم تكن نظراته، ولا إنفعالاته بالعادية إطلاقاً، ولم توائم طفلاً في مثل سنه. كان يحمل الكثير من الأسرار، والألغاز غير المفهومة. شعر أن هذا الحدث يكبره بأعوام بالرغم من فارق السن الكبير بينهما. وأيقن لحظتها أنه أمر أكبر وأعمق وأعقد من الخوف بسبب فقدانه لذويه.

تلك النظرة الحزينة المشيرة إلى قلبٍ منكسر في حاجةٍ إلى أن يجبر، كانت هي السبب الحقيقي لانجذابه ناحية أحمد. فلم يتحمل رؤية طفل غير سعيد، وأحسن بنوعٍ من المسؤولية تجاهه، وشعر وكأن دوره في الحياة أصبح مُكرّساً ليُبدل هذا الحزن بسلامٍ داخل نفس هذا الطفل.

وأثناء تناولهم وجبة سريعة في إحدى المطاعم بمدينة نياجرا، توجه سامح بسؤال لأحمد:

- إنت عندك كام سنة يا أحمد؟

قاطعته كارولين ذات الأربعة أعوام قائلة:

- Dad, we don't talk while we're eating.

وإنضم لها چاسون في تظاهرة صغيرة قائلاً:

- Yes Dad. You keep telling us not to talk when we're eating, and here you are talking. I gotta say Dad, you're not setting a very good example to your kids.

وجّه سامح ردهً لهناءً بإبتسامه مأكرة:

- Yes, Carol and Jace. You're both right, and I apologize. I will continue my conversation with Ahmed after I finish eating.

وفيما هو يلتهم طعامه، نظر لأحمد وظنه لم يسمع سؤاله، لكنه التمس العذر للفتى الصغير. فكيف له التركيز وهو فاقد أبويه؟

وما إن انتهى من تناول طعامه، باغته أحمد بالإجابة:

– أنا عندي ٩ سنين ونص، وفي نوفمبر أكمل ١٠ سنين.

شخصته كارولين وقالت متحدية:

– I said we don't talk when we are eating...

جاء رد أحمد على ما قالت قاطعاً لأي محاولة لإسكاته:

– Well, since I am not a part of your family, your rules don't apply to me.

نظرت هناء إلى أحمد شذراً وكادت أن تُلقنه درساً في الأخلاق الحميدة. لكن سامح أمسك بيدها مترجياً ألا تتحدث، فصمتت إلى حين.

داعب سامح خصلات شعر إبنته المتدلّية، محاولاً إستعادة زمام الأمور بقوله:

– He's right sweetie, and also I am done eating, so Ahmed and I can talk. Please finish your meal so you can join our conversation if you wish. You too Jason.

إستكمل حديثه مع أحمد باللغة العربية:

- أنا ملاحظ إنك بتكلم إنجليزي كويس أوي، ولكنك إنجليزية مش أمريكية.

- أنا أمي إنجليزية وأبوي مصري، بس أنا شبه بابا.

تعاون أحمد وتجاوبه مع سؤال سامح بعث بالطمأنينة بعض الشيء في نفس الأخير.

- طيب بص يا أحمد. قبل ما آخذك للبوليس، لازم تقول لي اسمك بالكامل، وساكن فين في مصر، ولك إخوات ولا لأ، ودخلت كندا إمتي، ومسافرين إمتي.

إرتجفت أوصال أحمد من سماع تلك الأسئلة، فلم يكن يعرف إجابة معظمها بالتفصيل.

- اسمي أحمد حسين المصري، وإسم ماما مارجريت، بس ماعرفش اسمها بالكامل إيه. وإحنا ساكنين في مصر الجديدة، وجينا كندا من يومين. كنا في أمريكا، وبابا جابنا هنا عشان نتفصح ونشوف شلالات

نياجرا. ومسافرين على مصر بكرة. ليّ أخت أصغر مني اسمها مروة،
عندها ٣ سنين.

- طيب قاعدين فين في كندا؟ عند حد من قرابكم؟

- معندناش قراب في كندا، وقاعدين في فندق في تورونتو.

نظر سامح لهناء وقد وجدها في حالة ذهول تام، وكانت قد توقفت
عن تناول طعامها، فأكمل إستجوابه لأحمد:

- الفندق اللي إنتوا قاعدين فيه في تورونتو، اسمه إيه؟

هزّ أحمد كتفيه معلناً عدم معرفته اسم الفندق.

- طب شركة الطيران اللي إنتوا مسافرين عليها اسمها إيه؟ مصر

للطيران؟

لم يجد رد فعل من أحمد، وكأنه يتحدث بلسان أعجمي غير مفهوم
له.

- طب عنوانكم في مصر الجديدة إيه؟

- معرفش ...

- متعرفش؟ متعرفش عنوان بيتكم؟

- لأ.. ماما بتيجي تاخدني كل يوم من المدرسة ومعرفش العنوان.

شعر سامح بصداع مفاجئ. فلم يُصدّق ما سمعه، بل أخذ يفكر فيما قد يعني ذلك من تبعيات.

سأله مجددًا بعد أن تفكر مليًا:

- طب نمرة تليفون باباك إيه؟

وبراءة الأطفال في عينيه، رد أحمد قائلاً:

- نمرة تليفون بابا وماما متسجلين على الموبايل بتاعي، بس ضاع مني ومش لاقيه.

لم تستطع هناء تمالك نفسها أكثر من ذلك، وبحدة وجهت كلامها
لأحمد:

- أحمد، المعلومات اللي إنت بتقولنا عليها دي مش كفاية ومش هتوصلنا لأهلك، ولا هتكون بتساعد البوليس.

بكي الصغير، ولم يملك سامح الجرأة في تبكيت هناء. فقط أخذ يشاهد چاسون الذي ترك طعامه وذهب لأحمد ضامًا إياه إلى صدره قائلاً:

- Don't cry Ahmed. Every thing is going to be OK. My Dad will take care of you.

بعد دقائق ثقيلة، دعى سامح الجميع بالتحرك لتغيير هذا المناخ الميلودرامي.

- OK, Let's go to the police station.

في مركز الشرطة بنياجرا، طلب سامح مقابلة الكونستابل، فلم يرغب في ترك هذا الموقف الدقيق في أيدي أحد الشرطيين قد لا تكون لديهم الخبرة الكافية للتعامل معه.

أثار إصراره على مقابلة الكونستابل شكوك بعض رجال القانون هناك، فلم يعتادوا مثل هذه الطلبات الخاصة. لكنهم فشلوا في إجبار

سامح على التحدث إليهم. وعلى الرغم من استخدامهم لتكتيكات تم تدريبهم عليها مسبقًا لحث المواطنين على الإفصاح بما في داخلهم، كان سامح على دراية كاملة بحقوقه القانونية وأصرَّ بكل أدب وإحترام على عدم التحدث غير أمام الكونستابل.

دعاهم أحد الشرطيين للدخول، وطلب منهم إنتظار الكونستابل في مكتبه الخاص. كان ضيقًا، مزدحمًا بأوراق وملفات متناثرة على المكتب الخشبي القديم. تعجب سامح من منظر الآلة الكاتبة السوداء القديمة بجانب الحاسوب، ولكنه في نفس الوقت أُعجب بمنظرها العتيق، خاصة بعد إنعكاس ضوء الشمس القادم من النافذة الوحيدة بزواية المكتب عليها. شعر أنه بداخل إحدى أفلام هوليوود البوليسية القديمة.

وبعد مرور دقائق ليست بالطويلة، دخل عليهم السيد ديLAN جالاجر. رجل فارغ القامة، عريض المنكبين، أشقر الشعر قصير. ذو أنف مدبب حاد ذكره بمنقار إحدى صقور الشيروكي. بشرته البيضاء، وجبهته العريضة المحمرة بعض الشيء أثبتت أنه يمضي الكثير من وقته في نشاط تحت أشعة الشمس الحمراء. وما إن التقت أعين

سامح بأعين ديLAN الخضراء الفاحصة المهيبية، أدرك أنه ستيعامل مع شخص قوي بصير سيتحكم في مجريات الحديث آمرًا.

بنبرة متعجرفة مباشرة، سأله الكونستابل:

- Yes sir, how can I help you?

شرح سامح في شرح هذا الموقف الدقيق قائلاً:

- First of all, thank you for meeting with us. I can only imagine how busy you are, and rest assured that it's not due to lack of respect to the force. Rather, this is a very delicate matter, and I only did not want to waste anybody's time explaining it to them, to figure out later that it's above their pay grade.

بعد هذه المقدمة اللبقة الدبلوماسية، غيّر الكونستابل من نبرة صوته،

وأردف مجددًا بنفس الجدية:

- We are all at your service sir. Go ahead please.

أخذ سامح في شرح ذلك الموقف الصعب بالتفصيل، وأثناء حديثه بدأت كارولين في العويل حيث لم تعتد الوجود في مثل هذا المكان الضيق غير مسموح لها باللعب والانطلاق لفترة طويلة. فطلب سامح من زوجته الإنصراف خارجًا لتهدئة الصغيرة.

وفيما هو يروي قصة لقائه بأحمد، كان السيد جالاجر يدون كل المعلومات الهامة، فاحصًا كلا من سامح وأحمد بنظراته الشاقبة المتوجسة.

أومأ السيد جالاجر برأسه بعد أن انتهى سامح من حديثه، وقال:

- Very delicate situation indeed, and you were right in insisting to see me. Here's what's going to happen. I'm going to notify all units after we get Ahmed's description of his parents. How tall they are, what they are wearing. Any and all other details that may help us locate their whereabouts. You mentioned he last saw his parents about five hours ago, right? Then, it's

very likely they are already looking for him. They might even have reached out to one of our mobile units looking for their son. In the meantime, you are to be thanked. What you did is very noble. You can leave Ahmed with us, and will have social service look after him.

جاء رد سامح غير متوقع، وبرعشة في أحباله الصوتية قال:

- Umm.. No disrespect sir, but I will not leave Ahmed. I will stay with him until your team manage to locate the whereabouts of his parents.

نظر إليه السيد جالاجر متحدثاً، وقال بإبتسامة واثقة:

- You can leave now, and we...

قاطعته سامح قائلاً:

- I know I can, but I chose not to, Sir.

- Ok, as you wish, but this may take several hours.

- Appreciate your concern, but I will be Ok.

في تلك الأثناء رجعت هناء بالصغيرة نائمة على كتفها الأيسر، فأمسك سامح بيد ابنته المستسلمة، وربت بحنان على كتف زوجته وقال لها بصوتٍ خافت:

- كلمي چيچي تيجي تاخذك إنتي والعيال وتروّحكم. أنا هاستنى هنا مع أحمد.

سألته هناء مستفسرةً:

- ليه؟ إيه اللي حصل؟

- بعدين أقول لك على كل حاجة. مش وقت شرح دلوقتي. بس وإنتي في طريقك للبيت كلمي آرون.

- آرون؟ المحامي؟ !ليه؟

- عشان عندي إحساس إن الموضوع هيجتاج لوجوده.

كعادة هناء في المواقف الصعبة، تتحول لصخرةٍ يتمنّع بها المحاربين. ربتت على كتف سامح وقبلته مودعة، وقالت وكأنها تعلم ما سوف يحدث:

-كتفي في كتفك.

فقط لم تكن على دراية كاملة أن حياتها، وحياء أسرتها الصغيرة على وشك أن تنقلب رأساً على عقب، إلى الأبد.

إنفجر هاتف منزلهما الصغير برنينٍ مزعج، وهبت هناء لإجابته
 مسرعة حتى لا يقطع رنينه تركيز سامح. لكن هيهات، فكان عند
 سامح شعور ما أن جورج سيقوم بالاتصال به.

بعد إنتهاء المحادثة، نظر إلى هناء وفي ابتسامة كاذبة مليئة بالحنق
 سألها:

- جورج، مش كده؟

هزّت رأسها في إمتعاضٍ، وأكمل سامح مستفسراً:

- وكان عايز إيه جورج باشا؟

- عايزك تنزل الشغل بكرة، بيقول إن إسحق اعتذر عن الشِفت
 ومعهند هوش حد تاني يحيي يشتغل.

جنّ جنون سامح، وإستشاط غضبًا. ألقى بكتبه الدراسية على
المكتب الصغير أمامه، وقال منفعلاً:

- هو الراجل ده عايز إيه مني بالضبط؟ هو ليه بيعمل معايا كده؟ ما
أنا قلت له إني عندي امتحان الأسبوع اللي جاي ومحتاج يومين
عشان أذاكر فيهم.

إقتربت منه هناء وربتت على كتفه في محاولة لتهدئته، ثم قالت وهي
تتخذ من حجره مقعداً:

- معلش، استحمل.. الكل قالوا لنا إن المصريين وحشين أوي مع
بعض في الغربية، فمش المفروض إنك تكون متفاجئ.

- أيوة بس دي مش مجرد زلزلة، ده كده بيحاربني في مستقبلي.
وبعدين ما هو اليوم اللي انا ما باروحش فيه الشغل ما بيدفعليش
حاجة. مش بيمينّ عليّ يعني.

- معلش، خلاص هانت وتخلص من ززالتة للأبد. وإن كان ليك عند
الكلب حاجة..

وبحنان أشار لها أن تفسح له الطريق حتى يتسنى له الذهاب للمطبخ ليحتسي بعض الماء، وسأل مجددًا كأنه يريد سماع شيء معين منها:

- طب والمذاكرة، والامتحان؟

- إنت فاضلك كثير محتاج تخلصه؟ عشان لو متقدم في المذاكرة يبقى تنزل الشغل وتكمل لما ترجع.

قال هارياً من سؤالها:

- شفت بالليل ده لعنة. بأعمل كل حاجة لتاني يوم. أخبز العيش وأعمل ساندوتشات عشان الزباين اللي بتبتدي تيجي من الساعة 5:30 الصبح وأحضر أكياس القهوة و....

- إنت مارديتش على سؤالى.

بافتخار ابتسم سامح، وقال معترفاً بفشله في التهرب من الرد على

سؤالها:

- أنا مخلص كل حاجة يا فندم. أنا بس بأراجع للمرة الثانية.

لم تصدق هناء ما سمعت. فكانت تعلم مدى ثقل دراسة المعادلة وصعوبة المواد العلمية، وعلى الأخص إختلاف طرق وأساليب التعليم بصفة عامة والامتحانات بصفة خاصة عما اعتادوا عليه في بلدهم الأم. لكنها في تشجيعٍ قالت ممسكةً بوجه زوجها:

- جوزي راجل عظيم، وهينجح في الامتحان. معنديش أي شك في كده. بس في الوقت الحالي إحنا اللي محتاجين چورچ، مش هو اللي محتاج لنا. وعارفة إنه رزل وكلخ وسارقك في فلوس، وماسك عليك مرتب ٣ أسابيع عشان ماتسييهوش. بس هنعمل إيه؟

إستسلم سامح لمنطق هناء الواقعي، وقال:

- حاضر.. هأنزل بكرة الشغل. المهم قولي لي، عتريس عامل إيه؟
بيطنطط؟

- أسكت، ده قعد يرقص ويطنطط إمبراح بالليل لحد الساعة 3:00 الصبح وما خلانيش أعرف أنا.

بصوتٍ أعلي من المعدل الطبيعي، قال محدثًا بطن هناء:

- جدع ياض يا عتريس.. خد بتار أبوك من أمك.

ضحكت هناء، ثم سألته:

- إحنا صحيح هنسميه إيه؟

للتو وبدون تفكير جاء رد سامح:

- لو ولد، چاسون!

نظرت هناء لسامح مندهشة من سرعة إجابته، وتساءلت في نفسها:

"هو كان مجهَّز الإسم؟"

- اسم چاسون اسم جميل، بس إيه رأيك نسميه ألفونس؟

كان سامح يشرب من زجاجة المياه مباشرة، ولم تسعفه اللحظة

فبصق بالمياه التي كانت تملأ فمه، وبعد لحظات من الضحك

الهيستيري قال لهناء:

- ألفونس؟؟ ابني أنا يبقى اسمه ألفونس؟؟ لأ طبعاً.

إستاءت هناء جداً من رد فعل سامح، ومن تعليقه الساخر من اسم أبيها. ولم يكن سامح حكيمًا في ذلك، خاصة أن هناء كباقي النساء، تزداد حساسيتهن أثناء فترة الحمل، ومن أقل الأشياء يتغير مزاجهن.

– أنا مقصدش إساءة يا هناء.. أنا بس بأقول إن اسم ألفونس فرنساوي، وإحنا في مقاطعة إنجليزية، وإنتِ عارفة الاتنين دول ما يبجوش بعض وممكن الإسم ده يسببه مضايقات في حياته بعد كده.

بالرغم من غضبها العارم المُغدّي بركان من الهرمونات المُستفزة، إستطاعت التغلب على مشاعرها. فلم تردّ تحمّل سامح أكثر من طاقته خاصة بعد طلب جورج السخيف هذا.

رفع سامح سماعة التليفون في الكافيه ليتحدث مع چورچ، وكانت الساعة تقترب من التاسعة والنصف مساءً ذلك اليوم المشؤوم، وعند سماع صوته من الناحية الأخرى قال:

- مساء الخير يا عم چورچ.

- أهلاً... خير؟

تنهّد سامح في سره، وأكمل قائلاً:

- معلش أزعجتك، بس إحنا ما بنشوفش بعض في أوقات تسمح إننا نتكلم.

بنفس البرود والغطرسة، قال چورچ:

- أؤمر..

وكان قد فاض الكيل بسامح، وقال بلهجة متحدية:

- أنا بس حبيت أبلغك إن الامتحان النهائي بتاع المعادلة بتاعتي بعد ٣ أسابيع، والأسبوع بعد اللي جاي مش هاقدر أكون بأجي الشغل عشان هاكون بأذاكر.

إنفجر چورچ كبركان فيزوفقيوس في ثورته، وصاح حتى سمعه
العاملون بالكافية من خلال سماعة الهاتف المعلق بالحائط الداخلي
الخاص بالعاملين فقط:

-وأنا مالي؟ معادلتك دي حاجة تخصصك، إنما أنا عندي بيزنس يا
حبيبي والدلع ده ما ينفعنيش. مش كل شوية تيجي تقول لي عندي
امتحان وعندي إنترفيو وعندي زفت. أنا كمان عندي شغلي والهبل ده
ما يأكلش عيش.

تأكد سامح لحظتها أنها نهاية علاقته بچورچ، بل أصرَّ أن تكون تلك
هي النهاية. فلا تفاهم بعد ما قاله هذا المخلوق الوضيع. و قابل
إنفجار چورچ بإنفجار أكبر لم يكن يتوقعه الأخير:

- جرا إيه يا چورچ؟ هو إنت بتتكلم كده ليه كأنك إشترتني في سوق
النخاسة؟ أتكلم عدل. محسسنني إنك بتمنّ عليا مثلاً. ده أنا لما
بتأخر ١٠ دقائق عشان الثلج نازل والشوارع متنيّلة بتخصمهم من
المرتب. وبعدين هو أنا بقولك أنا مش جاي من بكرة؟ ما أنا مديلك
فترة عشان تدور فيها على حد يشتغل مكاني. بس هأقولك على

حاجة، مادام كلامك وصل للمرحلة دي من السفالة، يبقى زي ما إنت عندك " البيزنس " بتاعك، أنا كمان عندي مستقبلي. ولا تكونش متخيل إنني هافضل أشتغل عندك خبّاز للأبد؟؟ بص بأقولك إيه، هي كده خلصت. بكرة الصبح تديني بقية حسابي والثلاث أسابيع اللي إنت مانعهم عني وكفاية لحد كده.

ذُهل جورج من ثورة سامح، فلم يتوقع منه مثل هذا الرد العنيف، لكن لغلاظة قلبه وغباء فكره، إستطرد في سفالته متحدياً:

- ما لاكش حاجة عندي، وإبقي روح إشتكي.

إستشاط سامح غضبًا، وصرخ بأعلي صوته لجورج مما أرهب المرتادين للكافيه لدرجة أن فر بعضهم للخارج.

- لأ ده إنت كده مش بس سافل، ده إنت حرامي كمان. ماشي، خليلك الفلوس، حلال على ولادك الفلوس الحرام، بس إبقي شوف مين اللي هيكمل الشفت النهاردة.

توقف سامح لحظة، ثم بدأ بالتحدث باللغة الإنجليزية حتى يسمع ويفهم زبائن الكافيه:

- As to reporting you, I have a much better idea. I will report you to the Health Ministry, and bring them a sample of the rotten deli meat you ask us to re-purpose, and shove it in the breakfast sandwiches you sell to the public.

أنهى سامح الإتصال التليفوني مبالغتاً، وذهب مهرولاً إلى داخل الكافيه حيث تتواجد ثلاجة الأطعمة ليحصل على عينة من الطعام الفاسد، ومستندات أخرى كدليل يقدمه كبلاغ للجهات المختصة بوزارة الصحة بمقاطعة أونتابو.

وفي طريقه للخارج، تأسف لزميله النبطشي لما هو بفاعل، حيث سيضطر للمكوث إلى ما بعد ساعات عمله الرسمية.

خرج مهرولاً وهو في قمة غضبه، وأخذ يسب ويلعن في جورج وجدوده من قبله. كانت تلك هي المرة الأولى في حياة سامح والتي فيها قد أطلق فيها العنان لمشاعر الكراهية والإحتقار تجاه أحد.

وبعد دقائق قصيرة من عبور سامح الشارع للناحية الأخرى ليستقل الأتوبيس العام ويرجع إلى منزله، رأى جورج وكان قد حضر على

عجلٍ، واقفًا بالناحية المقابلة رافعًا يده عاليًا طالبًا منه الرجوع إلى الكافية، فرفض بالرغم من إنهمار الأمطار في تلك الليلة الصيفية الشديدة الحرارة. ولم يجد الوضع سبيلًا إلا أن يذهب هو بنفسه لسامح.

وفي كُهنٍ ومُحنٍ إعتاد عليهما سامح في الأوساط الكنسية، بدأ جورج حديثه:

- إيه يا دكتور؟ إيه اللي كبر الموضوع كده؟ أنا آسف يا سيدي إني اتعصبت عليك، بس المدام كانت قارفاني شويتين.

- ماليش صالح بعلاقتك بمراتك، ومش من حقك تطلع عفارتك على اللي بيشتغلوا عندك عشان هي قارفاك في عيشتك.. إنت غالبًا نسيت إننا في كندا.

- يا سيدي خلاص معلش أنا ما قصدتش.

وفي قمة الثبات الانفعالي، قال له سامح متحديًا:

- لأ يا چورچ كنت تقصد، وانت جيت بس عشان خايف على
محلک وعشان عارف إنک هتدّبس في شفت بالليل دي لمدة أيام
لحد أما تلاقي حد تاني غيري. أنا اللي عندي قلته وخلصنا كده، ومرة
تانية حلال على عيالك الفلوس اللي إنت واكلها علىّ.

فوجئ سامح باستمرار چورچ في تلامته الباردة حين قال:

- طب بس إهدا وخلينا نرجع المحل. خلينا ندخل من المطر على
الأقل.

وجد سامح في إصرار چورچ على الحديث فرصة للتفاوض معه،
فقال:

- عايزني أرجع المحل يا چورچ وتكون الكاميرات بتسجل حوارنا
صوت وصورة، يبقى تديني مستحقاتي وفلوسي كلها دلوقتي حالاً .
ومن هنا ورايح هاشتغل اليوم بيومه معاك. غير كده، يبقى إتكل على
الله.

لم يعرف جورج حُمرَة الخجل، فكان عابداً للمال ساجداً للدولار.
وثابر في إقناع سامح بالرجوع إلى الكافيه، وفي نفس الوقت رفض
الإستسلام لشروط سامح ودفع مستحقاته كما طلب.

وجد سامح نفسه أمام خيارٍ واحد فقط للتخلص من هذا الموقف
السخيف والحوار المنحط، فقال:

- جورج، معنديش حاجة تانية أقولها لك. يا إما تديني فلوسي على
داير السنّت دلوقتي حالاً، يا إما توريني عرض قفاك، برضه دلوقتي
حالاً. ولو ما مشيتش هأطلب لك البوليس،

**And I'm gonna press charges against you for
harassment.**

سبّه جورج بأقذع الألفاظ، وهدده بأنه سيروي "لأبونا" ما حدث،
ودوّت قهقهة سامح أركان المنطقة الحيوية، وقال له:

- بس يا ريت ما تنساش يا حرامي تقول له إنك بتقدم أكل معفن
للزباين، وإنك أكلته هو شخصياً من الأكل ده. ولّا القسيس هيتغاضى
عن كل ده عشان الشيك الشهري اللي بتبعته له؟

بصق چورچ على وجه سامح بَعْلٍ وقال:

- صحيح إنك إنجيلي وسخ، أنا اللي غلطان إني شغلت واحد زيك عندي. إبقى تف على قبري لو عرفت تاخذ مليم مني.

أشار سامح بيده اليسري لچورچ لينهي هذا الحديث، ويده الأخرى جفف وجهه، وقال ناهياً آمراً:

- كفاية كده. روح لحالك.

في نفس اللحظة كان قد وصل الأتوبيس العام وإستقله سامح ليرجع إلى منزله. وفي الطريق أخذ يُعَنَّف ويُبَكَّت نفسه على ما صدر منه. شعر أنه مسؤول نوعاً ما عن تصاعد وتعقيد الأمور بهذا الأسلوب. لكنه أيضاً كان مصمماً على إبلاغ وزارة الصحة بمخالفات چورچ.

في صباح اليوم التالي، أخذ سامح يبحث ويمحس في دليل التليفونات عن أرقام وزارة الصحة بمقاطعة أنتاريو. وفي تمام الساعة السابعة صباحاً، إستيقظت هناء على صوت طرِق على باب منزلها المتواضع. هبّت بالنهوض لإجابة الطارق، لكنها سمعت سامح في الردهة بالفعل يفتح الباب بنفسه مرحباً بالقس فيلوباتير.

خرجت من غرفتها على غير دراية بما حدث في البارحة، أو سر
زيارة القس لهما في مثل هذه الساعة المبكرة من صباح هذا اليوم.
لكنها ذهبت لتحية القس على أية حال، وبنبرة غامضة قال لها:

- أنا عارف إنكم ما بتبوسوش إيد الكهنة الأرثوذكس، بس إنتوا برضه
ولادنا.

أثارت تحيته الغامضة تلك فضول هناء وحيرتها، خاصة أنها لاحظت
وجه زوجها المتجهم. طلب القس منها الجلوس كي "تحضرهم"، وهنا
طلب سامح من القس محذرًا:

-من فضلك يا حضرة القسيس، هناء مالهاش دخل باللي حصل، وأنا
بصراحة مستغرب زيارتك المفاجئة وبالسرعة دي. بس أعتقد أن
الشماس چورچ كلمك وده سبب وجودك هنا.

وينفس نبرة الكهن الماكرة التي كان قد إعتادها سامح من مثل
هؤلاء الأفراد، رد عليه القس فيلوباتير:

- ده صحيح، هو كلمني وشرح لي سوء التفاهم اللي حصل بينكم
وحبييت آجي أهدي النفوس وأتكلم معاك يابني. إحنا في الأول والآخر

أولاد معمودية واحدة، وما يصحّش اللي حصل ده خصوصًا في الغربية
يا دكتور. على العموم يا سيدي، حقك عليا أنا، إمسحها فيّ. ولا إيه
يا هناء؟

هبت هناء للرد على القس، لكن سامح لم يعطها الفرصة حين قال
للقس مُتحدّيًا:

- صدّقني يا حضرة القسيس، تدخل هناء مش هيكون في مصلحة
چورچ إطلاقًا. فللمرة الثانية، خرّجها برّة الموضوع ده خالص.

تأكدت هناء أن سامح فضّل عدم تواجدها في تلك الجلسة،
فسحبت نفسها بهدوء بحجة تحضير وجبة الإفطار والقهوة الصباحية.

ثم إستطرد سامح قائلاً:

- بص يا حضرة القسيس، أنا هألخص لك الموقف وأوفر عليك
كلام كثير. حضرتك هنا عشان حاجة واحدة بس، وهي إن چورچ بعد
ما أنا مشيت إمبارح بالليل، أكيد دخل المحل بتاعه وشاف تسجيل
الكاميرا الفيديو وشافني وأنا باخد اللحمه البايطة اللي بيعيد تدويرها
وبيعها على إنها ساندوتشات للناس على الفطار، واللي هو نفسه

أكلك منها أنت شخصيًا قبل كده. تعرف حضرتك ده؟ أنه أكلك
لحمة بايظة؟ ولّا ما قالكش؟؟

صمت لحظة ليرى أي رد فعل على وجه القس، لكن وجه الآخر لم
يبح بالكثير، فعاود ليسأله:

- المهم بقى إن عينة الأكل البايظ ده معايا، وكمان معايا الورق اللي
يبث ملكيته للأكل ده، ودي بالذات تاريخ صلاحيتها انتهى من أكثر
من ٣ أسابيع. والأهم من ده كله، إني عندي تسجيل بصوته هو
بيعترف فيه إن الأكل بايظ وبيطلب مني أعيد تدويره وبيعه للناس.
وعشان كده هو بعثك عشان هو عارف كويس أوي إني لما أبلغ عنه
وزارة الصحة هيحصل فيه إيه، ده غير مقاطعة الزباين لمحلّه بعد ما
يتفضح أمره. وعشان أكون في منتهي الصراحة، أنا مش عارف إنت
هنا عشان خايف على سُمعة شماس عندك في الكنيسة، ولا خايف إن
الشيك الشهري اللي بيعته ل - الكنيسة - خلاص هيروح؟

بحث سامح طيلة حديثه عن حمرة الخجل في وجه رجل الدين، فلم
يجدها، بل زاد من الطينة بلة حين رد الأخير على ما قال مدافعًا:

- يا سامح يا ابني إنت واضح إنك في موقف إنت مظلوم فيه، ومش من اللائق إنك تظلم آخرين، وتأخذ العاقل في الباطل.

في تلك المرحلة الحرجة في حياة سامح، لم يكن يهتم بأي شيء أكثر من توفير القوت اليومي له ولأسرته، خاصة أن هناء كانت قاربت موعد الولادة. فوجد في كلام القس فرصة ذهبية للتفاوض معه كمندوب لچورچ مرّة أخرى.

إتخذ وضعاً مريحاً على مقعده، وبنبرة أكثر ثقة قال:

- تمام، يبقى كده إحنا وصلنا لبيت القصيد. حضرة القسيس زي ما إنت عارف أنا صيدلي، والامتحان النهائي للمعادلة بتاعتني كمان ٣ أسابيع وبعدها هاكون صيدلي معتمد من البلد هنا.

قاطعهُ القس قائلاً:

- بالتوفيق يا دكتور .

لم يعر سامح أي اهتمام لتلك الأمنية، فكان يعرف أنها غير صادقة، كما أنها آتية من شخصٍ موقفه ضعيف. فأكمل حديثه قائلاً:

-أكيد حضرتك عارف الصيادلة هنا بتعمل فلوس شكلها عامل إزاي، ومستواهم المالي بيتغير بسرعة إزاي. وبالتالي مش شايف حضرتك إنه لو الكنيسة أخذت مني موقف، ده هيجبرني على الابتعاد عنها والبقاء خارجها؟

وهنا أيقن فيلوباتير أنه لا يتحدث مع شحصٍ عادي. فلم يعتد من قبل على التحدث مع قبطي يخاطبه بهذه الندية والجرأة. وفي نفس الآن لم يسعه إلا أن يترك سامح ليكمل حديثه:

- وبما إن حضرتك رضيت بالتدخل في الموضوع، يبقى إنت اللي هتكون مسؤول قدامي، والخلاصة فيما يلي:

چورچ عنده مهلة ٢٤ ساعة فقط، يجيب لي هو شخصياً جميع مستحقاتي لحد هنا، بنفسه. ومستحقاتي كالتالي:

١- مرتب التلات أسابيع اللي هو ماسكهم ومانعهم عني

٢- مرتب الأسبوعين اللي جايبين لأن كان في نيتي أشغلهم

٣- مرتب ٦ شهور على سبيل التعويض عشان تفّ عليّ

٤ -ورقة إنهاء خدمة وإخلاء طرف من جورج لى

الفلوس تكون كاش، وشهادة إنهاء الخدمة تكون بخط إيدو وممضية قدام إثنين شهود، والشهود كمان تمضي عليها. غير كده يبقى منه لوزارة الصحة والفضيحة الاجتماعية. بعد كده يموت الكلام يا حضرة القسيس.

بالفعل، وفي أقل من ثلاث ساعات من إنتهاء المقابلة بين القس فيلوباتير وسامح، حضر جورج ذليلاً بجميع مستحقات الأخير، وأيضاً شهادة إنهاء الخدمة التي إشرطها.

وبعد أن إستلم جورج عينة الطعام الفاسد، والمستندات المُدنية له، لم يسمح له غباؤه بالرحيل دون أن يقول لسامح:

-إوعى تفتكر إن الموضوع كده خلص.. ده إنت لسه ياما هأوريك.

صاح سامح منادياً لهناء بالداخل:

-يا هناء، لى عندك ١٠٠ دولار عشان أنا كسبت الرهان.

ثم إلتفت شاخصاً لجورج مما أثار خوفه، وقال مهدداً:

- تصدق عشان أنا متأكد من حقارتك قررت أراهن هناء على ١٠٠ دولار إنك لازم هتقول تعليق غبي زيك قبل ما تمشي .وعشان كده أنا سجلت المقابلة دي صوت وصورة.

صُعبُ چورچ حين علم أن تهديده لسامح قد تم تسجيله، وهمّ باختلاق الأعذار، لكن سامح باغته:

-عايز نذيع، قول ذيع .عشان دي كده قضية وممكن تتسجن فيها وش، خصوصاً إن المدام حامل. مش عايز نذيع يبقى تغور من وشي وما اشوفكش صدفة، وخلي بالك إن أي حاجة تحصل لي أو تحصل لمراتي إنت اللي هتكون ملطوط فيها.

أغلق سامح الباب في وجه هذا الإمعة الذي اختفي من الوجود تمامًا بعد ذلك.

وطأت أقدام وليد وچيچي الأراضي الكندية سنوات عديدة قبل
سامح وهناء، وحصل وليد على درجة الدكتوراة في الاقتصاد من
جامعة يورك بمدينة تورونتو الكندية. ولتفوقه العلمي طلبت منه الجامعة
الإلتحاق بفريق الأساتذة والتدريس لطلابها.

كما أسست چيچي شركة للمحاسبة خاصة بها بعد دراسة دامت
الثلاثة أعوام، كانت خلالها تعمل في إحدى البنوك المرموقة كمديرة
لإدارة الائتمان.

كان حالهم المالي ميسورا، وكان من السهل ملاحظة هذا من خلال
سيارة وليد التي كان يبدلها بأخرى أحدث منها كل ثلاث سنوات،
ومن كم المجوهرات والحلي التي دائماً ما ترتديها چيچي، وأيضاً
منزلهم الساشع الفاخر المليء بالأثاث والأنتيكات باهظة الثمن.

وفي يوم ما ذهبوا للتعرف على جيرانهم الجدد بشارعهم المتسع الهادئ الخالي من السيارات إلا المحلية منها، وإذ بهم يكتشفون أن السكان مصريون مهاجرون. ومنذ ذلك الحين أصبح سامح وهناء الأقرب من الأصدقاء على الرغم من فارق السن بينهم.

لم يرزقا بأبناء، لكن لم يحزنهما هذا الأمر كثيرًا. فكانا يستمتعان بتلك الحرية في الدخول والخروج والسفر والترحال، واكتشاف بلدان وثقافات جديدة.

وفي يوم ولادة هناء لإبنهم الأكبر، جلس سامح في ردهة المستشفى مترقبًا وصول وليد وزوجته. وعند وصولهما، هبّ لتحيتهما، وقال له ووليد:

– ألف مبروك يا سامح. يتربي في عزك إن شاء الله.

شكره سامح وفي أثناء مصافحته له، فوجئ بجيحي تمسك بيده جاذبة إياه لتقبُّله. فكانت قصيرة القامة ولا يتعدى طولها الأقدام الخمسة بعداً عن الأرض. وقالت له فرحةً:

- بأقولك إيه من دلوقتي أهه، إبنك يندهني چيچي كده على طول.
بلاش طنط والكلام اللي يكبر ده.

فقال لها وليد معقبًا مازحًا:

- لأ ما تخافيش، بطولك ده، ماحدث هيديكي أكثر من ١٤ سنة.

- سيبك منه يا سامح. خدني لهناء.

شعرت هناء بالطمأنينة والارتياح المفاجئ حين وقع نظرها على
چيچي، وأحست أن أختها الكبرى حضرت لتشجيعها، وللتو تغيرت
ملامح وجهها الشاحب ورجع له لونه الوردى المشرق.

سألته صديقتها الحميمة:

- هه؟ قالوا لك فاضلك قد إيه؟

- يقولوا احتمال ساعتين أو ثلاثة.

صمتت هناء لوهلة وبدأت في البكاء.

- أنا خايفة أوي يا چيچي.

قبلت جبهتها في حنانٍ ليطمئن قلبها، ثم قالت لها:

- إن شاء الله هتبقي ولادة سهلة و.. إنتوا قلتوا هتسموه إيه؟

رد سامح:

- چاسون يا چيچي.

- ويجي چاسون بالسلامة إن شاء الله. ما تخافيش.

مال وليد على هناء ليقبلها، وقال:

- زي ما إنتي عارفة يا هناء أنا ماليش في حوار الولادة ده، فهاخد سامح ونطلع نقعد برّة، وعشان كمان أنا محتاج أشرب سيجارة. ولو عُزتي أي حاجة، خلّي چيچي تكلمنا.

خارج حدود المستشفى أشعل وليد سيجارة، وبعد زفير دخان كثيف في الهواء، سأل سامح:

- عامل إيه يا دكتور؟

- أنا كويس بس خايف على هناء.

- مافيش ما يدعو للقلق خالص، العناية الطبية هنا على أعلى المستويات في العالم وهي كانت بصحة جيدة طول فترة الحمل. كله هيبقى كويس إن شاء الله. سيبها على ربنا إنت بس. المهم قول لي. أنا مكنتش عايز أتكلم في الموضوع، بس بصراحة الفضول هيموتني.

نظر إليه سامح بإبتسامة باهتة، متوجسًا عما يريد وليد معرفته.

- أنا عرفت اللي إنت عملته مع القسيس فيلوباتير من فترة، وكنت عايز استفسر منك عن حاجة.

- خير؟

- إنت إتجننت في عقلك؟

ضحك سامح مفتخرًا بما فعل، ونظر لصديقه وكأنه عقّب بالفعل على سؤاله.

- بص يا سامح، اسمحلي أقول لك، أنا موجود في البلد دي قبلك وأعرف عن الناس دي حجات كتير إنت نفسك غالبًا متعرفهاش .

وعلى فكرة لو أنا ما أعرفش إنت بتفكر إزاي ما كنتش هاقول لك الكلام اللي أنا هاقوله دلوقتي.

إستطرد وليد في شرحه بعد أن انتهى من سيجارته الأولى وكان قد أشعل الثانية.

- الناس دي لو عايزة توصلك هتوصلك. فبلاش مكابرة وعند. الموضوع ده وأسلوب الكلام ده بلاش منه مع الناس دي هنا خالص. إنت عارف قد إيه هما بيتقربوا من السياسيين والناس اللي في السلطة هنا، وبيحاربوا بكل طاقتهم انهم يزرعوا الناس بتوعهم في كل مكان من المحليات للبرلمان. وكل ده عشان يكون لهم مميزات خاصة بيهم، زي اللي بيعملوه في مصر بالضبط.

تغيرت ملامح سامح، وإتضح عليه نية الحديد الجاد، وبعد إستلامه زمام الحوار، شرع في محاولة شرح الموقف لوليد لتتضح له الصورة كاملة.

- بص يا وليد، أنا عارف كويس الكلام اللي إنت قلته ده، وأعرف عنهم بلاوي حتى قبل ما أوصل البلد هنا. بس الموضوع باختصار أني

أنا وهناء جينا هنا من سنة وشوية، وقررت إن لو عيشتنا هنا مش هتكون أحسن من مصر، وأحسن في كل حاجة، هنرجع. وعشان كده قررت أنا وهناء إننا نأجر البيت اللي جنبكم وما نسكنش في شقة إيجار. تمام؟ ممعناش عربية، وبنستخدم المواصلات ومش متضايقين عشان عارفين نضبط مواعيدنا أكثر كده، وكمان عشان عارفين إن ربنا خلق الدنيا في سبعة أيام. بس الفلوس اللي جينا بيها من مصر، واللي هي الفلوس اللي قدرت أحوشها على فلوس هناء اللي كانت محوشاها هي كمان من شغلها في شركة الأدوية، على الفلوس اللي أبويا وأهل هناء إدوهالنا، كانت معيشانا بالعافية. وكانت قربت تخلص. ومش هأقول لك إنني صعبت عليا نفسي إنني اشتغلت عند شخص منحط يلحس السنن من على خريّة وكل الكلام ده، لإن الشغل شغل ومافهوش عيب مهما كان بسيط. لكن الموضوع وما فيه إنه ده كان بيهدد مستقبلي، ده غير إنه سرق قوتي وقوت مراتي وقوت ابني اللي في بطنها، وبعد كل ده باعت لي فيلوباتير الحرامي، واللي نص كندا عارفة إن الكنيسة خرجته من مصر عشان كانت ريحته فاحت هناك، ويقوم باعته عشان يحلل سرقته لي. باختصار يا وليد ده كان صراع

بقاء، وماتخافش، مش هيعملولنا حاجة عشان فيلوباتير متعشم فيّ
أكون سمكة أكبر من چورچ.

- كل الكلام ده كلام جميل، بس سلطانهم يمتد لأبعد مما تتخيل.
دول شيوخ التكفير جنبهم ملايكة. سطوتهم على الأقباط وخاصة
الموجودين بالمهجر كبيرة، وده لإن الأقباط نفسهم هما اللي أعطوا
لهم حقوق وسلطة أنا شايف أنها مش بتاعتهم.

توقف الصديقان عن الحديث حين لمحوا چيچي تركض من بعيد،
وفهما أن الوقت قد حان للترحيب بچاسون.

وبعد ساعات عدة من الصراع مع آلام الوضع، خرج چاسون إلى
الدنيا وملاًها صراخاً لإثبات وجوده فيها، متحدياً لها. أبيعاً كأمه،
شجاعاً جسوراً كأبيه.

حمل سامح بكره، وحين أمسك چاسون بخصره، شعر بأن رجولته
قد إكتملت، فهو الآن أب.

أغمض سامح عينيه حاملاً إبنه في حضنه، وأخذ يصلي ويدعو:

- يا رب، ساعدني إني أربيه تربية سالحة، وأعرف أعلمه إزاي يحامي
عن الأرامل والفقراء واليتامى، ويجيب حق الضعفاء.

ثم ذهب بجاسون إلى زوجته المتلهفة لرؤية رضيعها، ويحنان قبّل
جبينها، وقال مداعباً:

- مبروك حبيبي. خلفتي سحلية.

إبتسمت هناء، ويانهاك قالت:

- قول اللي إنت عايزه، ولا يهمني مادام ابني في حضني.

وفيما هي تستعد لإرضاع وليدها أول وجبة له على هذا الكوكب،
طلبت من سامح أن يذهب لإحضار وليد وچيچي ليقابلوا المولود.

بعد تهنئتهما لهناء وسامح بقدم إبنهم البكر، حملت چيچي الرضيع
مقبلة ليده وقالت:

- أنا چيچي يا ولد. خالتك.

في السنوات القليلة التالية، ترقى سامح السلم الوظيفي للباقة ونبوغه في فن البيع، حتى إرتقى لمنصب المدير التنفيذي للمبيعات في إحدى شركات الأدوية المرموقة في كندا. وفي ذات الوقت شارك جانيس في إنشاء عدة صيدليات مستقلة في أنحاء متفرقة من مقاطعة أونتاريو.

وما كان لهنا أن تصبح ربة منزل، فقررت هي الأخرى إجتياز إجراءات وامتحانات المعادلة، وما إن حصلت على شهادتها حتى قررت هي الأخرى إنشاء صيدليتها الخاصة بها.

تضخمت ثروة الزوجين، لكن أفكارهما وشخصياتهما لم تنتفخ. بل ظلوا بنفس البساطة والتواضع في تعاملاتهما مع الآخرين. وبالرغم من إنتقالهما لمنزل آخر يبعد بعض الشيء عن وليد وجيلي، ظلوا على علاقة وثيقة بهما. حقًا كانوا قد أصبحوا كالعائلة.

بعد ميلاد چاسون ببضعة سنوات، جاء خير حمل هناء للمرة الثانية كسميفونية عذبة في أذنيّ سامح. وتمنّى من ربه أن يكون الجنين أنثى، تكبر لتصبح فتاة جميلة، حنونة وحكيمة كأُمها.

لم يستوعب چاسون تماماً المعنى الحقيقي بأن سيكون له أخ أو أخت، لكنه فرح بالفكرة حيث ظنّ أنه سيكون بإستطاعته اللعب مع هذا القادم كما تَلب الأطفال مع كلابهم. فقد كان يعشق الكلاب وطلب من أبيه مراراً أن يأتي له بجرو صغير، لكنه أجّل ذلك إلى حين.

جاء اليوم المرتقب لوصول الطفلة، كارولين. وفي تلك المرّة كانت قد حضرت ليليان للوقوف بجانب إبتها، لكنها حضرت إلى كندا وحدها، فقد تُوفّي عم ألفونس منذ عامين. وكانت هناء قد تمكنت من إقناع والدتها أن تقوم بزيارتهم مرّة كل عام على الأقل حتى لا تقتلها وحدتها، وتلتهمها الذكريات.

أصرّ الأطباء على أن تمكث هناء بالمستشفى الليلة السابقة ليوم الولادة المحدد حتى يباشروها عن قُرب. وفي صباح هذا اليوم، إستقل

سامح وليليان السيارة ذاك الصباح متجهين إلى المستشفى. وفي طريقهما، طلبت منه ليليان المرور أولاً بالكنيسة.

إستغرب سامح من طلب ليليان، فقام بالاتصال بهناء للإطمئنان عليها وأيضاً ليقرر إذا ما كان الوقت يسمح لهما بالعروج على الكنيسة أم لا.

خلت الكنيسة الكبيرة ذلك الصباح على غير العادة، ولما رأى سامح ما كادت ليليان تفعله، أوقفها قائلاً:

- لو عايزة تدفعي عشورك، يبقى مش هنا.

لم تفهم مغزى ما قاله سامح، فسألته:

- ليه يابني؟ ماهي كلها كنايس ربنا، وإحنا مش زي كثير منهم.

- مش ده قصدي يا طنط، لكن أقصد لو عايزة الناس تستفيد حقيقي من الفلوس دي، يبقى تيجي معايا في مرة أوديكي تقابلي ناس محتاجة بجد، بس هنا لأ. الفلوس اللي بتدخل هنا بتروح لأي حد تاني بس ما بتروحش للمحتاجين.

- مع إني مش فاهمة أوي إللي إنت بتقوله، بس ماشي.. يلا بينا
عشان ما نتأخرش على هناء.

بعد ساعات عدة وصلت كارولين لعالمنا، وشعر سامح بأنه وقع في
الحب من جديد عندما رأى أعينها الياقوتية البرّاقة كأعين أمها.
سألته هناء مداعبة:

- هه؟ جنبنا سحلية المرّة دي كمان؟

- لأ سحلية إيه. دي مُرّة جدًّا زي أمها.

ضحكت هناء، ولكن فجأة تغيرت ملامحها وقالت بإصرار وتحفُّز:

- سامح.. أنا خلاص كده.

- مش فاهم.

- خلاص. عيال تاني مافيش.

- طيب وبقية الدسطة؟

- دستة إيه إنت عبيط؟ وبعدين هما مش كانوا ستة لما كنا في

مصر؟

- لأ ماهو عشان معدلات التضخم بقوا دستة.

- لا دستة ولا نص. خلاص كده شطبنا..

مقبلاً خدها الأيسر، همس سامح في أذنيها قائلاً:

- المهم نعرف نربيهم كويس.

بعد حفلة "السبوع"، إنضمت ليليان يوماً لسامح داخل مكتبه

المنزلي. وبعد أن تأكدت من أن وقته يسمح بحوارها، سألته:

- إيه بقي موضوع الفلوس اللي بتروح الكنيسة دي مابتروحش
للمحتاجين؟

أغلق سامح الكتاب الذي كان يحمله ووضعه في مكانه على أحد
رفوف مكتبته الفخمة المليئة بالكتب العلمية والفلسفية والروايات
المتنوعة اللغة. صمت قليلاً، ليس لعدم قدرته على إجابة ليليان، لكن
الحقيقة المفجعة كانت متشعبة الجذور كما الأطراف، وبالتالي صعب
عليه معرفة كيف يبدأ في شرح هذا الفساد.

نظر إلى حماته شاردًا، وقال بهدوء متنهّدًا:

- مش هاينفع أخص لك ولا أحكيلك عن كل الانحطاط المالي
اللي في الكنيسة في مجرد قعدة. لكن جاوبي على الأسئلة دي وإنتي
تبتدي تعرفي حجم وعمق المصيبة:

١ - منين يجيبوا الفلوس اللي بيشتروا بيها الأراضي دي؟ وليه أصلًا
هذا الكم الفج من الأراضي والكنائس اللي بينوها؟ عدد المسيحيين
في كندا مش مهول للدرجة ومايستدعش العدد ده من الكنائس.

٢ - منين القسس بتجيب الفلوس اللي بيشتروا بيها القصور اللي هما عايشين فيها؟ ولو مش واخدة بالك، أوديكي تتفرجي على بيتوهم، وساعتها لازم تسألني منين الفلوس دي.

٣ - كل كنيسة بتتبنى بتتكلف ملايين الدولارات، وماتنسيش تكلفة الدكك الخشب، وهنا الخشب غالي جدًا زي ما إنتي عارفة. ده غير النجف الكريستال اللي بيعتوا يستوردوه من مصر، وكمان رسم الأيقونات على الحيطان والأسقف وغيره وغيره وغيره.. منين الفلوس دي؟ وعشان مجد مين؟ لأنه أكيد مش عشان مجد الله.

٤ - كل قسيس عنده عريية، وده العادي. بس مش العادي إنهم يكونوا بيغيروها تقريبًا كل سنة. ده أنا نفسي ما بأغيرش العريية بتاعتي كل سنة على الرغم من إني عندي المقدرة أعمل كده.

٥ - الساعات الذهب السويسرية، والجزم الجلد الإيطالي، والجلاليب السوداء الحرير اللي بيلبسها القسس، واللي أكبر منهم، دي أكيد مش تموين جيلهم من الكاتدرائية، ولا يدل على منظر

شخص اختار أنه يخدم الناس . وغيره أمثلة كثير بتدل على فساد مالي
قاعه أعمق من قاع المحيطات .

أومات ليليان رأسها في دهشة، وبعد لحظات سألته:

- طب إنت بتدفع عشورك فين؟

- أنا تقريباً مرة كل شهر بأطلع مع شريكتي چانيس، ومرة نروح
لمستشفى الأطفال، ومرة لملجأ. مرة أخذتني مركز للمشردين وعملنا
لهم أكل وجبنا لهم هدوم ثقيلة عشان كنا وقتها في الشتا. ومن
حوالي شهرين جت لي باقتراح جديد، وإننا نروح السجون ونشوف لو
في حد محتاج أي مساعدة مالية، أو أي مساعدة للاتصال بعائلتهم،
عشان في أهالي بترفض تتكلم معاهم بعد ما إتسجنوا. الخلاصة يا
طنط، إنني على قد ما بأقدر بأحاول أوصل بأسلوب مباشر للي فعلاً
محتاج.

صمتت ليليان للحظات، وتذكرت:

- بس أنا شوفتك مرة بتحط ظرف في صندوق التبرعات في
الكنيسة.

هزّ سامح رأسه معترفاً بذلك، وقال:

- ده صحيح، بس أولاً دي مش عشوري. ثانياً، أنا بأعتبرها تكلفة إقامة بيزنس مع الأفاقين دول. شوفي، طول ما أنا بأدفع، طول ما الزباين الأقباط هتيجي لصيدليتي أنا وهناء. المنطقة اللي إحنا عايشين فيها، موجود فيها مصريين كثير، وبالنسبة لي ده استثمار للفلوس ناجح أكثر من الإعلانات.

وبحنقٍ أكمل حديثه قائلاً:

- عشان تعرفي تتعاملي مع الناس دول، لازم تكوني أكبر منهم، ويكونوا هما اللي محتاجين لك مش العكس. عشان أول ما المعادلة دي بتتعاكس، بيبعوا ويشترؤا فيكي. دول مش رجال دين، ولا بتوع ربنا ولا الفيلم الخيطان ده. دول تُجَار، وعشان أنا كمان تاجر، وبياع أشطر منهم وصلت لمرحلة أنني لو رفعت سماعة التليفون دلوقتي حالاً، فيلوباتير نفسه هيكون عندي في أقل من نص ساعة.

ثم إتجه سامح ناحية النافذة الخليفة بمكتبه والمطلة على الشارع الرئيسي أمام منزله، وقال ناظرًا لشجرة عملاقة أمام منزله وكأنه يتحدث إلى نفسه:

- مادام بعدنا عن لبّ المسيحية وسينا الكتاب، يبقى اللي يكسب هو اللي يجبر الثاني أنه يلعب في ملعبه، بقواعده هو.

نظرت ليليان إلى كراج كان قد أهدي لسامح منذ سنوات عدة أثناء زيارة له لإحدى الولايات الجنوبية الأمريكية، وكان قد علقه على أحد حوائط مكتبه بعد أن قصمه لنصفين، ثم سأله مترددة:

- طب معلى سؤال تاني، إنت ليه قريب منهم مادام إنت مختلف معاهم تمامًا، وعارف إنهم فاسدين كده. ما تروح أي كنيسة إنجيلية هنا، أو حتى أي كنيسة كندية.

- ده سؤال ممتاز، أولًا الإنجيليين هنا وجودهم زي عدمه. خدي مثلاً المدينة اللي عايشين فيها. لوحدها فيها أكثر من ٨ أشخاص كل واحد فيهم لامم الشلة بتاعته حواليه ويقولك قال اجتماع مش عارف فلان وللا علان العربي. طب لموا بعضكم وإعملوا كنيسة. أبداً..

واللي منهم ربنا يفتحها عليه واجتماعه يكبر ويشتري مكان يعمله
كنيسة بأسلوب رسمي، يرفض يجيب قسيس للكنيسة، وحاجة آخر
مسخرة. من الآخر الناس دول لا ليهم صوت ولا ليهم أي تأثير في
أي حاجة، ده غير أنهم عايشين على جبل التجلي ورافضين يتفاعلوا
مع عالم الواقع. ثانيًا، إحنا فعلا بنروح كنيسة كندية يوم الأحد.
فاكرة؟ كل يوم حد لما بنقول لك تيجي معانا وإنتي بترفضني عشان
كل حاجة بالإنجليزي؟ إحنا بنروح الكنيسة الأرثوذكسية يوم السبت
الصبح بس، وبكل صراحة عشان ده بيزنس بالنسبة لي.

همت ليليان بالوقوف، وقالت في حسرة:

- صحيح اللي خليف ما ماتش. أبوك كده، بيتكلم كده ويفكر كده.
وكل القسس في الكنيسة وفي شبرا كلها بتخاف منه، بس عشان على
حق. إنت بقى عشان على حق، وعشان معاك فلوس. بس يابني
متخليش الفلوس تتحكم في الأمور أكثر من كده.

-إطلاقًا يا ماما..

وكانت تلك هي المرّة الأولى في حياة ليليان منذ أن تكفلت برعاية وتربية سامح بعد ممات أمه، فيها تسمع كلمة "ماما" من فمه. فرق قلبها وتأسفت حيث شعرت أنها حكمت عليه بالظلم.

بعد ترك عدة رسائل صوتيه لشريكته چانيس، اهتَرَ تليفون سامح المحمول، فرد مسرعًا:

- Hey Janice, sorry to bother you on your weekend.

- Yeah no problem, what's up? Is everything Ok?

تردد سامح في إجابة هذا السؤال. فلم يكن متأكدًا إذا ما كان كل شيء على ما يرام، خاصة أن أحمد لم ينطق بكلمة بعد أن رجع من غرفة التحقيقات حيث أعطى رجال الشرطة هناك مواصفات أبيه وأمه، وأخته الصغيرة.

وبالرغم من إهتمام جميع العاملين بمركز الشرطة بأحمد، ومداعتهم المستمرة له، وإحضار الوجبات السريعة، والحلوى المختلفة الأشكال

والأحجام، كان ذهنه شارداً مُعذّباً. وهذا ما شعر به سامح وبدأ يُورقه الأمر.

آلاف الأسئلة ظلت تدور بمخيلة سامح، والأسوأ من تلك الأسئلة كلها، أن لا إجابة لأي منها. إلا سؤال واحد: هل اختفى أهل هذا الطفل للأبد؟

نعم، كانت هي الإجابة الوحيدة التي إستحوذت على فكر سامح، وكانت تُمرّع نفسه. والأدهى أنه لم يكن يدرك بعد أبعاد هذا الموقف المُعقّد، والدقيق قانونياً. لكنه كان على يقين من أمرٍ واحد، أنه لن يترك هذا الصغير وحده تحت أي ظرف من الظروف.

- Umm... Janice, listen. I won't be able to come in tomorrow, and maybe the rest of the week.

Do you think you can cover for me?

- You know I can, but what's wrong?

- I don't know what's wrong. At least not yet.
Just do me a favour, and pray for me. Pray that
God gives me wisdom as I really need it.

بعد لحظات صمت ظن فيها سامح أن الاتصال الهاتفي قد إنقطع،
قالت چانیس:

- Sam, I have no idea what's going on, but I've
known you for some time now, and I know
you're a man of God. I will pray for you, and
you can tell me all about it later if you want. Just
don't forget to call your superior at the Pharma
company, and tell him you won't show up this
week.

- Thanks Janice, and yes I will tell you all about
it later. Bye for now.

بعد إنتهاء محادثته مع چانیس بلحظات، إهتَرَ الهاتف مجدداً، وكان
السید شمیت هو الطالب:

- Mr. Schmitt, how are you?

- Hey Sam, Hanaa called and briefed me about what happened, and I am on my way over to you. Should be there in half an hour, but let me ask you one question: What do you plan on doing?

أسلوب حديث سامح مع السيد آرون شميت المحامي دائماً ما كان مُهدّفاً، ويُسرِع بالدخول في صلب الموضوع، وعليه قال سامح بعد أن غادر الغرفة، ليتحدث بعيداً عن الطفل:

- Aaron, this kid's parents have disappeared... Don't ask me how I know it, I just do. They are gone, and they are not coming back. So here's the bottom line: There's no way on earth that I'm gonna leave this station without him. No way in hell, you hear me? No fucking way that I'm gonna let the kid go into some sort of social

service custody. So come down here quickly, and do your thing.

تنهّد السيد شميت تنهيدة سمعها سامح، ثم قال:

- You're a stubborn Egyptian Mr. Iskaros. I know you, and most importantly I know this tone of yours. Don't worry, I think I know what needs to be done. Just hang in there, I'm on my way.

فور وصول السيد شميت لمركز الشرطة، رحب به السيد جالاجر ودعاه إلى داخل مكتبه، وهنا طلب أن ينتظر كل من سامح وأحمد خارجًا حتى يتسني لهما الحديث سويًا بحرية.

وفي ذلك الحين، نظر أحمد إلى سامح وقال له:

- أستاذ سامح، أنا عايز أشكرك إنك منتظر معايا، ومتأكد إن بابا هو كمان هيشكرك على تعبك معايا.

تأمل سامح عيني أحمد العسليتين، وربت على كتفه وبحنان الأب
قال:

- أولاً، اسمي سامح بس من غير أستاذ. ثانياً، مافيش داعي إنك
تشكرني حبيبي أنا ما عملتش أي حاجة، أنا متأكد لو باباك كان في
نفس موقفني كان عمل نفس اللي أنا عملته.

في أحشائه كان يرغب أن يقول لأحمد الحقيقة، لكن من رابع
المستحيلات أن ييوح له بذلك علانية. وعلى الرغم من أحشائه
الممزقة، وجدها سامح فرصة ليُحصّر أحمد نفسياً لما هو آت،
فإستكمل مستطردًا:

- بس أنا عايز أسألك سؤال. إحنا كده يبقى بقالنا تقريبا ٨ ساعات
ومافيش أي أخبار عن باباك ومامتك. وهنا يبقى في حل من اتنين: يا
إما تقضي الليلة في مركز خدمة اجتماعية، يا إما ترجع البيت معايا،
ونكمل ندور على باباك ومامتك بكرة. تحب تيجي معايا البيت عندنا؟
إحنا عندنا أوضة فاضية وممكن تنام فيها لو عايز.

بسبب محدودية سنه، لم يكن أحمد على دراية كافية بما يحدث من حوله، وظنّ حينها أنها مسألة وقت ويجتمع شمل أسرته مرة أخرى. لم يكن متأكدًا من أي شيء على الإطلاق، فقط أن هذا الرجل الجالس بجواره حسن الأخلاق وتوسّم فيه الطيبة، فرد على سؤال سامح قائلاً:

- موافق، بس لازم نلاقي بابا وماما بكرة لإننا مسافرين على مصر.

لم يرغب سامح في أن يعد أحمد وعودا كاذبة لم يكن متأكدًا أن باستطاعته الإيفاء بها، فقال لأحمد وهو يضمه إلى صدره:

- كل اللي هأقدر أوعدك بيه أنني هأعمل أقصى ما في وسعي إننا نلاقي باباك ومامتك وأختك.

بطرف عينه نظر إلى داخل مكتب الكونستابل، واطمأن قلبه حين رأى السيد شميت يصافح السيد جالاجر، وعلى وجهه ابتسامة رضا.

فور خروج المحامي من مكتب الكونستابل، سأله سامح متلهفًا:

- So?

تريث السيد شميت في الإجابة حتى تأكد أنهما على بعد كاف من
أحمد:

- Well, it wasn't easy, but you can leave with the kid now, and they will be in contact with you. Everybody in the station at this point is of the opinion that the parents have disappeared under suspicious circumstances, and doubt they will be back.

- What do you mean by "suspicious circumstances"?

- I don't know yet... Mr. Gallagher did not share such information with me.

- OK, fair enough. So, can we go now?

- Not before you sign on some papers, and also they need to fingerprint the kid.

في نظرة تحذير قال سامح للسيد شميت:

- The kid's got a name Schmitt, and it's Ahmed... And why do they need to fingerprint him?

وفي محاولة لتهدئة سامح الذي ظهرت عليه علامات الاستياء:

- Ahmed doesn't have any identification papers. You forgot? This is a security measure, and routine procedure.

كانت هناء بانتظار سامح على باب منزلها الراقي، حاملة كارولين على كتفها. وعند رؤية سيارة سامح تتخذ مكانها بالممر الأمامي

للمنزل، طلبت كارولين من أمها أن تتركها حتى تهرع لترحب بوصول والدها، وبأعلى صوتٍ صاحت الصغيرة مرتمية في حضن سامح:

- Daddy is here!!

سمعها چاسون من داخل المنزل، فركض هو الآخر لتحية أبيه تاركًا چیچی وحدها بالداخل. وحمل سامح كلا من كارولين وچاسون، وبصعوبة وصل إلى هناء وحيها مقبلاً شفيتها.

ظل أحمد بالسيارة، فأشار له سامح بالإنضمام إليهم. وفي خجل وتوجس فعل كذلك، وما إن إقترب من هناء وجدها تفتح ذراعيها له قائلة:

- إحنا دايمًا بنحضن بعض لما نكون برة ونرجع البيت. تتكسف لو حضنتك؟

- لأ..

- أهلاً بيك يا أحمد، نورت البيت. إعتبره بيتك.

وفي حركة مباغتة، جذب چاسون أحمد من يده قائلاً:

- Come, let's go play Mortal Kombat.

رَحَّبَ سامح بجيجي التي كانت منتظرة في المطبخ بالناحية الخلفية
للمنزل شاكرًا تعبها معهم ذلك اليوم.

- بتشكرني على إيه يا سامح، عيب.

- لأ إزاي؟ ده يوم أجازتكم وإحنا أفسدناه عليكم.

- المهم، إيه حكاية الولد ده؟

أنزل سامح كارولين من على كتفيه، وطلب منها الانضمام إلى
أخيها، ثم إتخذ مكانه على مقعد من مقاعد المطبخ العالية، وطلب من
هناء أن تحضر له كوبًا من الماء. ثم قال بصوتٍ خافت:

- عندي إحساس إن أهله اختفوا للأبد.

وقع الكوب الزجاجي من يد هناء في مفاجأة من هول ما قال سامح،
وصمت الجميع برهة. وبعد أن إنتهت هناء بمساعدة سامح من
تنظيف أرضية المطبخ من قطع الزجاج المتناثرة في أرجاء المكان،
عاودت جيجي تسأؤلها:

- إزاي، وإيه اللي مخليك تقول كده؟

احتفظت هناء بصمتها وهدونها طوال هذه الفترة، لكن وجهها أعلن عن قلقٍ مشروع.

- زي ما قلت يا چيچي، ده مجرد إحساس، وأتمنى أنه يكون منخطئ، لإنني بصراحة مش عارف هنعمل إيه لو الإحساس ده إتأكد.

قال ما قاله فقط محاولاً تهدئة هناء، لكنها فاجأته بإعلانها:

- وحتى لو الإحساس ده طلع واقع، إحنا استحالة نتخلي عن الطفل المسكين ده.

نظر إليها سامح مستعجباً ما قالت، وفخوراً بها في ذات الوقت.

- ده شعور جميل منك يا هناء، ومُتوقع من ناس زيكم. بس إنتي غالباً مش مستوعبة كل جوانب وتبعيات الكلام ده.

في هذه المرحلة، شعر سامح أن أي كلام يزيد عن ذلك سيندرج تحت بند الجدل العقيم. ولهذا قرر غلقه قبل أن يتسني لهناء التعقيب على ما قالته چيچي.

- بدري على الكلام ده. من هنا لبكرة هنشوف إيه اللي هيحصل.

إستيقظ سامح مبكرًا في صباح اليوم التالي، بل لم يتسن له النوم على الإطلاق، فقط قرر الاستلقاء على الفراش كي لا يقلق نوم هناء . وفي تمام الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي، ذهب إلى مكتبه ليستعد لما هو آت. وبدأ بالفعل في مراسلة جهات مختلفة كالسفارة المصرية في العاصمة الكندية أتاوا، وأيضاً العديد من الخطوط الجوية، وعلى رأسهم شركة مصر للطيران. كان الإنتظار عدوه، لكنه إستسلم لواقع التوقيت.

مرت ساعتين، وبعد إحتساء الفنجان الثالث من القهوة، سمع طرقا على باب المنزل، فذهب لإجابته وإذ بالسيد جالاجر يقوم بتحيته. طلب منه الدخول على الفور، وللحظات تسلل الفرحة إلى نفس

سامح، فلا بد أن الكونستابل قد عثر على والدي أحمد، وإلا فلماذا
حضر بنفسه إلى منزله؟

عرض على الكونستابل بعض القهوة التي كان قد حضرها باكراً،
ورحب ديLAN بعرضه.

– So? Any news?

– Mr. Iskaros, I'm afraid I have some troubling
news for you.

خفق قلب سامح بحدة، واحتسب الأسوأ. وبدأت يدها في
الإرتجاف، فأمسك يده اليسرى باليمنى محاولاً إخفاء مشاعره. لم
يجرؤ أن يسأل رجل القانون عن ماهية تلك الأخبار، فإستطرد السيد
جالاجر قائلاً:

– I had my guys continue working on this all
night last night, and after checking all
surveillance cameras recordings, we found what
we believed to be Ahmed's parents heading over
to the US borders. After checking with the US

authorities, they have confirmed their identities. It was them, and they have crossed the borders leaving their son behind, intentionally.

إتسعت عينا سامح، وإرتفع حاجباه دون أن يدري مكذباً ما سمع.
وبالرغم من توقعه أمراً مشابهاً، لكنه لم يتوقع هذا تحديداً.

– We asked our friends on the US side to check with the Buffalo airport as we suspected they might have attempted to leave the country, and a confirmation came back. They have left the North American continent yesterday afternoon heading for Egypt.

إحترم السيد جالاجر صمت الصدمة، وبعد بضع لحظات، أكمل
قائلاً:

– I personally came here to see you as I yesterday saw a good man in you, and didn't wish anyone else to break the news to you.

إنتفض سامح من مكانه حين سمع صوت نحيب هناء من الردهة.
فكانت قد إستيقظت من نومها حين سمعت صوت الكونستابل داخل
منزلهم، وفي طريقها للطابق الرئيسي توقفت على إحدى درجات
السلم، وللأسف إستمعت لكل ما قال. حاولت جاهدة للتحكم في
دموعها، لكن ما سمعت كان أعظم من أن تحتمل.

حقًا قد إنتفض سامح من مكانه، لكنه عجز عن التحرك ناحيتها
ليضمها لصدره ويخفف عنها، فهو أيضا أصابه الدهول الذي وصل
لحد الإعاقاة.

**- No... No... I don't believe it... Why? I mean
how... How can a father... and a mother leave
their own kid behind in such horrific way.**

**- I am terribly sorry Mr. Iskaros for being the
bearer of bad news.**

إستجمعت هناء أشلاءها وذهبت شبه زاحفة إلى سامح. بيد
أمسكت بنفسها وكأنها تلملم شتاتها ياكتضان، وييد تجفف دموعها
المنهمرة. وما إن شعر سامح بلمسة يدها، إنهار باكياً.

وبعد دقائق قاتمة كان الأسي سيدها، إسترجع سامح قواه الذهنية
وسأل السيد جالاجر:

- So what now? And please, tell me anything, I mean anything, but not that we have to let Ahmed go under some sort of social service custody.

إحترم السيد جالاجر مشاعرهما، وقال في أدب جم:

- For now, I have no doubt in my mind that Ahmed is safe with you. However; as a representative of the crown, I have to make my recommendation to the court that we do just that. On the other hand, you will need to prove to the court that you are Ahmed's best option at this point in order for the judge to allow you to keep him. That of course if you want.

شكر سامح السيد جالاجر على مجهوداته، وفور رحيله قام بالإتصال
بالسيد شميت، ودون أي تحية قال:

**- Aaron, I need you right away. How long do
you think it will take you to be here?**

**- Yes... And good morning to you too Sam.
Should be there in an hour, maybe an hour and
half depending...**

قاطع سامح:

- Twenty minutes and you be here.

بالفعل، وبعد أقل من نصف الساعة كان السيد شميت على باب
منزل سامح وهناء، وكان سامح يتمنى من كل قلبه ألا يستيقظ أي من
الأطفال الثلاث. كان متحدثًا لبقًا وحضر لما سيقوله ويطلبه من السيد
شميت، لكنه فوجئ بهناء تدير دفعة الحديث قائلة:

**- Aaron, Ahmed's parents have left him behind
intentionally at Niagara, and are on their way**

back to Egypt as we speak. They took a plane from Buffalo. We will keep Ahmed, and nothing on this earth will force us to let him go, so here's what we need you to do. First, and foremost, Ahmed is not to know that he was left behind this way. Second, we don't care how much this is going to cost, he is to stay with us. Make it happen. Am I making myself clear?

إنصرف السيد شميت، واتجه فوراً لمركز الشرطة في نياجرا لبدء إجراءات احتفاظ آل/إسكاروس بأحمد رسمياً. فكان الإجراء القانوني الصحيح، والذي وجب على السيد جالاجر إتباعه، هو أن يتَحَقَّقَ على أحمد ثم يقوم بإستدعاء الخدمات الاجتماعية ليقوم في إستضافتهم حتى يقرر القاضي أين سيعيش الطفل السنوات القادمة من عمره. لكن نظراً لهذا الوضع الغريب والدقيق، قرر ديLAN إتباع قانون الإنسانية، وترك أحمد في رعاية سامح وهناك مؤقتاً.

كصاحب البيت وأميره، هبط چاسون بعد أن استيقظ من الطابق العلوي مرتدياً بيجامته، ودون أي تفكير ذهب مباشرة لأمه وحصنها، ثم توجه لأبيه وقبّله. وعندها تطلع سامح في وجه زوجته ليلفت إنتباهها حتى تجفف دموعها، وتسيطر على مشاعرها .

إستيقظ أحمد من نومه هو الآخر لكنه بخجل ظل واقفًا بعيدًا عند
الدرج الخشبي للمنزل، وبإشارة من يد سامح دعاه للإقتراب منه
وقال:

- صباح الخير يا أحمد، نمت كويس؟

هزّ أحمد رأسه مرتبكا، فكانت تلك هي المرّة الأولى التي يبیت فيها
تحت سقف أناس غرباء عنه.

إبتسم سامح، وقال:

- تحب تفطر إيه؟ عندنا كل حاجة ..أؤمر إنت وإحنا ننفذ

فهم چاسون اللغة العربية بعض الشيء، لكنه لم يتحدثها بطلاقه،
فقال مندفعًا:

- I want eggs and bacon.

لم تفارق الإبتسامة وجه سامح على الرغم من إعتصار قلبه داخله،
وقال دون تردد:

-هناكل بيض وجبنة وفاكهة.. بلاش باكون النهاردة.

إنهمك في تحضير وجبة الإفطار مع هناء، وكان قد طلب من الأولاد أن يذهبوا لغرفة المعيشة لمشاهدة قناة الأطفال التليفزيونية حتى يفرغ من إعداد الطعام للعائلة. فسألته هناء بصوتٍ خافت:

– ليه بلاش باكون النهاردة؟

نظر سامح إلى خارج النافذة المطلة على الحديقة الخلفية للمنزل، وقال لها معاتبًا:

– ما تنسيش إن أحمد مسلم يا هناء. وطول ما هو معانا، هيفضل مسلم، وهنحترم ده.

إعترى هناء الهلع من إتهام سامح، وبدأت في الدفاع عن نفسها.

– حبيبي أنا ما قصدتش. موضوع مسلم ومسيحي ده عمره ما كان في دماغى أصلاً. أنا بس مش مركزة، وده فطار عادي في بيتنا وفكرت إن....

في حنان بالغ، قاطعها سامح واضعًا سبابته اليمنى على شفتيها وقال:

- عارف. وعشان كده عايزك تفتكري وتكزي.

إستكمل كلامه ناظرًا ناحية أحمد وهو يشاهد شاشة التلفاز ويلعب مع چاسون بألعبه العديدة الموجودة في غرفة المعيشة.

- لحد ما نعرف مصير الطفل ده، إحنا هنحترم حقيقة أنه مسلم، ومش هنطلب منه أنه يعمل أي حاجة مخالفة لتعاليم دينه.

- أكيد يا سامح، مش محتاجة كلام.

عند إنتهائهما من إعداد وجبة الإفطار، ذهبت هناء لإيقاظ الصغيرة كارولين وإحضارها لتتناول الطعام معهم. وجلس الجميع على نفس المائدة، كما أجلس سامح كارولين على حجره. في تردد نظر أحمد إلى الطعام، ففهم سامح ما يدور بمخيلته، وقال له مطمئنًا:

-كُل يا أحمد ما تخافش. كل اللي موجود قدامك أكل حلال، وما فيهِوش أي حاجة غير مسموح للمسلم إنه ياكلها.

- وحضرتك عرفت إزاي أني بأفكر في ده؟

قاطعهما چاسون متسائلاً:

- What's Halal?

أشار سامح بيده إلى چاسون طالبًا إنتظار إجابة سؤاله، ثم قال
موجهًا حديثه لأحمد:

- عشان عارف إنك مسلم. وما تخافش من حاجة، طول ما إنت
معانا، كل الأكل اللي هنقدمهولك هيبكون حسب الشريعة.
وهنا أضاف چاسون سؤال جديد إلى قائمة أسئلته:

- What's Sharia?

بابتسامه باهتة، أجابت هناء على تساؤلات بكرها.

- Jace, honey, Ahmed is Muslim, and as a
Muslim, he has to eat only what his faith allows
him to.

- Oh yeah, like Danny, but Danny is Jewish, and
he doesn't eat anything they serve at school.

– It's not exactly like that Jace, but yes, Danny is Jewish, and the food that he is allowed to eat has to be Kosher. So you see, all Muslims have to eat only Halal food. And bacon is not Halal, so that's why they can't eat it.

صرخ چاسون من هول المفاجأة، موجهًا سؤاله لأحمد:

– What?? You can't eat bacon?

هزّ أحمد رأسه مؤيدًا كلام هناء، فإستطرد الصغير:

– That's not fun!! Bacon is so delicious...

وللفور انتهره سامح قائلاً:

– Jason, religion is not about having "fun"... It's about following what your religion is telling you is right. Now, stop talking and let us all pray.

أمسك سامح بيد هناء، وهي بدورها أمسكت بيد چاسون، الذي مد يده ليمسك بيد أحمد الجالس قبلته. لكن الأخير لم يفهم معنى هذا التقليد، فقال له سامح:

- أحمد، مسلم أو مسيحي أو يهودي أو أي ديانة ثانية، كلنا لنا رب. وإحنا في البيت هنا، وقبل كل وجبة كلنا بنمسك إيد بعض عشان نشكر ربنا على نعمته علينا.

وبالفعل أمسك أحمد بيد چاسون، ومد يده الأخرى ليمسك بيد سامح من قام بتلاوة صلاة قصيرة:

- يا الله إنت صالح للكل، وإحنا بنشكرك على نعمتك وخيرك لنا.
أذكر يا رب الفقرا والمحتاجين، وإدينا إنا نوصلهم حبك وخيرك.
آمين.

بعد إنتهاء الجميع من تناول وجبة الإفطار، ذهب أحمد لسامح في مكتبه المنزلي حيث كان قد إستأنف مكالماته التليفونية. جلس على أحد المقاعد، وسأل:

- حضرتك عرفت أخبار عن بابا وماما؟

- لسه حبيبي، أنا بأعمل بعض الاتصالات عشان نحاول نعرف هما
فين.

فقد أحمد عقله، وبدأ يصرخ:

- بس الطيارة هتمشي النهاردة.. أنا لازم أمشي حالاً.. لازم أروح
المطار.. لازم ألاقي بابا وماما..

فشل سامح في تهدئته، ونظر إلى هناء عند حضورها للمكتب
مهرولة، طالباً معونتها. لكنها لم تعرف ماذا تفعل.

ربت سامح على كتف الصغير وقلبه يعتصر في داخله، وقال:

- طيب بص.. تعالى نروح المطار ونسأل شركات الطيران هناك،
يمكن يدلونا باباك ومامتك موجودين على أي خطوط طيران.

وإبتسامة بلهاء، كاذبة، غامضة، أكمل ناظرًا لسقف بيته:

- مين عارف، يمكن نقابلهم هناك..

فرح أحمد بذلك الاقتراح وركض للطابق الثاني حتى يستبدل
البيجامة المستعارة من چاسون، وقام بوضع ملابسه والتي وجدها
مغسولة، نظيفة، تم كيها، وذات رائحة عطرة.

بالرغم من إدراك هناء عدم جدوى ما ينتوي سامح فعله، وجدت أنه
شيء لا بد منه حتى يهدأ الطفل. فقد يكون ذلك بداية تقبله لواقع
حياته الجديد. وأيضًا حتى لا يشعر أنه مُجبر على المكوث في
منزلهما.

في طريقه لمطار تورونتو الدولي، أخذ سامح يفكر في أسلوب به
يظهر لأحمد وكأنه يتقصى أخبار ذويه. ولكن ما استرق السلام من
داخل سامح، كان خوفه على أحمد من التوتر لوجوده في مطار شاسع
الأركان متخيم بالزُحال والمسافرين، صخب الصوت دائم الحركة. توتر
هو أيضًا لهذا، وبدأ قلبه في الإخفاق سريعًا، وشعر بالعرق يتصبب من
كفي يديه مرتعبًا لما يمكن أن يحدث إذا بدأ الطفل في الصراخ
والعويل في المطار.

وهناك، كان سامح يطلب من أحمد أن يحتفظ بمسافة معينة بينهما حتى يتسنى له الاستفسار عن ذويه. وأيضًا ليسأل العاملين بمكاتب شركات الطيران دون إثارة الشك حوله.

بالطبع لم يستفسر سامح عن أي من ذلك، بل كان يسأل عن مواعيد إقلاع رحلات، أو وصول رحلات أخرى، أو عن تكلفة شحن بضائع، إلى آخره من أسئلة مصطنعة مفبركة لإقناع أحمد بالتمثيلية المقدمة له. وكان الأمر في غاية الصعوبة على سامح، خاصة أنه لم يحترف الكذب، بل كان أمرًا أجنبيًا عليه. لكنه فضل ذلك عن أن يبيح لأحمد سبب تواجده الحقيقي في المطار خوفًا من استدعاء أحدهم لرجال الشرطة، وهم كُثر، وفي تلك الحالة سيتم التحفظ على أحمد لا محالة.

إستسلم أحمد رويدًا للأمر الواقع، وبعد ما يقرب من الساعتين، لم يجد سامح فائدة من المكوث أكثر من ذلك في المطار. وفي طريق العودة للمنزل كان أحمد جالسًا على الأريكة الخلفية بالسيارة، يبكي حاله، وبصوت مكسور قال:

- إنت كدّاب.. إنت ماكنتش بتسأل عن بابا وماما.

تفاجأ سامح، وظنه قد سمع حديثه مع أحد موظفي شركات الطيران داخل المطار.

- إنت ليه بتقول كده؟

- إنت ليه كنت بتخليني أقف بعيد عنك، ومش عايزني اسمع حاجة؟

تنفس سامح الصعداء، وقال:

- حبيبي لو كنت سيبتك تقرب، كانوا طلبولنا البوليس وكان اتحفطوا عليك وأخدوك مني. لكن لما يشوفوني لوحدي ماكانوش هايعرفوا إنك معايا.

بعد أن شعر بثورة أحمد تخمد بعض الشيء، وجدها فرصة ليمهد الطفل لما هو آت، وبصدق بالغ قال:

- أحمد، أنا عارف إننا أغراب عليك، بس صدقني وجودك معنا أحسن من إنك تقعد في مكان ما فيهوش أي حد مصري. وبعدين على

الأقل جاسون تقريبًا في نفس سنك، وممكن تقعدوا مع بعض في نفس الأوضة تونسوا بعض، وتلعبوا. ولو مش عايز تقعد معاه، عندنا أوض تانية، اختار اللي يعجبك واقعد فيها.

أخطأ سامح حين ظن أن ثورة أحمد كانت في طريقها للإنخماد. فللتو قاطعه أحمد صارخا:

- أختار أوضتي اللي في بيتنا، أنا عايز بابا وماما وعايز أروح بيتنا. خدني السفارة المصرية وسيني هناك، هما هيتصرفوا.

إمتزج الحزن بالغضب بنفس سامح، وتأوّهه بداخله: "آه لو يعرف هذا الفتى الصغير ما قد فعله به أبواه"، لكنه لم يجرؤ على البوح بالحقيقة المفزعة له، وفضّل اتخاذ منصب الأحمق الكاذب.

- السفارة؟

هكذا سأله سامح في إستهجان، وأكمل:

- سفارة إيه؟ تقصد السفارة المصرية؟

- أيوة..

-ب ص يا أحمد، لو ده اللي انت عايزه أنا هاأخذك بكرة، ومش مهم عندي طول المشوار، بس عايزك تفهم حاجة كويس أوي قبل ما تقرر أي حاجة. الناس اللي بتشتغل في السفارة لا بيهشوا ولا بينشوا. ومشكلة زي دي، وخصوصًا إنك ما معاكش أي نوع من أنواع تحقيق الشخصية، مش هايكونوا عايزين يتعاملوا معاها، وحتى لو قبلوا إني أسبيك معاهم، أول حاجة هيعملوها أول ما هأمشي من عندهم إنهم هيكلموا السلطات الكندية عشان يجوا ياخدوك، وغالبًا اللي هيحصل بعد كده أن هينتهي بيك الحال إنك تعيش في ملجأ.

توقف لحظات عن الحديث ليسترده ريقه، وليعيد ترتيب أفكاره. وبعد أن لاحظ صمت الطفل الباكي، قال له:

- أنا كلمت محامي عشان يقدم طلب أنك تقدر تقعد معنا لحد ما نعتبر على باباك ومامتك. لو مش عايز تقعد عندنا وعايزني آخذك السفارة بكرة، أنا هأعمل كده.

كانا قد وصلنا إلى منزل سامح حين إنتهى مما قال، وإستطرد قائلاً
لأحمد وهو يفتح له باب السيارة الخلفي:

-أنا مش عايزك تكون بتعمل أي حاجة وإنت حاسس إنك مضطر
تعملها. ففكر وقولي عايز تعمل إيه بكرة الصبح. لو جيت وقولت لي
إنك عايز تقعد معنا، يبقى لإنك عايز كده ومش عشان إنت مجبر.
ولو قلت لي عايز تروح السفارة المصرية وأسببك هناك، يبقى أنا تحت
أمرك.

صمت أحمد إلى حين، والدموع تكاد تفتك بعينه.

لم يجد سامح أحدا بالمنزل، فطلب زوجته للإطمئنان على الجميع
من الهاتف المنزلي، وكان قد وضع الهاتف على مكبر الصوت
الخارجي، فجاءه ردها:

- أنا قلت آخذ العيال وأروح المول عشان أجيب شوية حاجات
لأحمد.

سألها سامح والفضول يملأه:

- حاجات زي إيه؟

- أبداً، شوية هدوم وبيجامات ولعب.

هكذا كانت هناء، دائماً ما تدقق في أبسط الأمور، ودائماً ما تفاجئ
سامح بتلك التصرفات النيرة، وما كان له غير أن يشكرها ويشكر ربه
على الحكمة التي أعطاها لزوجته.

- تمام، وأنا كمان هأروح المحلات العربي أجيب أكل وشوية لحوم
حلال.

- تمام كده، أنا رميت كل اللحمة البقري والفراخ والبورك اللي كان
في الفريزر، وكنت ناوية أعدي أجيب أكل من عند العرب. كويس
كده هتوفر عليا مشوار.

- لو إفتكرتي حاجة تاني، إبعيلي رسالة.

بعد انتهاء المحادثة التليفونية القصيرة تلك، إلتفت سامح فوجد
أحمد متسمرًا في مكانه محدقًا به.

- أنا ما كنتش مصدق إنكم كده.

- إحنا مين؟ وكده إزاي يا أحمد؟ مش فاهم.

- أنا ما كنتش مصدق إن في ناس مسيحين طيبين أوي كده.

ما قاله أحمد كان بمثابة الصدمة لسامح، خاصة أنه في مثل سن أحمد لم يكن يعي تلك الفروقات. فكان عليّ أصدق وأقرب الناس له، ولم يعلم أنه مسلم الديانة حتى سن الثانية عشر، ولم يغير ذلك شيئاً في علاقتهما على الإطلاق.

– أحمد أنا مش عارف مين قال لك إيه عن المسيحيين، ومش مهم عندي أعرف. بس أنا عايز أطلب منك طلب واحد. لو كان قرارك إنك تمشي من هنا وتروح السفارة، يا ريت ده ما يكونش عشان إنت خايف تقعد مع ناس مسيحيين. ولو قررت إنك تقعد معانا، فاحكم علينا من خلال تصرفاتنا وأخلاقنا، مش من خلال ديننا.

أنهى سامح حديثه بقوله:

– المهم، تعالى نروح نجيب شوية حاجات. وعلى فكرة، وإحنا في المحل لو شوفت أي حاجة نفسك فيها، هاتها وما تفكرش في أي حاجة تانية. إتفقنا؟

من بعيد، لمح سامح ما يشبه الابتسامة ترجع لوجه أحمد حين قال:

– إتفقنا..

كان حال سامح كقارب صغير في عرض المحيط دون شراع، تلطمه
الأمواج وتأخذه الرياح أينما تشاء. ثم يصمت البحر الهائج بضعة
دقائق ليعاود الموج بالعبث بمشاعره.

تنهد سامح في إرتياح خلال تلك الدقائق القصيرة الهادئة وهو
يشاهد تغير ملامح أحمد في كل مرة يفتح فيها حقيبة ورقية ليجد
هدية جديدة كانت قد إبتاعها له هناء.

ودون سابق إنذار، إهتز تليفونه الخلوي في جيبه، ولم يكن غير
السيد شميت، فانتصب من مكانه واتجه على الفور ناحية مكتبه.

- So, Aaron? What's the news?

- Yeah... Hi Sam, I'm good. Trust you are too.

- Sorry Aaron, we're just very apprehensive. Hope you are well.

- I am, and have good news for you. After four long hours of talking to Mr. Gallagher, he agreed to endorse you guys to social service, and recommend that Ahmed to stay with you as you are currently his best option. That being said, you should expect a visit from a social service agent in the coming couple of days.

- A visit from a social service agent? What for?

- Sam, they have to inspect your house, and also interview all of you guys, in order to determine whether what they will see, and hear from you meets their expectations.

- Oh! OK, that's understandable... But while I appreciate this is just the formality of it, I still would like you to be present during this

"inspection" to make sure that everything would be done legally.

- No problem at all, just one question though.

صمت سامح متوجسًا، منتظرًا

- I know this may not be any of my business, but I was just wondering why are you guys helping Ahmed? I mean I know Muslims are not really fond of Christians in Egypt, and vice versa.

بشبات الأسود، جاء رد سامح على ما قال السيد شميت:

- I am just a human being helping another. And Aaron, I truly appreciate your help into this matter, but please don't forget that I pay for your services, and I believe I pay you goddamn good money for it. I only ask that you stay focused, do your job, and never ask me such stupid question again. And one more thing... It's

time to figure out a way to get Ahmed some official documents. Summer is almost over, and don't want him to miss school.

في صباح يوم الجمعة من نفس الأسبوع، وبعد رحيل هناء للذهاب لعملها وتفقد حال صيدليتها، وفي تمام الساعة التاسعة والنصف من صباح هذا اليوم، سمع سامح صوت طرق على باب منزله، وعند إجابته فوجئ سامح بجانيس شريكته في العمل. وبعد الترحيب بها وتقديم القهوة كما هي العادة في كندا، لمحت أحمد وهو يلعب مع چاسون وكارولين. تملك منها الفضول فسألت سامح:

- Who's the cute kid?

تنهد سامح من أعماقه متحسباً حدقتي عينه بأطراف أصابعه، وقال لها دون رفع نظره بعيداً عن الصغار:

- His name is Ahmed, and he's the reason why I couldn't show up the past few days.

- Oh!! Oh, OK...

وفي إرتباك أخذت چانيس في تحسس شعرها الأشقر الأملس،
وإستكملت قائلة:

- Well I'm glad you and Hanaa are OK, because
I thought there may be an issue between you
two.

- No, not at all.

سرد عليها سامح قصة مقابله بأحمد، وكيف تركه ذووه عن قصد
وترتيب مُسبق، ثم لخص لها محتوى زيارة الأخصائية الإجتماعية
وموافقتها على مكوث أحمد معهم.

دمعت عينا چانيس، وطلب منها سامح أن تتحكم في مشاعرها حتى
لا يشعر أحمد بأن في الأمر ما خُفي عنه. وكان طلبه هذا عسير
عليها، فكيف لأي أم أن تترك ابنها البكر عامدة بهذه الصورة
الشنعاء؟

وبعد أن استرجعت رباطة جأشها، قالت:

- Take all the time in the world, and don't worry about a thing. I got this. But what are you gonna do with your job at the Pharma company?

- I don't know Janice. I thought about resigning, but I can't do that, especially now. Not only I need the money, but most importantly the contacts and connections. I just don't know how am I gonna be able to skip work each Friday. I mean I can make it up and work on Saturdays, but not Fridays.

- What's special about Fridays?

- Well, Jews got Saturday to worship, Christians got Sunday, and Muslims got Fridays.

- Still don't follow...

- Janice my dear, Ahmed is Muslim, and I intend doing everything in my power that he remains that way, and one way of doing that is to take

him to the mosque every Friday. At least in the summer when there is no school.

ظنته يمزح، فقالت بنصف ضحكة:

- You're joking right?

هزّ سامح رأسه معلناً عن جدية نيته، فاستكملت قائلة:

- Are you out of your mind? I mean, you can't possibly be serious about that. You know what the bible teaches us.

وفي نبوة عتاب نظر إليها سامح، وقال:

- Yes I know. The bible teaches us to love thy neighbour, and I am trying to do just that.

- But this is not what I meant.

- I know what you meant Janice, but this is not what's inside me right now. Don't ask me to explain it, because I can't. All I know is that as

long as this kid is under my roof, he is to keep his faith, and yes I will take him to the mosque every Friday, and yes I will make sure that he doesn't forget his Arabic, and God help me, I will teach him the Qur'an myself if I have to.

- But what if he decides otherwise?

- Then it's his decision, and I sure will respect that.

توقفت چانیس عن الکلام، شاخصهً لأحمد ثم جددت حديثها

قائلة:

- You're a good man Sam, and I just hope you know what you're doing, because based on what I know about the Egyptian community in Canada, both Ahmed, and yourself may get rejected by both, the Muslim and the Christian side. I just hope you are ready to accept your inevitable fate of becoming an outcast.

- Janice, this is exactly why I asked you to pray that God would give me wisdom. I know I wasn't in Niagara Falls that day haphazardly. I believe all what I am, what I have become was only a preparation for this moment. I also believe there is a divine plan set before me here, and I only pray that God would guide me through this, because it's bigger than me, and I am scared.

- I will not stop praying for you, and for Hanaa. I promise you that much.

في موعد صلاة الجمعة، أحضر سامح ضيفه الجديد للمسجد المتواجد بالقرب من منزله، وهناك قابل وليد حيث طلب منه إصطحاب أحمد إلى الداخل.

سأله وليد محيياً إياه:

- ما فيش أخبار؟

- لأ يا وليد، بس إبتديت إتصالاتي بالفعل في مصر وهنشوف.
المهم إنت خلّي بالك من أحمد وعلمه يصلي لو ما بيعرفش.

- أنا مش مصدق اللي بتعمله يا سامح.

قاطعه سامح:

- أنا ما بأعملش حاجة تُذكر. المهم خُشُوا إنتوا بس إحقوا الصلاة
وأنا هاستناكم في العربية.

وفيما هم بالداخل، جلس سامح بداخل سيارته وطلب أباه من هاتفه
الخلوي ليحكى له عما حدث طوال الأسبوع الفائت، وليطلب منه
الإرشاد والتشجيع. وما إن سمع صوت عم جرجس حتى إنهار في
بكاءٍ مُرٍّ، وفي لهفة الأب على وليده، أخذ التساؤل:

- آلو، سامح.. سامح.. مالك يا بني؟ خير؟ إيه اللي حصل؟ هناء
والعيال كويسين؟؟

بعد أن استعاد سامح بعضاً من شجاعته، رد على والده قائلاً:

- بابا، أنا محتاجك. محتاج لحضنك ونصيحتك.

- أنا كلي ملكك يابني. خير إيه اللي حصل؟

سرد سامح القصة كاملة وطلب من أبيه الإرشاد والنصح. وبعد صمت دام ثوانٍ، قال له عم جرجس:

- سامح يابني أنا فخور بيك وباللي بتعمله، ومعنديش أي حاجة أقولها لك غير أن اللي بتعمله ده، هو ده الصح.. كمل يابني، كمل وربنا هيقف جنبك وجنب هناء، وصدقني ربنا هيكرمك وبيباركك وبيبارك أحمد. إلهنا يابني صالح للكل، مش بتاعنا إحنا بس. إوعى تتخلي عن الولد ده مهما كانت الضغوط اللي هتقابلها، وإوعى يابني تسمح لأي حد ولا حتى لنفسك أنه يسرق هويته. وأنا هاساعدك من هنا وهابدأ أدور على أهله. هأروح لعلّي وأحكيه وأطلب مساعدته.

- بس يا بابا، قبل ما تقول لعلّي أي حاجة، خليه يوعدك ويحلف لك بحياة ولاده إنه ما يجيبش سيرة لمخلوق. مش عايز أجازف بأي حاجة ممكن من خلالها أحمد يعرف إن أبوه وأمه سابوه عن قصد. وكمان عايزك تحكي لماما ليليان، بس بأسلوب دبلوماسي عشان أنا مش عارف رد فعلها هيكون عامل إزاي.

إنتهت المحادثة الصوتية بعد أن طمأن عم جرجس وحيدته، ووعدته أن كل شيء سيغدو على ما يرام. وبعدها بلحظات قصيرة، لمح وليد وأحمد يهرولان خارج المسجد، ووراءهم جمع غفير واضح الإستياء والغضب على وجوههم جميعاً. خرج من سيارته لمقابلتهما، فأمره وليد بصوتٍ مرتفع بالبقاء داخل السيارة. وبسرعة زج وليد بأحمد في سيارة سامح، وأمره بالإنطلاق فوراً.

وفي الطريق للمنزل طلب سامح من أحمد تفسيراً لما حدث.

– الناس اللي في الجامع سألت أنكل وليد عني، وقالهم إني ساكن معاكم، وبعد كده الناس إبتدت تزعق وكان في ناس عايزة تتخانق مع أنكل. وكان في واحد هيضريه، فخرجني بسرعة من الجامع.

توقع سامح رد فعلٍ كهذا، لكن توقعه هذا لم يُحصّنه من هول الصدمة. وربما كان ذلك سبب فشله في إيجاد ما يقول لأحمد تعقيباً على ما حدث.

كان الرعب هو سيد هذه اللحظة التي دامت لما يقرب الساعتين حتى وصل وليد لمنزل سامح. وسأله سامح عما جرى في المسجد، فقال:

- الناس متضايقة إن طفل مسلم مقيم عند عائلة مسيحية يا سيدي. كنت متوقع إيه؟ أنا قلت لك فكرة الجامع دي فكرة مش مضبوطة، خاصة أن الغالبية العظمي من اللي بيروحوا الجامع هنا يوم الجمعة بالذات فكرهم أصولي أكثر بكثير من اللي موجودين في مصر. قلت لك يا سامح إن الإسلام اللي موجود هنا مش زي اللي إنت عرفته في مصر ما صدقتنيش.

قاطعه سامح نائراً:

- ويا ترى حد فيهم عرض يستضيف أحمد بدل مني؟

- ده بالضبط اللي إتحدثتهم بيه بعد ما إنتوا مشيتوا، ولأ طبعاً ما فيش حد عرض كده.

أخذ سامح بالذهاب والإياب في غرفة المعيشة، وضرب كفاً بكفٍ وقال مستنكراً، غاضباً:

- يعني لا يرحموا ولا يسيبوا رحمة ربنا تنزل؟ حتى بعد ما عرفوا إن النصراني ده سايب شغله ومصالحه وعيلته وجايب الولد المسلم عشان يصلي الجمعة معاهم؟ طب إيه رأيك بقي إن موقفي قانوني مية في المية، وإن حَكِمْتُ هأكون بأودي أحمد الجامع بنفسه في حماية الشرطة.

- ملهوش لازمة يا سامح. المكابرة في الوقت الحالي مش في صالح أحمد.

وهنا تدخلت هناء، وقالت ممسكة بذراع سامح:

- وليد عنده حق زي ما إنت كمان عندك حق. كندا بلد القانون وأكيد هيكون في صفك، بس بلاش عند في الوقت الحالي. ده مش في مصلحة أحمد.

إستسلم سامح لرأيهما مؤقتاً، لكن لم يسعه إلا أن يتكهن بطبيعة رد فعل الكنيسة وشعبها حين يصطحب أحمد معه في اليوم التالي.

وبعد إنتهاء القداس صباح يوم السبت، رجعت أسرة آل/إسكاروس إلى المنزل دون أي احتكاك مع أحد. وظن سامح وهناء أن الأمور

ستكون أقل تعقيدًا مع الكنيسة وشعبها، خاصة أن وضعه كان خاصًا جدًا عند قساوسة تلك الكنيسة وعلى رأسهم القس فيلوباتير.

خاب ظنه ذاك المساء حين سمع طرفاً شرساً على باب منزله الضخم، وعند فتحه للباب وجد ثلاثة قساوسة طويلي اللحي، تلامس أهداب أثوابهم السوداء الأرض، وإثنين من الإداريين اللذين كانا يتمتعان بسمعة غير محبوبة لدى شعب الكنيسة.

دعاهم جميعًا للدخول، والجلوس في غرفة استقبال الضيوف على الجانب الأيمن من الباب الرئيسي للمنزل. وعلى غير عادته لم يعرض عليهم أي مشروب لزوم المضايقة. فكان قد إستنتج غرض هذه الزيارة غير المرغوب فيها، غير المرحب بها.

بدأ القس فيلوباتير في التحدث، وقال بتعالٍ:

—بلغنا إنك مستضيف ولد مسلم في بيتك.

كانت هناء في هذه الأثناء قد أصعدت الأطفال للطابق العلوي، وأمرتهم بالبقاء جميعًا في غرفة چاسون. وفي طريقها للانضمام لسامح، قالت بصوت سمعه الجميع من على الدرج العلوي للمسلم:

- ويا ترى مين اللي بلغك؟

قام الجميع لتحية مدام هناء، فكانت هي الأخرى تتمتع بمنزلة خاصة عند رجال الكنيسة، أو هكذا ظنت. فهي الأخرى كانت تقوم بالترع شهرياً للكنيسة بمبلغ ليس بالضئيل. إستطرد فيلوباتير بنفس النبرة المتعالية بعد أن إتخذ مكانه ثانية على المقعد قبل أهل البيت:

- مش مهم مين اللي بلغنا، بس واضح من رد مدام هناء إن الكلام صحيح. بس كده يبقى إحنا محتاجين تفسير.

هبت هناء للإجابة على القس، لكن سامح أمسك يدها في اللحظة المناسبة، وكأنه يطلب منها أن تترك له الأمر.

وبعد أن جلس باقي الحضور، وضع سامح رجله اليسرى على اليمنى في تحدٍ واضح، وقال محرّكاً يده اليمنى بعصبية:

- هات آخرك..

باغته أحد الإداريين صارخاً مهدداً:

- هو إيه؟ مافيش احترام لقدس أبونا؟ ده أسلوب ترد بيه عليه؟

- وهو إنت مش واخذ بالك إنك في بيتي؟ وعلى فكرة وجودك هنا غير مرغوب فيه. اطلع برة عشان كماله كلامي هتكون من غيرك.

ذهل الجميع من ثبات سامح الإنفعالي، وبعد طرد الأستاذ فايق، نظر سامح لباقي الحضور وقال محذرًا:

- أي نوع من أنواع عدم احترامي واحترام حرمة بيتي لن أتعامل معاه وهيكون ده رد فعلي. الكلام هيبقى ياذن، أتمنى يكون الكلام واضح ومفهوم.

ثم أعاد توجيه كلامه إلى القس فيلوباتير:

- معلش يا حضرة القسيس، أنا ماكنتش أعرف إن تصرفاتي محتاجة تفسير خاصة أنها إنسانية.

- ما قلناش حاجة، بس إنت مش شايف إن تواجد شخص مسلم في الكنيسة أمر شاذ؟

- أتمنى إنك تكون مستوعب اللي بتقوله يا حضرة القسيس، لإنك عايش في بلد المثليين فيها لهم حقوق، وحتى جوازهم أمر قانوني.

وبعدين بدل ما نقعد نتكلم عن أفعالي، أنا طلبت منك تجيب آخرك
وإنت مصمم إنك تاخذنا لمهاترات.

- الوضع ده يا سامح وضع غير مقبول لا مننا، ولا من أي حد ثاني.

هكذا قال القس سيرجيوس الجالس عن يسار فيلوباتير.

فنظر له سامح شذراً، وقال:

- أنا مش قلت الكلام هنا يكون باستئذان؟ وبعدين هي كده بانة.

بتوع الجامع جم قابلوكم، مش كده؟

لم يأت رد من أحد مما أكد تكهنات سامح، فأكمل:

- تمام كده أوي، يعني إحنا نهرب من تجار الدين في مصر، نلاقيهم

ورانا هنا مبرطعين.

بُكهن الأقباط المعتاد قاطعه فيلوباتير قائلاً:

- بلاش تظلم حد يا سامح يابني، وبعدين إنت أكيد مؤمن بسلطان

الحل والربط اللي ربنا إداه لنا.

لم تستطع هناء تمالك نفسها أكثر من ذلك، فإنفجرت في وجه القس فيلوباتير قائلة:

- بُعِبَ الحل والربط ده تروح تخوف بيه شعب الكنيسة اللي عندك، واللي مش فاهم. بس مش علينا عشان إحنا أصلاً لا نخضع ليك.

- طول ما إنتوا وعيالكم بتيجوا عندنا الكنيسة، يبقى لازم تخضعوا، وابن الطاعة تحل عليه البركة.

وجد سامح طريق الحوار مع القس فيلوباتير ومن معه مسدودا، وأيقن أنها نهاية علاقته بالكنيسة الأرثوذكسية بكندا، فوقف ووقف الجميع بعده، وقال في حزم:

- يبقى خالتي وخالتك، وإتفرقوا الخالات. مع السلامة يا حضرات.

ثم توجه بالحديث للقس فيلوباتير قبل مغادرته قائلاً:

- طبعاً مش محتاج أقول لك إن ده معناه خسارتك للشيك الشهري الدسم اللي كنا بنبعته أنا وهناء باسمك إنت شخصياً.

سارت في جسد سامح قشعريرة من أخصص قدميه، لظهره، ثم إلى
خلف رأسه حين نظر إليه فيلوباتير. شعر وكأن إبليس ذاته يحدق به
محاوًلاً إغتصاب نفسه، بل و أفكاره.

- إحنا نقدر نضحى بحاجات كثير، ومتأكد إن الشيك بتاعك مش
هياثر كثير علينا. الكنيسة بقت مليانة صيادلة يا دكتور.

على الرغم من توتره، وعدم قدرته على التعامل مع شذر نظرة القس
له، قال متظاهراً الثبات:

- بس واضح إنك ناسي إني مش زكية فلوس وبس، وإن كل
الصيادلة اللي عندك في كنيستك مايعرفوش واحد في المية من الناس
اللي أنا أعرفها. كلامي خلص. مع السلامة.

بعد مضي بضعة أسابيع، كان قد تمكن السيد شميت من إستخراج أوراق تحقيق شخصية رسمية لأحمد، مكّنت سامح من إلحاقه بنفس المدرسة الخاصة التي ألحق بها چاسون وكارولين. وفي يوم خريفى ممطر بارد، وصلت برقية رسمية باسم سامح، وكانت مسجلة بعلم الوصول. فقامت هناء بإستلامها، وبعد أن أخطرت سامح الجالس في مكتبه المنزلى، طلب منها أن تقوم بفتح البرقية لمعرفة فحواها. وما إن فعلت ذلك وقرأت ما بداخل البرقية، حتى نادى على سامح بصوتٍ مرتجف مرتعب طالبة حضوره فوراً. أسلمته البرقية بيدٍ ترتعش، وبعد إطلاعها على فحوى البرقية تغيرت ملامحه، وكانت علامات الإصرار و الغيظ تتطاير من عينيه. فسألته هناء مستفسرة مستنفرة:

- إيه معنى الكلام ده؟

- هأعرف لما أكلم آرون.

وبالفعل طلب سامح السيد شميت على هاتفه الخليوي وطلب منه الحضور لمنزله، ولّبي الأخير طلبه. وبعد ما يقرب من الساعة، مثل السيد شميت أمام سامح في مكتبه.

وفي صمتٍ له رهبته، أعطى سامح السيد شميت البرقية للإطلاع على ما فيها. وبعد قراءة تفاصيلها، أخذ يتحسس مكان المقعد خلفه، وأخذ يفكر عميقًا بعد أن جلس، لكنه لم ينطق بحرف.

إشتد غضب سامح، و قال منفعلًا:

- I hope you realize that your silence is not helping the situation Aaron.

كمن أفيق للتو من نومه، قال السيد شميت:

- I'm sorry Sam. I was just thinking about the legal ramifications of this note, but more importantly, I am shocked. I have to say I am appalled that this note was actually sent by someone who dares to call himself a lawyer, and a Canadian one. They should know better. I

mean this note is only shy from being a proof of a hate crime.

- Tell me something I don't know. My question to you is, how can we fight back?

- Fight back?! Not sure I follow Sam. this note will be dismissed by the court in the first hearing. I guarantee you that much.

- Aaron! Do I really need to tell you to focus, and stop telling me what I already know? What I mean is this: After the dismissal of this note, I want to file a lawsuit against the church. This is war, and it wasn't declared by me. It seems they just can't control their hatred of this young boy. The fact they actually dared to think they can remove Ahmed from this residence, and put him in the custody of social service is nothing short from being pure evil, and I will retaliate with everything I have.

إرتفع صوت سامح لدرجة الصياح، وقال:

- The people at the mosque didn't dare to do something like that, and once we showed up one Friday escorted by the police, that was that. Some of them actually came to thank me the other day for what I am doing for Ahmed.

إستوعب السيد شميت أخيراً ما يدور في مخيلة سامح، لكن
لأسباب قانونية، وجب عليه السؤال:

- So what do you want to do Sam?

إتخذ سامح مكانه على مقعد مكتبه، وبنظرة مليئة بالتحدي والإصرار
قال:

- I want you to carry an all out assault on the church, and make sure they will be charged with committing a hate crime.

وبشباتٍ حتى يؤكد للسيد شميت على إصراره، أكمل:

- I will not back down until this Philopater is either thrown in jail, or forced to leave the country.

لاحظ سامح السيد شميت يتصبب عرقاً، فسأله:

- I need to know where you stand Aaron, and now. It's either you're with me all the way, or I will find myself another attorney.

- Don't question my intentions again Sam. I am with you until the end, but I also have the responsibility as your attorney to ensure you understand the ramifications of doing something like that, especially that proving a hate crime in Canada is not an easy task. Nevermind that the process is a very lengthy one, it is very costly as well.

بخبت الثعالب إبستم سامح، مما أثار فضول السيد شميت. وبعد لحظات، أخرج سامح رسائل وخطابات مكتوبة باللغة العربية، وأخرى

بالإنجليزية. كانت كلها رسائل تهديد ووعيد، وسبابٍ بأقذع الألفاظ والنعوت، والبعض ذهب لحد التهديد بالقتل. لكن واحدة فقط كانت ذات قيمة لدى السيد شमित. تلك الرسالة المكتوبة بخط يد القس فيلوباتير على الترويسة الرسمية للكنيسة.

وهنا توقف سامح، وقال:

- You can have the Arabic ones translated, and present it to the court. As to the one with Philopater's handwriting, we can request an expert's confirmation that it is indeed his own.

وأخيرًا، فتح سامح خزانته السرية الموجودة بداخل إحدى حوائط مكتبه خلف لوحة فنية، وأخرج أسطوانة مدمجة، وقال محدثًا المحامي:

- On this CD, you will find three files, one has a voice mail from Philopater himself minutes after I kicked him out of here few months ago, clearly threatening me, and my family. The second one,

a clip captured by one of the security cameras I have installed in front of the house, showing a group of masked people vandalizing my property, and damaging my car, and more importantly, it shows Philopater himself standing in the background, clearly orchestrating the whole thing. The third file is another clip of him during his weekly mass speech, speaking about "love". We need the court to assign an expert to confirm his identity on the files.

- Game on! But one question though. Why didn't you present this to the authorities right after it happened?

- To give them enough rope to hang themselves with it.

- OK, no time to waste. Will start by filing a complaint to the police department, and

officially request to put you under protective surveillance. Off I go...

عند باب المنزل، توقف السيد شميت لتحية سامح، وسأله:

- I haven't seen anyone love a kid, who is not his own like you do... Should I initiate the process to legally adopt Ahmed?

قبل أن تتسني لسامح فرصة الرد عليه، جاء صوت هناء من خلفه:

- I think you know the answer to that question Aaron. However; we need to discuss this with Ahmed first, and ask him what he wants.

- Of course. And I also suggest that you talk to your kids about it. Enjoy the rest of your evening.

في صباح يوم ربيعي مشمس هادئ، إنتعش سامح لملمس أشعة الشمس الذهبية الدافئة المخترقة للزجاج الأمامي لسيارته دون إذن أو دعوة. لكنه رحب بها، خاصة بعد إمتداد لشتاء قارس البرودة. إستمتع بهذا الدفء الحميم على وجهه وهو في طريقه لمكتب السيد شميت. لكنه أولاً توقف عند إحدى محطات الوقود ليملاً خزان سيارته حيث كاد أن ينفذ. وبعد أن إنتهى من ملئه، ذهب داخل المحطة ليدفع دين الوقود، ثم إلتقط نسخة من الجريدة المحلية، وعلى صفحتها الرئيسية صورة للقس فيلوباتير في مطار تورونتو الدولي، وبالبنط العريض قرأ المانشيت:

"Canada, Land Of Law & Order"

بعد برهة من وصوله، إنتظر السيد شميت في الاستقبال والذي بدوره خرج مرحباً بسامح ودعاه ليلحق به في الداخل. وهناك، قال سامح وهو يمد يده بشيك فيه أتعاب السيد شميت المتفق عليها:

- Aaron, the past few months have been a roller coaster, and I know I've been a jerk to you sometimes, and for that I would like to apologize. Also, I want to thank you for sticking around. This cheque is not just your fees, rather a token of appreciation for all you've done.

أمسك السيد شميت بالشيك، وبإبتسامة عريضة على وجهه مزقّه إربًا
وقال:

- But Sam, I can't, and won't accept your money.

تحيرّ سامح مما سمع، وظن أن المبلغ الموجود في الشيك أقل مما
كان يتوقعه السيد شميت، فإستطرد الأخير قائلاً:

- Sam, I am a Jew, and Jews have for so long been rejected by pretty much everyone in the world. And to this day, prejudice is being practiced against us in so many different countries, and on so many different levels.

Seeing you fight for Ahmed, for his right to exist, and watching you protect him the way you did, and still do, made me feel...

توقف السيد شميت عن الحديث فجأة مصارعًا مشاعره التي بدت واضحة على وجهه، ثم غير نبرته في الحديث في محاولة لخداع سامح:

- Well, let's just say, I will not allow you to take all the credit. Besides, the church withdrew Philopater from Canada to save him from his imminent destiny, so nothing really happened that deserves me charging you anything.

كان الموقف في غنى عن أي مزايدة من سامح، وشعر بامتنان حقيقي للسيد شميت، وبخجل واضح في صوته قال:

- But Aaron, you've done a lot, and invested a lot of your time, and...

- And you did too. You, your wife, and your kids. And this is not the end of it. Don't forget the adoption process for example. So save your money for this one.

بعد فترة صمت دامت للحظات، قال سامح:

- I really don't know what to say except, thank you very much. At least, let us invite you, and your wife over for dinner. Hanaa makes the best brisket.

إبتسم السيد شميت مرحباً بدعوة سامح قائلاً:

- Only if it's kosher.

هل أنا على حق؟

هل أنا مُحقّ فيما فعلت؟

هل يستحق الأمر كل هذا العناء، وأن أنبذ من الجميع؟

لقد إستطعت بإقتدار كسب كراهية كل من ينتمي إلى الجالية المصرية في كندا، مسلمين كانوا أم مسيحيين.

هل تكفي ثقة وإفتخار أبي بي؟

كان من الممكن، بل من اليسير أن أحتفظ بمكانتي المرموقة في المجتمع، وأيضًا الاحتفاظ بهذا الكم الهائل من الأموال التي أنفقتُ طوال السنوات الثلاثة الماضية من أتعاب المحامي والمصاريف الإدارية للمحاكم.

هل حقًا يستحق الأمر؟؟؟

كانت كلها أفكار وأسئلة تدور بمخيلة سامح وهو واقف أمام الشواية لتحضير الطعام، متناسياً أصوات الأطفال الثلاث وهم يلهون في حمام السباحة الموجود بالحديقة الخلفية. شعرت چیچی ببعده عنهم، فإقترتبه منه في محاولة منها لاستدعائه من كوكب الأفكار المُعذبة لكوكب الأرض.

- هناء أجدع واحدة تبيل لحممة، وإنت بصراحة أجدع واحد يشوي.

قال سامح ضاحكاً:

- طب بس وطي صوتك لوليد يسمعك.

جاء صوت وليد مستلقياً على "الهاموك":

- سمعتها ومش هاممني. أنا عارف إني ماليش في الشوي. وبعدين

هأجيب وقت منين؟ ده إحنا بين كل سفريه والثانية سفريتین.

ماعنديش وقت للكلام ده.

وهنا إنضمت هناء لهم في الحديقة الخلفية حاملة سلطانية كبيرة

مليئة على فمها بسلاطة صحية شهية، وقالت:

- بصراحة، مافيش زي شوي عم جرجس، ولا الحاتي.

جاء تعقيب سامح غير متوقع:

- طبعًا ولا الحاتي، عشان كان بيحط لحمة حمير في خلطة الكفتة.

ضحك الجميع، وبعدها إستدعت هناء الأطفال الثلاث حتى ينضموا إليهم على المائدة. وأحنى سامح رأسه وأغمض عينيه وفرد ذراعيه ليمسك بيد هناء الجالسة على يمينه، وچاسون على يساره. وكُؤنت دائرة صغيرة بين الحضور معلنة إتحادهم، وقوة صداقتهم.

- يا الله إنت معونتنا في الضيق، والنور في الظلام. نشكرك على هذا الطعام، ونشكرك على هذا الاجتماع، وأطلب بركة من عندك لكل واحد واقف أمامك الآن. أذكر يا رب الضعفاء والأرامل والمحتاجين، وإدينا إننا نساعدهم قدر الإمكان.

باغت كل من أحمد وچاسون وكارولين الجميع بإجبار أبيهم على ختم الدعاء بصياحهم بأعلي صوت:

- آمين..

إنقضوا على الطعام كمن لم يذق القوت منذ بضعة أسابيع. وبعد أن فرغ الجميع من تناول طعامهم، طلبت هناء من الأطفال الإتجاة فوراً للإستحمام وتنظيف أنفسهم، وذهبت هي للقيام بمهام غسل و تنظيف الصحون.

طلب وليد من زوجته أن تُعد له ولسامح فنجانين من القهوة التركي، وما إن جلست بعد إحضارها القهوة، قاطعت الحديث الدائر بين سامح ووليد قائلة:

- أخبار ورق التنبني إيه يا سامح؟

- صدقيني مش عارف يا چيچي، العملية طولت قوي. بقالنا كده أكثر من ثلاث سنين ولسه المحكمة مش واخدة قرار.

أشعل وليد سيجارة ليذخنها أثناء إحتمائه للقهوة، وبنظرة إعجاب وجهها لسامح قال:

- المحكمة مش هتلاقي أحسن من هناء أم لأحمد، ولا أب أحسن منك ليه. وبصراحة أنا من فترة كبيرة بأعتبرك أبوه بالفعل.

- يا وليد إنت عارف أنا ما بأعرفش أتفاعل مع المجاملات دي.

نظرت چيچي لسامح قائلة:

- سامح، بغض النظر عن الحرب اللي خضتها مع اللي في الجامع والكنيسة، وبغض النظر برضه عن الفلوس اللي صرفتها، إنت وهنأ من يوم ما أحمد جه يعيش معاكم، وإنتوا ما بتجيبوش غير أكل حلال. ومش بس عشان أحمد، لأ ده إنتوا كلكم بتاكلوا نفس الأكل. وده عشان ما تحسسهبوش بانه غريب أو ضيف. بيتك أصبح خالي من الكحوليات، وإنت مش مطالب بإنك تعمل كده. في الصيف، كل يوم جمعة بتقعد من الشغل عشان تاخذ أحمد للجامع يصلي، وفي رمضان بيتك كله بيصوم مع أحمد. بتحفظه القرآن بنفسك، وبتجييله كتب تفاسير عشان يفهم. صممت إنك تخليه يكمل يتعلم عربي قراية وكتابة. كل ده وإنت أصلاً مش مسلم. يا سامح ده لو حد غيرك، الولد ده كان اتشرد من زمان، ويا عالم لو كان لسه هيبقى على قيد الحياة النهاردة. وليد عنده حق، المحكمة مش هتلاقي أحسن منك أب ليه، ولا من هنأ أم. وبعدين الأهم إن أحمد حاسس بده وهو اللي وافق على موضوع التبيي.

كان وقع ما قالته چيچي كالبلسم على روح سامح، فقال تعقيبًا على ذلك:

- أهم حاجة عندي إن چاسون وكارولين بيعبوا أحمد وبالنسبة لهم هو فعلاً أخوهم الكبير. وأحمد كمان ولد محترم وطيب وبيحامي عن إخواته. فإكر السنة اللي فاتت جم من المدرسة وعين أحمد كانت واردة شوية، فهناك إتسرعت وإفكرت إنه إتخانق في المدرسة.

تداخلت هناء في الحديث بعد أن إنتهت من غسل وتنظيف الصحون، وأكملت القصة قائلة:

- بس چاسون جالي وقالي إن عيال أكبر منه في المدرسة كانوا بيرزوا عليه، ولما أحمد شافهم راح جري عليهم ورنهم العلقمة المتينة. وطبعًا ناله من الحب جانب، بس زي الأسد قال للمدرسة كلها إن چاسون وكارولين إخواته وأي حد هيقرب لهم هيحصل فيه زي ما عمل في العيال دول.

وبذكاء بنات حواء، غيرت چيچي دفة الحوار عندما سألت:

- إن شاء الله كله هيبقى تمام. المهم، طنط ليليان جاية إمتي؟ عشان أنا وحشني ورق العنب من إيديها.

- كمان أسبوع إن شاء الله.

- وأخبار مصر إيه؟

ظنت هناء أن چيچي تستفسر عن أخبار البحث عن ذوي أحمد، فقالت متتهدة:

- مافيش أي أخبار، من يوم ما سامح حكى لأنكل جرجس وطلب منه يدور عليهم بمساعدة عليّ صاحب سامح، وهما عملوا المستحيل، ومش عارفين يوصلوا لأي حاجة. التفاصيل اللي أحمد إداها لنا مش كافية إطلاقاً. علي بصراحة تعب أوي وعمل المستحيل، بس للأسف.

لم يكن هذا ما قصدته الصديقة الوفية، بل كانت تود أن تسأل عن ليليان، لكنها عقبت علي ما قالته هناء علي أية حال:

– أنا بيتهياًلي إنكم تنسوا المرحلة دي خلاص، وتركزوا في موضوع التبني ده. الولد عايش معاكم بقاله تقريباً أربع سنين، وأصبح واحد منكم.

كان وليد على وشك إشعال سيجارته الرابعة حين سأل سامح:

– ناويين تنزلوا مصر قريب؟

تمكن سامح من إخفاء حقيقة مشاعره تجاه هذا السؤال، وقال متحاشياً النظر مباشرة لوليد:

– كله بترتيب ربنا. نخلص بس ورق التبني الأول.

قالت هناء وكأنها تتحدث لنفسها:

– أنا أكثر حاجة مخوفاني من موضوع نزول مصر ده، هو أحمد ورد فعله هيبقى عامل إزاي لما نيحي نازلين فعلاً.

أمسك سامح بيدها وقال:

– كله بأوانه.

وما إن أمسكت هناء بيده، وبدأ قلبه بالخفقان بسرعة مضطربة،
وفي قلق شدّ على يدها، لكن لم يرغب في أن يظهر قلقه أمام
الأصدقاء. وبعد رحيلهم، سألتها:

- مالك؟ إيديكي باردة أوي كده ليه؟ أول مرة تحصل، ده حتى في
عز الشتا وبرد كندا وإيديكي دائماً دافية.

- مش عارفة. حسيت برعشة وأنا بأغسل المواعين. ما تقلقش
حبيبي، ممكن داخلة على دور برد.

منذ قرابة الأربع سنوات، وبعد أن عرفت ليليان بقصة أحمد وهي في
حيرة من أمرها، وكانت ممزقة بين إعجابها بما تفعله إبتها وزوجها،
وبين تقبّل وجود طفل غريب سيتحول لشاب مراهق يوماً ما، وأن هذا
الشاب يعيش تحت سقف بيت واحد مع حفيدتها.

تذكرت ما قالته يوماً لألفونس حين كان يختلس النظرات للإطمئنان على سامح وهناء. لكن في نفس الوقت لم ترد أن تكذب على نفسها. فهي تفرح حين تسمع لقب "تيته" قادمًا من حفيديها أكثر من سماعها لنفس اللقب من أحمد. وعلى الرغم من ذلك، واحترامًا لابنتها وزوجها، كانت في كل زيارة لها لكندا تحضر هدايا متساوية القيمة لكل من الأطفال الثلاث حتى لا تزرع بذور التفرقة بينهم.

في صيف تلك السنة، كان الأمر مختلفًا بعض الشيء. فأحمد كان الوحيد الذي يتحدث العربية بطلاقة ودون لكنة أجنبية، ولسبب ما قرّبه ذلك وأعلى من شأنه لدى ليليان.

وعند وصولها لأرض مطار تورونتو في هذا الأسبوع، كان سامح وأحمد فقط في إنتظارها. كانت تلك هي المرّة الأولى التي لم تحضر هناء لاستقبال أمها شخصيًا في المطار. وركض أحمد نحوها فور رؤيته لها، فاتحًا ذراعيه صارخًا:

– تيته!!

قبلته ليليان، وبالرغم من إعيائها بسبب طول الرحلة ظلت ممسكة بيده ولم تتركها.

- إزيك يا سامح؟ أمال فين هناع؟

- هناع تعبانة شوية . غالبًا برد . حمدالله بسلامتك .

-الله يسلمك . طيب إيه؟ راحت لدكتور؟

- ما إنتي عارفة بنتك . بتكره الدكاترة عمى ، بالرغم من إنهم اللي بييشغلونا .

- طيب أنا لما أوصل البيت هاسلق لها فرخة وأعملها شوربة خضار ترم عضمها .

إنفرت أساير أحمد حين سمع ما ستقوم به الجدة، وسألها مترجياً:

- ممكن يا تيته تعملي لنا إحنا كمان شوربة وفراخ محمرة؟ عشان إحنا بنحب الفراخ اللي إنتي بتعملها أوي .

دون تفكير، جاء رد ليليان مرحبًا بطلب الشاب الصغير .

عند وصول ليليان للمنزل، صعدت للطابق العلوي حيث كانت هناء
ماكثة في فراشها من شدة الإعياء. وبعد الأحضان والقبلات الحارة،
سألته ليليان باهتمام:

- في إبه يا هناء؟ شكل اللي عندك ده مش مجرد برد.

عشاً حاولت هناء النهوض من الفراش، فإكتفت بالجلوس عليه،
وقبل أن يتسني لها فرصة لتطمئن أمها، قفز كل من چاسون وكارولين
على الجدة. طرحوها على الفراش، وضجت الغرفة بالترحيب بالجدة
الودودة. وتأكدت ليليان أن أي محاولة منها لرد الصغيرين ستبوء
بالفشل، وعليه قررت فتح شنت السفر وإعطاء كل منهم هديته، ثم
طلبت منهم الانصراف. كالأخ الأكبر، تحكم أحمد في زمام الأمور
وإستطاع الدفع بإخوته خارج الغرفة.

نظرت ليليان إلى هناء مجددًا منتظرة إجابة لسؤالها، فقالت بنبرة

قلقة:

- لسه مش عارفين. سامح أخذني ورحنا أعمل شوية تحاليل وأشعات، ومش شايفين غير أنيميا وزيادة في عدد كرات الدم البيضاء. بأخذ فيتامينات وحديد، وبأحاول أكل كويس.

أخذت دقات قلب ليليان في التسارع، وشعرت أنها تفقد إتزانها، لكنها نجحت في التحكم في إنفعالها حتى لا تشعر إبتها بقلقها المشروع.

- طيب كويس إني جيت عشان آخذ بالي منك، وأكد سامح هيكون محتاج مساعدة. بصراحة، هو كمان شكله مش عاجبني. شكله عجّز وكبر.

- سامح شايل كتير أوي يا ماما، وبصراحة واحد غيره كان قال وأنا مالي، ده مش ابني وكان يسيب الحكومة هي اللي تتولي أمره.

- ويا ترى في أخبار عن ورق تبني أحمد؟

- لأ مافيش لسه أي أخبار. أدينا مستنيين.

همّت هناء بترك الفراش، فلم تُغرم قط بالبقاء فيه لفترات طويلة،
وطلبت من أمها مساعدتها حتى هبطوا إلى الطابق الرئيسي. وإنضمّا
إلى سامح الذي كان يحضر الشاي للكبار، ومشروب الشيكولاتة
الساخن المحبب للأولاد .

عند وصول كل من الأم والجدّة، إهتز تليفون سامح الخلوي معلناً
عن إتصال قادم من السيد شميت. وكانت تلك هي المرّة الأولى فيها
يتصل السيد شميت بأحد يوم السبت.

– Shabbat shalom Aaron. How are you?

– Gut Shabbos Sam, and I am good. Listen, will
keep it short as I am not supposed to do this on a
Saturday, but I think God will understand. I
have good news, we will finally see a judge in
about ten days, and the news I heard are very
favourable. That's why I thought of sharing this
with you as soon as I heard it. You guys have
been waiting for a long time. Will let you go
now. Be well.

لم يستطع سامح تمالك نفسه، والدمع كان سيد عينيه ولم يعلم أحد السبب، لكنهم توقعوا أسوأ الأخبار. فنادى على أحمد بصوتٍ مسموع، ثم طلب من چاسون وكارولين الجلوس ثم توجه بنظره إليهما، وسألهما بعد أن جفف دموع فرحته:

- How much do you love Ahmed?

بادر چاسون بالإجابة وقال:

- I love him as much as I love The Leafs, and that's a lot.

كان چاسون بالفعل مغرم بفريق الهوكي، وكان صادقاً فعلاً في تشبيهه، لكن التوقيت خانته.

انتظر سامح سماع إجابة كارولين، غير عابئ بفضول زوجته وحماته الذي كاد أن يقتلهما.

- I love him as much as anyone could possibly love a brother.

- OK, great... So prepare yourselves that in less than two weeks, Ahmed will officially be your brother.

كان رد الفعل الطبيعي والمتوقع أن ينطلق أحمد ليرتمي في حضن أبيه أو أمه، أو حتى أخوته، لكن لسبب ما ذهب ليحضن الجدة، ليليان. وكأنه يعرف ما يدور بمخيلتها، وبارتمائه في حضنها في تلك اللحظة الهامة، كان وكأنه يصرخ راغبًا في تدمير آخر حاجز بين ليليان وبين إكمال حبها له. لم يعرف كيف يصف ويؤكد لها على حبه غير المنتقص لأهل هذا البيت، فهم حقًا أهله. هذا أبوه، وتلك أمه، والآخر أخوه حقًا، والأخيرة أخته. وهو على أتم الاستعداد أن يضع نفسه دون تردد لينقذ حياة أحد منهم إذا تطلب الأمر ذلك.

لم تعرف ليليان كيف تتفاعل مع هذا الموقف المباغت، ولكن خوفًا على مشاعر الشاب الصغير، ضمته إلى صدرها بقوة. وما إن فعلت، تذكرت أنها هي أيضًا قد تبنت وربت من هو ليس من دمها.

إمتزجت الضحكات بالدموع الفرحة، وتعالق القهقهات. وفجأة
إندفع سامح ناحية هناء للإمساك بها قبل أن ترتطم رأسها بأرض
المطبخ، وراعه منظر الدم يسيل من أنفها.

صاح مطالبًا أحمد أن يطلب الإسعاف، لكن چاسون كان قد سبقه
وأحضر الهاتف وكان على وشك أن يطلب الطوارئ. لكن هناء طلبت
منه وضع الهاتف مكانه، وبصعوبة بالغة أجبرت نفسها على النهوض،
وبابتسامة كاذبة نظرت إلى كارولين وقالت:

- Don't be afraid pumpkin, mommy's OK.

لم يترك سامح يد هناء، و إندفعت كارولين ناحية الأم، فأمسك بها
الأب حتى لا تنهكها.

- But mom, you're bleeding from your nose.

- I am just happy to hear the news we got. I am
tired though, and will have daddy take me back
to bed.

كان سامح على يقين أن هناك سببًا قويًا لرفضِ هناء لاستدعاء الإسعاف، لكنه إنتظر حتى تشرح له بنفسها، فلم يرغب أن يزيد من إعيائها بسؤالها.

وضعها سامح على الفراش، ونظرت إليه هناء معاتبة كأنها تلومه على عدم فهمه لنظراته كما هي عادته معها. لكنها شرعت في شرح الأسباب لزوجها راثية لأمره:

- من هنا لحد ما نشوف القاضي، مافيش دكاترة ولا مستشفيات. لازم القاضي يشوفني في أحسن حال عشان ما يحكمش إني غير لائقة، وموضوع التبيي كله يبوظ بعد السنين دي كلها.

كاد سامح أن يعترض على منطقتها، لكن يدها المرفوعة قاطعت تلك المبادرة:

- سامح، زي ما إنت شايف أنا مافياش حيل للمناهدة. هي كلها أسبوع وبعد كدة نشوف إيه اللي هيحصل.

مرّ الأسبوع على منزل الدكتور سامح جرجس إسكاروس كأنه الدهر. فكان جميع سكان هذا المنزل على غير العادة في صمت مخيف،

والكل يتحرك بخفة ورشاقة القبط المفتعلة خوفاً من أن تزعج
تحركاتهم الأم المستلقية في فراشها طوال الوقت.

وفي الصمت يعلو صراخ الأفكار، خاصة السامة منها.

ماذا لو لم تتحسن صحة هناء قبل ميعاد جلسة المحكمة؟ ماذا لو
تطلب الأمر استدعاء كرسي متحرك لها؟ ماذا لو بدأت تنزف من أنفها
أمام القاضي؟ هل سيظن القاضي أنني أنا المتسبب؟ ماذا لو كان
مرضها خطيراً؟

توتر ليليان كان الأسوأ، فلم تكن كالحموات اللائي يحمن حول
رؤوس أزواج بناتهن مطالبات بأن يفعلوا كذا وكذا. وبالرغم من ذلك،
كانت نظراتها كافية بأن تخترق جلد سامح، وأن تصل لنخاع نفسه
معتصرة أفكاره. ليهرب من تلك النظرات، كان يحاول أن يشغل كل
وقته إما في خدمة شريكة حياته وحبه الوحيد، وإما باللعب مع أطفاله
حتى ينسيهم مشقة الانتظار، أو منهمكاً في مباشرة أعماله ومصالحه.

ذات يوم، رأى سامح چاسون جالساً وحيداً في غرفته، على غير
عادته. فاقترب منه وجلس بجانبه على الأرض بجانب فراشه بمنتصف

الغرفة الواسعة. أخذ يتصفح مكتبته الصغيرة، ومجموعة الكتب التي يمتلكها، وكيف تطورت من مجالات كوميدية، إلى روايات بوليسية، ثم إلى أعمال كبيرة لشيكسبير ومارك توان. لاحظ كتابا قد إبتاعه من وزارة المواصلات بمقاطعة أوناريو ليهيئ نفسه لإجتياز إختبار القيادة. كان چاسون دون السن القانوني لذلك، لكنه لم يمانع. باغته منظر إنعكس الضوء على أسطوانة كلاسيكية موضوعة على مكتبه، واستغرب ماذا تفعل هذه الأسطوانة هنا، وما إذا كانت ملكا لإبنه. تذكر أسطوانات أبيه وكيف كان مغرما بجميعها. أخذه المنظر إلى ذكريات مراهقته وشبابه، وتحسر على أيام مضت بعيداً عن صديق عمره. سأله:

- Jason, you know I love you, right?

إبتسم چاسون إبتسامة باهته، لكنها كانت كافية لأن يكمل سامح روتينه المعتاد بعد أن يسأل أحد أبنائه هذا السؤال.

- And do you know how much I love you?

- No, how much?

- Exactly as much as I love Caroline, and as much as I love Ahmed. No more, and no less.

باغته چاسون بنظرة لم يفهم معناها، وسأله بحنق:

- And do you love mom as much?

ظنّه يمزح، فردّ بنوع من الاستعراض:

- Actually, I love your mom more than all of you, and....

إنتفض چاسون دون سابق إنذار، ويحنق صرخ في وجه أبيه لأول مرّة

في عمره:

- Liar! If you do love her, you would've taken her to see a doctor, but you want her to die.

حضرت ليليان مسرعة لغرفة چاسون حيث كان الصراخ، ونظرت إلى

سامح منتظرة منه أن يحتوي الموقف وأن يحتوي غضب وإستياء ابنه،

لكنه فشل في ذلك. فكيف يشرح له أنها رغبة أمه، وأنها قررت عدم

إستشارة أي طبيب حتى لا يقامروا بتعب سنين مضت، وكل ذلك حتى لا يقامروا بمستقبل حياة أحمد .

فضّل الصمت وتحمل الظلم، وظن أن الأيام ستنسيه هذا الوقت العصيب. لكن صدمته في إتهامات ابنه له إستمرت، وكلماته ظلت ترن في أذنيه لسنوات آتية.

أخذت ليليان حفيدها لغرفتها محاولة تهدئته، وشرحت له الموقف قدر ما استطاعت، ووعدته بأن أمه ستكون على ما يرام، وأنها بعد جلسة المحكمة ستذهب لتحري الأمور مع أحد الأطباء. سمعت أذنا جاسون ما قالته الجدة، لكنه لم يعبأ به، فكان تفكيره لا يزال في مكانٍ آخر. مكان يحاول فيه إلقاء اللوم على أحد. فهذا هو حال أرض الخوف.

وفي صباح اليوم المحتوم، إستيقظ الجميع على منظر لا يقل عن كونه معجزة مكتملة الأركان.

فها هي هناء، سيدة المنزل وحببية ربّه، في كامل قوتها ونضارتها وعنفوانها. ففي صباح هذا اليوم كانت قد إستردت قواها، وعاد

صوتها لها، كما عادت شهيتها كما كانت من قبل. وبعد أن حضرت وجبة الإفطار للجميع، قالت للجمع الشاخص غير المؤمن بما يرى:

- لازم كلكم تفهموا حاجة مهمة جدًا.

نظر كل من چاسون وكارولين لها كي تتحدث بالإنجليزية:

- **You all need to understand, and believe in on thing: God is in control, all the time.**

إنها حقًا هناء. فهي النور المضيء لهذه الأسرة، وما إن نطقت بتلك الكلمات، حتى إنشرح صدر الجميع وعلى رأسهم سامح الذي صار كالنبته اليابسة المتروكة دون ماء خلال الأيام القليلة الماضية. وتمتم إلى نفسه "يا رب يخليكي ليّ يا أغلي الناس."

في الطريق لمبنى المحكمة طلب أحمد من والده أن يستمع لأسطوانة مدمجة بها بعض الأغاني التي كان قد حملها مسبقًا من على الإنترنت. وكانت أولى تلك الأغاني تحمل عنوان "بحبك وحشتيني" وما إن بدأ المطرب في الغناء، وإنهار سامح في بكاء مريب

أذهل الجميع وخاصة ليليان. فلم تتخيل مدى إشتياقه لبلده الأم حتى تلك اللحظة.

أمسكت هناء بيده، وفهمت ما كان يدو بمخيلته، فدمعت لكنها تماسكت حتى وصلوا إلى المحكمة. ثم طلبت من الجميع الإنتظار داخل المبنى، ونظرت إلى زوجها الذي باغتها قائلاً:

- إنتي بلدي يا هناء، ومش عارف هأعمل ايه لو إنتي مش معايا. مصر وحشتني أوي.. أوي.. وإنتي بالنسبة لي مصر. ولو إنتي مش معايا، يبقى الموت أحسن لي وأرحم.

إنهمرت الدموع من عينيها الواسعتين، وقالت:

- أنا عارفة ومتأكدة من كل كلمة إنت قلتها. لكن إنت عارف كويس إن هيجي اليوم اللي هأروّح فيه. اليوم ده قَرَب أو بَعْد مش ده المهم، الأكد أنه هيجي. ولو اليوم ده هيجي قريب يبقى لازم توعدني إنك تقوي عزيمتك عشان العيال. وبعدين مش وقته الكلام ده. إمسح دموعك وغير مودك عشان القاضي ما يحسش بأي حاجة.

كانت دائماً لها أسلوبها الساحر في الوصول لأعمق المناطق داخل
سامح، ولم يسعه غير طاعتها.

- أحمد، إلحقني يا أحمد.

هرول الفتى ناحية الصوت الصارخ القادم من غرفة أبيه وأمه، ووجد
هنا ملقاة على الأرض غارقة في بحر من الدم المنهمر من أنفها. ومن
هول المنظر سُمّر في مكانه ولم يسمع لأمر ليليان في طلب
الإسعاف. لكنها صرخت ثانية، وعلى الفور طلب الطوارئ وما إن رد
الطرف الآخر قال مغالبًا دموعه:

- It's an emergency, need an ambulance for my
mom... we found her on the floor, and seems
she's bleeding through her nose... where's a lot
of blood on the floor... and on the bed too...

جاء صوت المتحدث على الناحية الأخرى واثق، وفي منتهى التركيز:

- OK, will dispatch an ambulance to you right away, but stay with me on the phone. What's your name, and how old are you?

- My name is Ahmed, and I am 14.

- Are you alone with your mom in the house Ahmed?

- No, I have my grandma who's with me in mom's bedroom, and with my sister too. My dad's at work.

وهنا قاطع أحمد حديثه مع الشرطي، وصاح لكاورلين:

- Carol, call dad and tell him to come home right away.

ثم واصل الشرطي أسئلته:

- Ok son, I want you to get near to you mom as I need to ask you few questions.

- Ok, I'm close to her now...

ربت على كتف ليليان محاولاً التهدئة من روعها حتى يتسني له
سماع أسئلة الشرطي:

- Is your mom unconscious? Can you see if she's breathing?

- She's unconscious... but still breathing... and there's a lot of blood on the floor.

لم يستطع أحمد تمالك نفسه وإنفجر في العويل، وحاول الشرطي
تهدئته قائلاً:

- Ahmed, I need you to try and calm down, and help me with this so I can help your mom until the ambulance arrives. Is your mom still bleeding from her nose? Or did it stop?

- No... no more blood coming out, but it seems she bled a lot cause there is blood all over her chest and on her bed, and on the floor too.

- Now try and turn her on her side.
- Ok...
- What's your mom's blood type?
- O+... Oh wait, I think the ambulance is here.
Yes they are, as well as the firefighters.
- Go open the door for them, and I will remain on the line until they're in.

في تلك الأثناء كانت كارولين قد تمكنت من الوصول لأبيها وأخبرته بتلك المصيبة، فطلب منها أن تسأل رجال الإسعاف إلى أي مستشفى سيتم نقل هناء. فكان من المنطقي أن يلحق بها في المستشفى بدل أن يحاول الرجوع إلى البيت.

ثم طلب من كارولين تمرير الهاتف للجدة، وقال لها:

- ماما، استتينا في البيت مع العيال، وأنا هأروح المستشفى على طول. ومش هينفع إنك تيجي عشان العيال هيقولوا وإحنا كمان لازم نروح المستشفى، وأنا مش عايزهم يشوفوا هناء كده.

لم يتوقع سامح أن تخضع له ليليان لكنها سمعت لطلبه. وفي نفس الوقت، كان أحمد يحاول الوصول إلى چاسون، لكن هيهات. فكان هاتفه المحمول مغلقاً.

لحق سامح بهناء في المستشفى وكانت مازالت فاقدة للوعي، فقبل يدها قبل أن ينقلوها لغرفة إستقبال الحالات الحرجة. وبعد أكثر من ثلاث ساعات كانت بمثابة الجحيم له، خرجت إحدى الطبيبات من الداخل باحثة عنه، وعند رؤيته لها أيقن أنها ليست بالأخبار السارة.

- Mr. Iskaros, I'm afraid I don't have very encouraging news. We suspect your wife has leukaemia, however; we can only confirm after few more tests. She has lost quite a bit of blood, and we've given her blood transfusion. She's stable now, still unconscious though. Will keep her with us in the ICU for few days.

ظن سامح أن روحه قد فارقت جسده، ولم يعلم ماذا يقول أو عن
ماذا يستفسر. فمجرد التلميح أن هناء قد تغادر هذه الحياة كان قد
شلّ تفكيره.

أشفقت الطيبة على سامح حين رأت هول الصدمة على وجهه،
وقالت:

**- Sam. You can go see her in the ICU, but try
not to wake her up.**

في طريقه إلى قسم العناية المركزة، خارت قواه ووقع على الأرض
باكيًا كطفلٍ فقد أمه. لم تعنه نظرات الناس له، بل لم يشعر بوجود
أحد حوله على الإطلاق. وكان كل ما يسيطر على فكره:

هناء.. حبيبة قلبي تتألم

هناء.. صديقتي الحميمة والوحيدة، ستركني

هناء.. نور عينيّ في هذا العالم، ستفارقه

هناء.. هنائي في هذه الحياة ستعبر

آه.. آه يا هناء.. آه يا حبيبتى، يا جميلتى، يا صغيرتى.

يا ليتنى أفديك بنفسى، وبعمرى.

وفيما هو ملقى على الأرض، شعر بيد وليد تلتف حوله. أجهش في البكاء، فضمه وليد أكثر قريباً لصدره. لم تسطع جيچي تمالك مشاعرها، فمنظر سامح كان أعظم منها، وبعد لحظات سألته بشغف مستفسرة:

– هناء مالها يا سامح؟

أشار وليد بيده طالباً من زوجته إلتزام الصمت، فكان على دراية أن بكاء رجل في قوة سامح تعني أنه يواجه ما هو فوق طاقته، ويجب إعطاؤه بعض الوقت حتى يسترد قواه.

تمالك سامح نفسه بعد مرور بضع دقائق، ووقف مرّة ثانية على أرجله وقال مغمضاً عينيه:

– سرطان.. لوكيميا.

قرعت چيچي على صدرها من هول المفاجأة، وكادت أن تولول لولا أن لحقها وليد ماسكًا إياها حتى لا تتسبب في طردهم من المستشفى.

صمت الجميع لفترة لم يعرف مداها أحد، تخللتها دموع سامح، حتى قرر أن يتماسك. طلب من الأصدقاء الذهاب لبيته لطمأنة من هناك، وبالطبع طلب ألا يبلغوا أحدا عن تشخيص حالة هناء.

ذهب لقسم العناية المركزة، ويدين مرتعشتين طلب من إحدى الممرضات أن تدله على حجرة زوجته، وفتح باب الغرفة بكل رفق حتى لا يحدث أي صوت قد يوقظ حبيبته.

نظر إليها ورآها مسكينة، ضعيفة، جميلة. فابتسم للوجه الملائكي النائم، وفي محاولة لإرجاع دموعه، أمسك بمؤخرة الفراش الطبي الذي توسط الغرفة، وفي كلمات نبس بها دون إصدار صوت قال:

- بحبك.. من كل قلبي، ومن كل فكري، ومن كل قدرتي.

للتو فتحت هناء عينيها، وفي صراع حاولت إفاقة نفسها. وبعدها بثوان، هرولت الممرضة لداخل غرفة هناء، ودون أن تتحدث لأحد

أخذت تفحصها، وتفحص شاشات الأجهزة المرتبطة بها. وبعد بضعة دقائق إبتسمت الممرضة في وجه هناء، وقالت:

- Welcome back. Please rest, and try not to speak.

ثم نظرت لسامح وقالت:

- You can stay, but not for long, and please try not to make her talk.

حبيبان كسامح وهناء لم يكونا في حاجة لأن يتحدثا حتى يتواصلا مع بعضهما البعض. فكان يكفي أن يمسك بيدها حتى يفهم ما تريد قوله، وحتى تسمع هي ما يريد البوح به.

إبتسمت هناء، وربتت بأنامل أصابعها على يد سامح، وفهم أن الوقت قد حان ليتركها تستريح وأن يرجع هو لمنزله.

مال ولثم يدها في حنان، وهمس في أذنها:

- هاكون عندك بكرة الصبح. تصبحين على خيرٍ يا مليكتي.

في طريق العودة للمنزل، كان سامح في صراع داخلي عما يجب أن يفعل، ويقول، خاصة لحماته.

فهل يكذب بخصوص تشخيص حالة هناء؟

ولكن إذا كذب، بماذا يفسر تركها في المستشفى، وفي قسم العناية المركزة تحديداً؟

وإلى متى يستطيع الاستمرار في الكذب؟

في النهاية قرر أن يصارح أسرته بحقيقة الموقف. فيجب على الجميع التماسك في مثل هذه الحالة، ولا مفر من الحقيقة إن آجلاً أم عاجلاً.

عند دخول سامح لمنزله، سمع صوت شجار بين أحمد وچاسون.

- You don't tell me what to do. You're not my father...

كان چاسون المتحدث، وكان موجهاً حديثه الغاضب تجاه أحمد.
رغب سامح في تبكيته، لكنه لم يفعل. فالأخبار التي يحملها كافية أن
تفعل ذلك ويزيد.

ركضت كارولين نحو أبيها، ولحظة أن شعر بها في حضنه كاد أن
ينهار في البكاء مجددًا، لكنه تمالك نفسه كما وعد هناء مسبقًا.

دون لحظة تأخير، جمع أهل بيته، وقال:

- I have bad news...

نظرت هناء من خلال نافذة الفندق الفخيم المطل على بحيرة روسو بمنطقة مسكوكا، وتنهدت بصوت دل على مدى حبها للمكان والمنظر الخلّاب. واقع مصغر من جنة الله، غابات وأشجار متنوعة لا نهائية على مرمى البصر. منها أشجار الصنوبر الأبيض والأحمر، والشوكران والأرز. كما امتلأت تلك البقعة الساحرة بمخلوقات مالك يوم الدين، منها الودود كالسناجب والغزلان ذات الذيل الأبيض، ومنها غير الودي كالدب الأسود، والثعالب الصغيرة.

خرجت إلى شرفة الغرفة تستحضر رحلة الصيد مع زوجها العزيز، وكيف أنها كادت تقع من القارب الصغير في عرض البحيرة عند إمساكها لسمكة السلمون المقرمط الضخمة تلك. سال لعبها حين تخيلت كيف سيحضرها لهما الطاه بالفندق ذاك المساء.

أحضر لها سامح قدحا من القهوة، ولفّ يديه حول خصرها وقال:

- عاجبك المكان حبيبي؟

وضعت هناء قهوتها جانباً، ثم إلتفت إليه قائلة:

-أوي.. المكان رائع الجمال. الأوتيل فخم جداً، والخدمة فوق الممتازة، والمنظر خيالي. والأهم من كل ده إن الصُحبة ممتازة.

إبتسم سامح وقبّل جبينها.

- كندا في الخريف رائعة الجمال، مافيش مكان على الأرض بالروعة دي، والمكان هنا ساحر ومريح للعين والأعصاب.

توقف عن الحديث برهة لاحتساء جرعة من القهوة الساخنة، ثم إستطرد قائلاً:

- أوعدك لما ربنا يفتحها علينا، نشترى شاليه هنا. نيحي نصيف فيه، والعيال يلعبوا ويعوموا في البحيرة.

تحسست هناء بطنها بحنان، ثم إستلقت على مقعد مجاور للنافذة بعد أن رجعا للداخل. فكانت في أشهر حملها الأخيرة، ولم يكن بوسعها الوقوف لفترات طويلة. ثم نظرت لزوجها وسألته بنبرة حائرة:

- تفتكر هيكون ولد ولا بنت؟

شعر سامح بحيرتها، فأحب أن يخفف من توترها، فأخذ يدها
ووضعها في يده وقال:

- هيطلع براسين. رأس ولد وراس بنت. وهيكون بديل كمان.

ضحكت هناء بعلو صوتها، وآلمها ذلك بسبب ضغط الجنين على
أحشائها.

- بس ما تخلينيش أضحك عشان بطني بتوجعني.

- مش مهم عندي يكون ولد أو بنت، المهم إنه يكون بصحة
كويسة، وانتي تقومي بالسلامة.

- طيب ولو بنت هنسميها ايه ولو ولد؟

- تاني؟؟ ما أنا قلت لك لو ولد هنسميه چاسون، ولو بنت نسميها
كارولين.

إعتدلت هناء في مقعدها، وبعد إحتساء الجرعة الأخيرة من قهوتها،
سألته:

- وتطلع مين بقي ست كارولين دي اللي هتسمي البنت على
إسمها؟

قهقه سامح بصوت يسمع من آخر الردهة، وقال:

- كنت متأكد إنك هتسألني السؤال ده. كارولين دي يا ستي كانت
البوي فرند بتاعي وأنا صغير. وأبوها اسمه صلاح وأخوها اسمه عويس
وأمها اسمها سيدة. ما إنت عارفاهم، كانوا جيرانا في شيرا زمان. بس
بابور الجاز ولع في أمها بقي وأخوها دخل بهم، ومن ساعتها
سميناها "بنت المحروقة" في الحنة.

ضحكت هناء بهستيريا، وقالت مترجية:

- بس.. أسكت ما تضحكنيش.. مش قادرة.

- طب خلاص خلاص، هاسكت.. إنتي هتولدي ولا إيه؟ خلي بالك
إن أقرب مستشفى من هنا على بعد ٧٥ كم. إهدي كده وإمسكي
نفسك.

- ما تقول لنفسك. إنت اللي بتضحكني.

- ما إنتِ اللي بتسألني أسئلة عجيبية. قال مين كارولين قال. بس
اللي أنا مستغرب له إنك ما إعترضتيش على اسم چاسون، وما
صممتيش على اسم السيد الوالد، حمايا العزيز ألفونس.

شعرت هناء بنبرة سخرية في كلام سامح، فقالت:

-هاهاها.. ظريف قوي حضرتك.

- لا بجدة، اسم چاسون اسم جميل بس أكيد في سبب خلاكي
توافقي على طول.

تركت هناء مقعدها، ونظرت شاردة الذهن لخط إلتقاء السماء بمياه
البحيرة، متأملة سرىا من البجع الكندي يستهل رحلة هجرته للجنوب
هربًا من شتاء قارس البرودة.

- اسم چاسون بيعني "شفاء"، والعالم من حولنا مليون آلام وظلم.
وأتمنى لو ولد، إنه يكبر ويكون سبب شفاء وراحة لكل اللي يكون
بيقابلهم.

إنبهر سامح بما قالته زوجته المحبوبة و معرفتها المطلعة. لم يسعه
غير أن يُؤمن على دعائها بقوله:

- آمين.

وفجأة وبكل جدية، نظرت إليه هناء وسألته:

- مين بقي كارولين اللي انت هتسمي البنت على اسمها؟

بنظرة إبليسية، همس سامح في أذنها قائلاً:

- أنا هاأقول لك دلوقتي حالاً، بس متعيطيش.

وأخذ يدغدغ خصرها، وصرخت هناء، لكنه لم يرفق بها.

- أنا هاأولدك دلوقتي حالاً. إنتي بتتكشيني، استحملي بقي.

أمسكت كارولين بمعصم أبيها برفق، وقالت:

- Don't worry Dad, everything is going to be Ok.

ربت سامح على كتف إبنته، وانتظر أن يقول چاسون شيئًا ما، لكنه لم يفعل. ولاحظ بين الحين والآخر إنفجار أعين چاسون بنظرات غاضبة تجاة أحمد دون دراية من الأخير.

قاطعت ليليان الصمت المهيّب المخيم على حجرة تناول الطعام بقولها:

- يآآ.. كله على أوضته. وقت نومكم جه.

إنطلق چاسون إلى غرفته قبل إخوته دون تحية أحد. إستوقف سامح ما فعله إبنه وإستاء لذلك جدًا، لكنه إلتمس له العذر. قبل كل من

أحمد و كارولين قبل ذهابهما كل إلى غرفته، وذهب إلى مكتبه متظاهراً
بالانشغال .

تركته ليليان لحاله، وذهبت هي الأخرى لغرفتها، وإستسلمت أخيراً
لحزنها، وغاصت في دموعها ألماً عصر نخاع نفسها.
وفي صباح اليوم التالي، سألت كارولين أبيها مناجية:

- Can I come with you to the hospital?

أمسك سامح بوجه طفلته، وقال شاخصاً لها بحنان:

**- Your mom is in the ICU, and they don't allow
a lot of visitors. Only your Grandma and I will
go see her today, and depends on what the
doctor will say, I may bring you all tomorrow.**

قبل أن يفرغ سامح من كلامه، كانت ليليان واقفة أمامه مطالبة
بنظراتها أن يبدأوا في التحرك. وقبل مغادرة المنزل، نادى الوالد على
أبنائه، ووجه كلامه لأحمد في حين كان يحدق بوجه چاسون.

- Ahmed, you're in charge. Call, or text me if there's anything.

كان چاسون فارع الطول، وكان أطول قامة من أترابه في المدرسة، وأمسك به سامح مدققًا في عينيه وقال:

- Jason, I love you, and don't want what happened last night to be repeated. Please...

لم يجد سامح أي رد فعل على وجه چاسون، لكن للأسف لم يكن لديه الوقت الكافي ليتحرى أفكار ابنه. وما أن ترك الأب والجدة المنزل متجهين إلى هناء في المستشفى، واتخذ أحمد زمام الأمور - أو هكذا ظن - فسأل أخواته:

- OK... So who wants breakfast? I can make some waffles.

لم يتحرك چاسون من مكانه، بل أخذ ينظر شذراً لأحمد، ثم قال بحنق و كلمات أخرجتها حنجرتة بإندفاع دل على عدم تفكره، أو إكترائه لما سُنحطم:

- Just make sure the eggs are Halal.

سُمّر أحمد في مكانه صامتًا، متبادلًا النظرات بين كل من كارولين وچاسون لكنه لم يدر ماذا يقول. فقد ظن أخاه يمزح في بادئ الأمر، لكن نظرات چاسون المتجهمة كانت قد قطعت الشك باليقين.

إلتفتت كارولين نحو أخيها وقالت:

- What is wrong with you lately? Why are you being a jerk to everybody?

- Not everybody, just him!

قالها چاسون مشيرًا لأحمد بسبابته في أسلوب يدل على إحتقاره له. إلتزم أحمد الصمت، في حين هزّت كارولين رأسها وكتفيتها في إستنكار وقالت:

- Is this new attitude hip lately? Being a bastard is in fashion now?

ضحك چاسون بإستهزاء معقبًا على ما قالته أخته الصغيرة قائلاً:

- We all know who the bastard in this house is, and it's not me.

كاد أن يشب شجار بين أحمد وچاسون، لكن كارولين أوقفته قبل أن يبدأ بصراخها:

- What?! You two are going to fight? Now? Here? While mom's in the hospital?

نظرت لأحمد وطلبت منه أن ينسى أمر إعداد وجبة الإفطار، وأن يذهب لغرفته قاصراً الشر. ثم إلتفتت لچاسون وقالت:

- And you too, either go to your room, or leave. Go to any of your friends. Just make sure not to be late.

إستطردت صائحة حتى يسمعها أحمد والذي كان قد وصل بالفعل لغرفته، وچاسون على مشارف باب المنزل:

- Dad has enough already, and can't deal with having two idiots under his roof right now. Just remember that...

إستقبلت سامح وليليان إحدى الممرضات في قسم العناية المركزة
بابتسامة مُشجّعة وقالت:

- Good morning Mr. Iskaros, your wife is awake. She's been awake for few hours now.
- Good morning. And how is she doing now?
- Her condition is stable now, still very fragile though.
- Has the Doctor seen her?

- Yes, the Doctor saw her about half an hour ago, and asked me to let you know that she would like to speak to you.
- Where is she?
- She's doing her round, and should be back in an hour or so. Will let her know you're here.
- OK, thanks. Can we go in now?
- Yes, but try not to make her talk too much.
- We won't. Thank you very much.

ترك سامح حماته تتقدمه كي تطمئن على إبنتها، وتأخر عنها ببضع خطوات. إبتسمت هناء إبتسامة دافئة عند رؤية أمها محاولة التهذئة من روعها، وكادت ليليان أن تنهار في البكاء مجددًا، لكنها تماكنت نفسها حتى لا تجهد إبنتها، وقالت:

- سلامتك يا قلبي، إنشالله كنت أنا.

ربت سامح على كتف حماته، وأشار لها بالجلوس على المقعد الوحيد في الغرفة، وظل هو واقفاً يتأمل حبيبته والأسى يعتصر قلبه.

بعد أن تأكد سامح من قدرة هناء على الحديث، سألها:

- الدكتورة قالت ايه؟

مدت إليه هناء يدها حتى يمسك بها، وقالت وهي مغرورة العينين:

- أكدت الشكوك، وقالت إنه في حالة متأخرة ونتيجة الإم آر آى بثبت وجود ورم في المخ، واحتمال يَأثر على الذاكرة وعلى القدرة على الكلام. اقترحت إني أعمل عملية يشيلوا الورم، بس المشكلة في السيولة في الدم عندي.

لم يدرك سامح مدى تشنج قبضة يديه على يد هناء حتى تأوهت من الألم قليلاً، فتركها في الحال. لم تحتمل ليليان ما سمعته. إنهمرت في دموعها، لكنها لم تنبس ببنت شفة. فكانت على دراية تامة بنية إبتتها. تركت الغرفة بعد أن إعتذرت لكليهما، وذهبت للإنتظار بالخارج حتى لا ترى إبتتها دموعها المنهمرة ونحيبها القاتل.

مسكينة ليليان، فقدت رفيق الحياة وها هي الآن قاربت على فقدان
إبنتها الوحيدة، وصديقتها الحميمة.

جلس سامح بجانب أميرته، وقال في حنان:

- أكيد في حاجة ممكن تتعمل و....

أمسكت هناء بيده الممدودة، وقالت والدموع سائلة من عينيها:

- أيوة في.. إني أخرج من هنا بأسرع وقت.

كان وقع ما قالت هناء كالصاعقة على أذني سامح، فلم يتوقع أبدًا
أن تستسلم زوجته بهذه السهولة، لكن هناء لم تدعه يتحدث، وقالت
بصوت ضعيف مبسوح:

- أنا مش هأعمل أي حاجة من الحاجات دي يا سامح، لا زرع نخاع
ولا نقل دم ولا عمليات ولا أي حاجة. كل دي بهدلة للواحد ولا
بتغير أي حاجة. أنا عايزة الوقت اللي فاضلي أقضية في البيت وسط
العيال ومعاك، ومش عايزة أضيع لحظة بعيد عنكم في المستشفيات.
أخذ سامح بتقبيل يديّ محبوبته، وأخذت هي في تجفيف دموعه .

في قرارة نفسه قال: "قلبي وعقلي وكل حواسي رافضين اللي بتقوليه
ويتطلبية ده، لكن أنا هاأحترم رغبتك وقرارك عشان بحبك" وبعد بضع
لحظاتٍ أوماً رأسه مؤيداً ما طلبته منه هناء.

خرج سامح من غرفة هناء كي تستريح، وأخذ في البحث عن ليليان
من وجدها جالسة في الكافيتيريا الملحقة بالمستشفى بالطابق
الرئيسي.

جلس أمامها ومن روع الأخبار، صمت. كان قد شلّ تفكيره مما
أفضله في تحضير كلام منمق كعادته. تحاشى النظر لحماته، بل فضل
الإنشغال في النظر إلى أي شيء آخر. إلى لا شيء. فها هي عاملة
النظافة تقوم بمهامها في تنظيف أرضية المكان. وها هو شخص جاء
دوره ليطلب قدحا من القهوة من الفتاة العاملة خلف الشاشة
الإلكترونية. وها هم مجموعة من الأشخاص فرحون جميعاً لإنضمام
طفل جديد للعائلة. صخب المكان ألهاه إلى حين. وعندما شرع في
الحديث، صمت المكان حوله فجأة، ولم يسمع غير دقائق قلبة
كبوق في أذنيه. قبل أن يبدأ في حديثه باغتنه ليليان قائلة:

- عارفة.. مش محتاجة إنك تقول لي. عارفة إن هناء قالت إنها مش هتعمل أي حاجة ولا هتعمل العملية ولا زرع نخاع، وإنها عايزة تروح البيت.

إندهش سامح من دقة تكهن ليليان، فسألها:

- عرفتي إزاي؟

تنهدت ليليان، وبنظرة شاردة خارج النافذة على الجانب الأيمن للكافيتيريا والتي جلست بجانبها، قالت:

- زمان وإناتوا صغيرين كان لينا قرايب من ناحية ألفونس، والست جالها نفس اللي عند هناء، بس كانوا اكتشفوه في المراحل الأولى. وطبعًا خضعت لكل مراحل العلاج، لكن بعد كل مرحلة كان حالها بيزداد سوء. وكانت بتطلب من جوزها يرحمها من العذاب ويخليها تبطل تاخذ العلاج ويسيبها ترحل في سلام لما وقتها يجي. بس جوزها كان راجل قلبه حجر، الله يسامحه حتى في مرضها وراها الويل، وأجبرها هو وعياله أنها تكمل رحلة العلاج وهي بالنسبة لها كانت رحلة عذاب. وكان بيقولها: "إنتي عايزة الناس تاكل وشي، ويقولوا إنني

رافض أعالج مراتي؟" "إنتي مش تحمدي ربنا إني شايل قرفك،
وبأصرف على علاجك؟" سمم بدنها وموتها قبل حتى ما يجيلها
السرطان.

توقفت عن الحديث للحظات مسترجعة الذكرى المؤلمة، وكأنها
حدثت بالأمس. بالحري، كأنها تشاهدها على شاشة التلفاز أمامها
حالا، ثم إستطردت شاردة الذهن.

- هناء كانت بتيجي معنا لما كنا بنروح نزورهم وكانت بتشوف
الست قريبتنا دي بتتعذب، وكانت بتسمع كل حكايتها ورحلتها مع
المرض والألم. وفي يوم بعد ما رجعنا من عندهم، وإحنا بنتعشى،
كانت في منتهى العصبية وقالت: "أنا مش فاهمة طنط أميرة مستحيلة
القرف ده ليه؟ يعني إيه جوزها يجبرها تتعالج؟ وليه مستكينة وقابلة
المهانة دي؟ أنا لو مكانها كنت سبت الراجل ده من زمان، ولا كان
همني كنيسة ولا أي كلام فارغ من اللي بيعلموه للناس عشان
يسيطروا على عقولهم. وخصوصاً لو مرضت زيها، أنا مستحيل هأسمح
لأي حد إنه يجبرني إني أخوض رحلة علاج أنا عارفة أنها هتتحول
لرحلة عذاب، ومن غير نتيجة."

سالت دموع ليليان على وجهها الدافئ دون أن تدري، واستكملت كلامها ناسية أن سامح جالس أمامها. كأنها تحاول إقناع نفسها بما سيأتي. بما تنتوي ابتتها فعله. بمستقبل لا مفر أو هروب منه.

- من ساعة ما رجع سامح إمبراح وقال هناء عندها إيه وأنا صاحبة طول الليل بأصلي وأطلب من ربنا إنه ما يطلعش التشخيص ده صحيح عشان كنت متأكدة انها هترفض العلاج.

كان سامح قد إستسلم للأمر، لكنه لم يقبل الواقع المرير، وقال ليليان شاخصاً في أرضية الكافيتيريا:

- وأنا هاأحترم رغبتها..

بعد مرور بضعة أيام وافقت الطبيبة المعالجة على خروج هناء من المستشفى، وذلك بعد أن جلست معها جلسة مطولة محاولة إثناءها عن قرارها. لكن بعد أن فشلت تلك المحاولات وصفت لها بعض المسكنات في حالة إحتياجها لها. كما شرحت أيضًا لهناء ما يجب أن تتوقعه، وما قد يحدث خلال الأسابيع والأشهر المقبلة.

كانت روح هناء المعنوية مرتفعة جدًا مما أدهش الطبيبة، وفي محاولة أخيرة لتغيير هناء موقفها قالت:

- You know, with this spirit, you could actually beat it if you submit to treatment.
- Thanks Doctor, but I've made up my mind. After all, we all going to die one day, and I just want to leave with dignity.
- I understand, and respect that.

انتظر سامح الطيبة خارج غرفة هناء، وعند خروجها نظر إليها كالجماد، وسألها:

- How long?

بحكم عمله واتصاله الدائم بالأطباء، كان يعلم مدى صعوبة الإجابة على هذا السؤال، لكنه أراد أن يسمعها على أية حال.

- We don't know exactly, and nobody can confirm, especially after her declining treatment.

صمتت الطيبة لحظات، ولما رأت تصميم سامح على سماع إجابة على سؤاله قالت:

- Mr. Iskaros, you need to understand that what I am about to say is my personal opinion. I think anywhere between 4-6 months. Maybe less, maybe more. I just can't say for sure.

إغرورقت عينا سامح، لكنه صمد فأكملت الطيبة حديثها:

- Just make sure whatever time is left for her, is going to be memorable. Lastly, here's some information about hospice care, it may be useful for her, as well as the kids and yourself.

- Thank you.

في طريق عودتها للمنزل قالت هناء لسامح و هو يقود السيارة:

- بعد ما نوصل البيت كلم آرون عشان عايزة أعدل شوية حاجات في وصيتي.

- حاضر..

هكذا أجابها سامح دون تردد، وكان لهناء طلب آخر.

- اطلب من باباك يجي يزورنا ويقعد معنا شوية، عشان عايزة أشوفه قبل ما أروح.

أمسك سامح بيدها اليسرى وكانت هزيلة ضعيفة، وقال مبتسمًا:

- اللي تؤمري بيه..

بغفوية الأطفال، إنطلقت كارولين نحو أمها عند وصولها للمنزل،
غير مدركة أن والدتها لم تعد بقوتها المعهودة، وأنها لا تتحمل أن
يرتمي أحد أبنائها عليها كالمعتاد. لكن هناء بالطبع لم تنتهر ابنتها
الصغيرة، بل ضمتها إلى صدرها بكل ما أوتيت من قوة.

- I'm sorry mom, I just missed you so much.
- I know you did, and it's OK, me too I missed you so much, and I needed this hug.

أشارت هناء لأحمد وجاسون كي يقتربا منها، وقالت:

- I also need a hug from you too guys.

ترك أحمد أخاه ليقترّب من أمه أولاً، ليس أدباً منه لكن لشعوره المفاجئ بالغبرة، وبأنه دخيل على هذه الأسرة. إستوعبت هناء ما يدور في مخيلة أحمد، لكنها قررت أن تؤجل الحديث معه لوقت آخر.

وعند حضور السيد شमित ذاك المساء، إنفرد به كل من سامح وهناء بداخل مكتب سامح المنزلي، وبدأت حديثها قائلة:

- Aaron, thank you for coming, and for everything...

- You're most welcome my dear.

- I would like to change a couple of things in my will. First, I want to be cremated, and no big funeral and all that. Just the direct family, and that's it.

نظر سامح إليها في إستغراب، فأشارت له كي يتسنى لها الإنتهاء من حديثها.

- Also, all my assets are to go to Sam, on the condition that he is to sell my pharmacy, and the two condos I own in downtown. From the proceeds, he is to deposit a total amount of \$1,000,000 into Ahmed's bank account.

أجاب السيد شميت بعد أن إنتهت هناء من حديثها:

- Consider it done. Anything else you would like to amend in your will?

- No... Everything else stays the same. My only request is to get it adjusted as soon as possible so I can sign on it before my condition worsens.

بعد رحيل السيد شميت، إستأذنت هناء كي تستلقي في فراشها.

وتبعها سامح حتى يسألها مستفسراً عن طلبها الغريب.

- إيه موضوع الكريماشن ده؟

- معنديش حيل للمناهدة يا سامح، فياريت تسمع اللي عندي
ومتجادلنيش. الكتاب ما اتكلمش عن وجوب الدفن بطريقة معينة، لا
عهد قديم ولا جديد. ربنا مش هايفرق معاه الجسد اتحط في تابوت
ولا رماد اترمي في الهواء. عارفة إن عندنا فلوس ممكن تجيب لي
أعظم وأفخم وأعلى تابوت، بس مش عشان معانا فلوس يبقى نروح
نصرفها على حاجة هتدفن في الأرض. كلها مناظر كدابة ومضیعة
للفلوس. وبعدين أنا مش عايزة أتدفن.

تنهد سامح حيث كان يوافقها الرأي، وقال:

- لو دي رغبتك، يبقى أنا تحت أمرك.

- عندي طلب أخير..

- عينيا ليكي.

- بعد ما تاخذ الرماد، تروح إنت والعيال الشالية، وترمي الرماد في
البحيرة.

جلس سامح على أحد المقاعد بالغرفة ودون النظر لحيبته
المستلقية على الفراش قال:

- مش شايفة إنه هيبقى صعب أقنع العيال إنهم يتفرجوا على وأنا
بأعمل كده؟

- عارفة ومتأكدة، بس لازم توعدي إنك هتعمل كده. مش عايزة
أكون موجودة في مكان محطوط عليه رخامة مكتوب عليها اسمي
تحدني وتحد ذكرياتهم عني. عايزة أكون في عقلهم وفي قلبك على
طول.

تدهورت حالة هناء بسرعة كبيرة، وأخذ جسدها في الضعف وفقدان الوزن بصورة مرعبة. وبالرغم من تدهور ذاكرتها وفقدانها القدرة على التركيز في أمور عديدة، ذات يوم نادى على أحمد بصوت خافت، فنادى عليه جاسون بدوره حيث كان يمكث معها في فراشها. فكان نادرًا ما يتركها وحدها منذ أن رجعت من المستشفى. طلبت منه أن يمكث معها حين يحضر أحمد ليستمع لما كانت على وشك قوله لأحمد، لكنه رفض.

أمسكت هناء بيد أحمد، وقالت له:

- اسمعني كويس يا أحمد. إنت ابني.. سامع؟ إنت مش ضيف ولا شخص غريب عن البيت ده، انت ابني. صحيح أنا ما ولدتكش، بس حبي ليك مش أقل من حبي لجاسون أو كارولين. إوعى تنسى ده، وإوعى تنسى ان حياتنا اتباركت ببيك وبوجودك معنا. وأنا نفسي اتعلمت منك حاجات كثير، وأنا فخورة جدًا ببيك. هتعرف معنى

كلامي ده أكثر لما تكبر. عايزاك تتأكد كمان من إني مش هاموت
أبدًا طول ما إنت هتكون سامح ليّ أعيش في قلبك وعقلك.

بكي الفتى كما لم يبكِ من قبل، فكان من الصعب، بل من
المستحيل أن يتحمل أحد ما تحمله هذا الشاب اليافع، وها هو على
وشك أن يفقد الأم للمرة الثانية.

أخذت هناء تداعب شعره بأصابعها النحيلة، وطلبت منه أن يتوقف
عن البكاء، ثم قالت:

– لسه مش دلوقتي يا أحمد. العياط مش دلوقتي، هيجي وقته ومش
عيب إنك تعيط. عيط بس مش دلوقتي. بس لازم توعدني إنك تخلي
بالك من إخوانك، إنت أخوهم الكبير وإنت اللي لازم تكون بتلم
العيلة دي بعد أبوك. خلي بالك من كارولين يا أحمد.. إنت شخص
قوي وهي بتعتبرك مثلها الأعلى بعد أبوها. احميها من الديابة اللي برة،
وقرب من چاسون. أنا عارفه انه بقى صعب أوي الأيام الأخيرة، بس
قرب منه. هو يبحك، بس غالبًا نسي بسبب مرضي.

مغالبًا دموعه، قال:

- بس إنتي هتوحشيني أوي.

- كل مرّة آجي فيها على بالك، إقرا لي الفاتحة وادعيلي، وعلى قد ما تقدر وزع خير على المحتاجين واطلب منهم هما كمان يدعوا لي.

- إنتي أعظم أم في الدنيا، وشففت منك حنان ماشفتهوش في حد.

في تلك الأثناء كان سامح في مطار تورونتو الدولي لاستقبال أبيه تلبيةً لطلب هناء، وعند رجوعهما للمنزل، إنطلقت كارولين بعفويتها المعتادة نحو جدها ولم تبالِ إذا ما كان منهك القوى من الرحلة الجوية. أما چاسون فكان متحفظاً بعض الشيء في لقائه بجده، فكانت تلك هي المرّة الأولى التي يتقابل فيها معه.

بعد ترحيب الجميع بعم جرجس، مدّ أحمد يده لتحية الجد، لكن الأخير نظر إلى يده، ثم إلى وجهه وقال بحزم:

- أول وآخر مرّة تقابلني المقابلة دي يا ولد..

تلعثم أحمد، ولم يدرك ماذا فعل أو عن ماذا يعتذر، لكنه تنفس الصعداء حين تغيرت ملامح عم جرجس وإرتسمت إبتسامة عريضة على وجهه حين قال:

- لما تشوف جدك تاني مرّة، ترمي نفسك في حضنه بدون تفكير، فاهم؟

نهضت هناء من فراشها عند سماع صوت حميها بالرغم من إعيائها الشديد، وقررت الانضمام لباقي أفراد الأسرة في الطابق السفلي. لكن أرجلها كادت أن تخونها، ولحسن الحظ كانت ليليان على مقربة منها، فهمت بالإمساك بها قبل أن تسقط على درج المنزل. هرول الجميع نحوها وعلى رأسهم عم جرجس الذي راعه منظرها المسكين.

أمسكت هناء بيد عم جرجس و قالت:

- وحشتني أوي يا أنكل.

دمعت عينا عم جرجس الطيب، وقال:

- إِبقي سلمى لى على مادلىن لما تشوفىها، عشان هى كمان
وحشتى أوى.

صدم ما قاله الجميع، لكن هناء إستقبلت طلبه بصدر رحب،
وقالت:

- أوعدك هأعمل كده.

مرّت الأسابيع ثقيلة حزينة، بلا مذاقٍ ولا ألوانٍ ولا ألحان. وفي يومٍ
ربيعي مشمس، إسقطت هناء من نومها، وعلى غير المتوقع كانت في
كامل قواها مستوعبة ما يحدث حولها كأن لم يكن بها شيء.
وكعادتها القديمة أيقظت الجميع من نومهم، وأمرتهم بالنهوض
والاستعداد للذهاب إلى مدرستهم غير آبهة لدهشتهم.

وبعد إعداد وجبة الإفطار للجميع، وفيما لا يزال الشبان والفتاة في حيرة من منظر الأم العفّي، ودعتهم بأحضان قوية ولشّمات حنونة. ثم نظرت لسامح فتوقّف عما كان يفعله، فكان يستعد للذهاب لعمله، وطلبت منه:

- عاوزه أطلب منك طلب..

- أوْمِرِينِي.

- عايزاك تاخذ أجازة أسبوع من النهاردة. وعايزاك تاخدني الشالية . أنا وإنت بس.

تغيرت معالم وجه سامح بعد أن إنشرح صدره حين رأى توأم روحه بهذا النشاط ذاك الصباح. فأكملت هناء قائلة:

- أنا حاسّة إن وقتي جه، وعايزة أروح هناك عشان بأحب المكان ده أوي.

أمسك بيدها، ونظر في عينيها الشاردتين، وقال هامسًا:

- حاضر..

ذهب الحبيبان إلى الشالية، ورغبت هناء في إلقاء نظرة أخيرة على البحيرة الملساء الحيوية، وكانت بعض الأشجار قد أخرجت أوراقها الجديدة. فطلبت من سامح التوقف في مكان مفضل لها بالقرب من المياه، ثم خرجت من السيارة بمساعدة زوجها.

وبعد بضع دقائق سادها الصمت والتأمل، قالت:

- أشكرك إنك كنت زوج رائع، وأشكرك على كل الذكريات الجميلة والحب اللي حبهوني.

ضمها سامح لصدره وقال:

- وأنا أشكرك إنك في حياتي، وإنك قبلتيني زي ما أنا واستحملتني شخصي بكل عيوبي.

خارت قوى هناء تمامًا.. وظن سامح أنها منهكة، فأمسك بها وحاول أن يجلسها على الأرض، وتفحص وجهها الملائكي، لكنها.. فارقت الحياة هناك.. بين يديه.

نادى عليها: "هناء" .. "هناء" .. "هناء" .. "إصحي حبيتي" ..

"ماتسيينش لوحدي" .. "هناء"

آه يا حبيتي، يا صغيرتي، يا أميرتي

آه من عذاب ومرارة الدنيا من بعدك

آه من حياة وحيدة بدونك

آه من عالم لم يعد ليّ فيه وطن

طرقت كارولين باب غرفة چاسون مستأذنة للدخول، لكن لم يصلها رد من الداخل. ففتحت الباب بهدوء حتى لا توقظ أباها إذا كان نائمًا. لكنها وجدته متربعا على الأرض بجوار فراشه ماسكًا لصورة قديمة لأمه متفحصًا ملامحها، متحسسًا البرواز.

جلست كارولين بجواره وقالت:

- Hey Jace... Dinner is ready, and dad asked me to check on you. He said it's OK if you don't feel hungry.

إبتسم چاسون، وسأل أخته مما أكد أنه لم يسمع ما قالت:

- Hey, do you remember when mom used to take us to St. Jacob's Market every Saturday morning during the summer?

- Yes of course, how can I forget?

- I used get a hot dog sandwich from that guy...
Best hot dog in Ontario.

- Well if you come down for dinner, maybe we
can go next weekend.

نظر إليها شذراً وكأنها سبتته، وقال:

- Not gonna sit on the same table with that guy.

تنهدت كارولين بعد أن نفذ صبرها، وقالت بحدة:

- Listen Jace, you're not the only one who misses
mom, we all do, and we're all sad, angry, and I
personally don't understand why did God allow
this to happen. But I know that God is good, and
I also know that while we have lost a mother,
dad has lost a...

قاطعها چاسون غاضبًا، وقال بحنق:

- Save it sis. Dad didn't lose anything. He is richer now than he was before. He cashed in a fat insurance policy.

- You don't know what you're talking about, and if you think that about dad, then you don't even know him... He loved mom with every ounce in him.

وقف چاسون مباغتًا، وأشار لأخته بسبابته في تحدٍ قائلاً:

- If he loved her like you say, he would have taken her to see a Doctor when it was still early. But no, he did not for the sake of his highness Ahmed-The-Great.

في دهشة وإستنكار لم تستطع كارولين دحض إتهامات أخيها للأب، فزاید علی إتهاماته قائلاً:

- Wake up Carol... Our mother died because of Ahmed, and because of dad's negligence.

- Give it up already. It's been over three years Jason. How can you still think that way? How can you say something horrible like that? This is extremely unfair.

- You can live in denial all you want, but not me. I am holding them both responsible for the death of my mother.

صرخت كارولين في وجهه:

- You're such a self-centered idiot. How can you still think this after we sat with mom, and she told us that it was what she wanted. It was her decision not to go see a Doctor.

- And you believed her? You don't think that dad forced her and shoved those words down her throat, do you? How naive you are!!

- You are such an idiot...

صرخت كارولين بتلك الكلمات، وخرجت مهرولة للطابق الرئيسي.
لم تجب على أبيها عندما سألها عن أخيها، لكن وجهها كان ينم عن
الكثير.

عرض أحمد أن يذهب ليطمئن على أخيه، لكن سامح فضّل ألا
يفعل، وأيدت كارولين رأي أبيها.

- If he gets hungry he knows what to do. Just
let's give him his space.

بعدها أستاذ أحمد ليلحق بدرس اللغة العربية الأسبوعي، وطلب
سامح أن تنضم كارولين إليه في مكتبه المنزلي، وهناك سألها:

- So, tell me everything.

شعرت كارولين بالخجل والتوتر في آنٍ واحد، لكن أباه أكد لها
عدم إتخاذة موقفًا عنيفًا مع چاسون مهما كان الأمر، فقصّت عليه كل
ما دار بينها وبين أخيها، ثم طلبت منه:

- Please dad, don't be angry at Jason. He doesn't know what he's talking about.

كان موت هناء بمثابة الضربة القاصمة لسامح، وظنّ آنذاك أن ما شعر به من ألم وضياع عند فقدانه لها لن يضاهيه شيئاً ما حيا. لكن ظلم ابنه له نجح في إثبات عكس ذلك، وآلمه ذلك أشد الإيلام. على الرغم من ذلك قال لإبنته بهدوء وثبات:

- I promised you that I won't do anything, and you're right, he doesn't know what he's talking about. But, you just have to promise me one thing.

- Sure dad, anything you want.

- Stay close to your bother, and no matter what, you never call him an idiot again.

- Oh dad, but he is.

أمسك سامح بيد ابنته العزيزة، ونظر عميقًا في عينيها، وقال معاتبًا
بإستامة باهتة:

- Seems you forgot that he's my son, and if he's
an idiot, that means I am too.

- No! I didn't mean that.

- I know you didn't, but don't forget that.
Promise me.

- Ok dad, I promise.

دقّ جرس الباب فهتّت كارولين لإستطلاع الداعي، لكن ليليان
كانت قد سبقتها، وعند الباب المفتوح وجدت جيرانهم الجدد،
چيچي ووليد. هذان الصديقان الحميمان على أرض كان قد إعتبرها
سامح أرض غريبة بعد رحيل المحبوبة هناء. فقد كانا قد إنتقلا لمنزل
قريب من آل/إسكاروس، ومنذ تلك اللحظة كانت زيارتهما لتلك
العائلة على الرغم من أنها كانت مفاجئة أغلب الوقت وغير مُسبّق
الإعداد لها، إلا أنها دائمًا ما كانت مُرحّب بها.

- إزيك يا طنط؟

أجابت ليليان على تحية چيچي بحاجبٍ مرتفع بعض الشيء،
ويابتسامة ذات مغزى قالت:

- إنتي ليه مصممة تعجزيني؟ إندهيلي ليليان على طول.

دفع وليد زوجته جانبًا، وبعد تقبيل يد ليليان كعادة النبلاء قال:

- بعد إذنك يا ليليان هانم، بس محتاج أدخل بسرعة عشان عايز..

قاطعته زوجته قائلة:

- خُشْ خُشْ، مش لازم تعمل إعلان إنك محتاج تفك أسر نفسك.

ضحك الجميع، وابتسمت كارولين ورحب سامح بالضيوف الأعراء،
وتساءل عما إذا كانا يرغبان في تناول بعض القهوة.

بعد دقائق، ظهر چاسون مستعدًا للخروج، ولم يُبلغ أحد بذلك،

فنادى عليه سامح:

- Hey Jace, are you going out?

- Ain't it obvious?

إستاء الجميع من فُبح رده، فإقترب سامح منه قائلاً:

- Don't care for your attitude young man.
You're walking on thin ice here, and a word of
advice, don't test my patience.

إستوعب چاسون حماقته، لكن كبرياءه كمرهقٍ منعه من الاعتذار،
ودون تحية أحد إنصرف لحاله.

- أنا مش عارف إنت مستحمل قلة الأدب دي إزاي يا سامح. أنا
مش قصدي اسخنك على ابنك، بس الموضوع بقي زايد عن الحد
بصراحة.

جاء تعليق وليد هذا كمن ألقى بالوقود في نارٍ ملتهبة، مما زاد من
حنق الأب.

- عارف، بس مش في إيدي أعمل أي حاجة أكثر من اللي أنا
بأعمله. وبعدين لو قرصت عليه هأخسره. إنت عارف العيال هنا
مممكن تعمل ايه.

- إنزل بيه مصر.

إنعقد حاجبا سامح غير مستوعب ما يقصده وليد، فإستطرد الأخير
مفسراً:

- هي زيارة واحدة لمصر، وأول ما تطلع من المطار أَعكُشُه. ولا أي
حد هيحوشك. خصوصاً لما يعرفوا إنك أبوه. ما إنت عارف مصر،
هايقولوا أبوه وبيربيه. ومش بعيد يجوا يضربوه معاك.

ضحكت چيچي وليليان عند سماع إقتراح وليد، ولكن سامح لم
يتفاعل مع تلك التوصيات اللوذعية. وبعد ثوان قليلة صمت الجميع
عندما تأكّدوا أن وليد لم يكن مازحاً في إقتراحه هذا.

- وليد، عمري ما مديت إيدي على ولادي، وعمري ما هأفكر أعمل
كده، خصوصاً لما ننزل مصر. ولما ننزل مش هأعكش حد هناك.
عايز چاسون يكون بيحب بلد أبوه، وتكون ذكرياته عنها حلوة. مش
أنها البلد اللي أبوه "عكُشُه" فيها.

سألته چيچي في محاولة لتغيير مسار الحديث:

- دي مفاجأة عظيمة جداً، ناويين تنزلوا إمتي؟

- احتمال نزل كلنا السنة اللي جاية.

في خجلٍ همهمت ليليان:

- بس أنا كده مش هاينفع آجي معاكم.

- ليه؟

- ما إنت عارف، بعد ما طلبت مني آجي أعيش معاكم، بعث شقتي

في شبرا وماليش مكان أقعد فيه.

- ودي تفوت عليا يا ماما؟ أنا هارتب كل حاجة .. ما تقلقيش ولا

تعولي هم أي حاجة.

- سيبكم من الكلام ده .المهم، ليليان هانم، عاملة لنا إيه النهاردة؟

نال سؤال وليد هذا نظرة حادة من زوجته، لكن سامح باغت الجميع

قائلاً:

- إنت على طول كده همّك على بطنك؟ على العموم ما تتعشمش
أوي. عاملين بصارة، عشان الدنيا صيام.

- ده على أساس إنك عايز تقنعني إنك صايم أصلاً؟ يا إنجيلي يا
كافر.

- دكتور سامح، تسمحلي بدقيقتين من وقتك.

نظر إليها سامح شاخصاً، شاردًا ورد بقليل من سعة الصدر:

- لو الموضوع مش مستعجل، يا ريت نأجله يا دينا. زي ما إنتي شايفة أنا مشغول جدًّا ولازم أروح المستشفى عند هناء.

- أنا بس كنت عايزة أقول لحضرتك حاجة سريعة. إحنا في الجروب كنا بنصلي لمدام هناء، وحضور الرب كان قوي جدًّا وسمعت الرب بيكلمني بوضوح ويقول لي: روعي قولي للدكتور سامح إن مرض مراته ده مش للموت. فقط آمن، وهتشوف إيد الرب بتتمد بشفاء عجيب. عايزة أشجعك وأقول لك إن الرب هيزورك ببقوة شفاء، وإسم الرب هيتمجّد في بيتك.

على الرغم من إسمرار بشرة سامح، إشتد إحمرار وجهه، وفي مواجهة مباشرة صارمة، إرتفعت نبرة صوته معقبًا على ما قالته دينا.

- واضح يا دكتورة دينا إنك إنتِ والجروب بتاعك مش بس بتستهيلوا على "الرب"، لكن بتستهيلوا على نفسكم. وواضح كمان إنكم مش فاهمين أصلاً طبيعة الشفاء الإلهي.

حاولت دينا مقاطعته:

- يا دكتور..

- لو سمحتي يا دكتورة، حضرتك اتكلمتي وأنا سمعتك. دورك دلوقتي تسمعي. إنتوا مين عشان تسمحو لنفسكم إنكم تتكلموا على لسان الرب؟ وإزاي تجرؤوا إنكم تروحوا للناس بنبوءات كاذبة زي دي، وتلعبوا بمشاعرهم تجاه أحبائهم وتدوهم آمال كاذبة تعلّي من أحلامهم ومن تطلعاتهم لربنا. ولما ما تتحققش يقعوا لأسفل السافلين، وإيمانهم في الله ذاته يتزعزع. ألا تعلمون أن شفاء الرب أنواع؟ يا إما شفاء بتدخل طبي، أو يعطاء نعمة لتحمل المرض وآلامه، أو بانتقال الشخص من جسد الضعف، أو بأسلوب معجزي دون تدخل طبي. بس عشان انتوا ضعاف النفوس وفكركم مُشوّه بتركزوا على النوع الأخير فقط، وأصبح توقعكم من الله انه لازم يبقى ساحر، ويعمل فقط

على إراحتكم، ولو ما عملش كده يبقى المشكلة في الشخص نفسه
إنه إيمانه كان ضعيف.

- يا دكتور..

- انتوا كذبة.. وملتوين كأبيكم..

قاطعت چانيس صراخ شريكها قائلة:

- I'm pretty sure everybody in the restaurant at the end of the plaza heard you, but like me, didn't understand a thing. Dina my dear, please go back to work, and look after the patients outside. If they're still here that is.

إرتمي سامح على مقعده، ماسكاً رأسه محاولاً التحكم في يديه
المرتعشة. أغلقت چانيس الباب خلف دينا، وقالت:

- Don't care what this is about, but you just don't talk to an employee like that. Appreciate what you're going through Sam, but you know

better, and the last thing we need is to have anybody breath down our necks right now.

- You don't understand Janice...

قصّ عليها ما دار بينه وبين دينا، وتعقيبًا على ذلك، قالت چانيس:

- Oh! Don't tell me they still believe in the likes of Reinhard Benedictus! Don't they know he's an imposter? A false prophet, and his so called "Miracle-Crusades" are staged?

- Obviously they don't.

- Well, it's easier to believe lies than digging deep for the truth. But still my dear Sam, this cannot be repeated. Make sure to apologize to Dina before your leave.

- Shall do.

- يا دكتور .. دكتور سامح ..

نظر إليها سامح شارذ الذهن، فلم يستوعب أن دينا كانت ماثلة أمامه حين تذكر ما دار بينهما منذ أكثر من ثلاثة أعوام.

- آسفة يا دكتور إني قاطعتك، بس في ناس برّة عايزين يقابلوك.

- ناس مين؟

- مش عارفة، بس شكلهم رسمي.

إمتعضت ملامح سامح، لكنه خرج للقاء الزائرين.

- Hello, is this Mr. Iskaros?

- Yes this is he, and you are?

- I'm detective Malone, and this is detective Drew.

سرت القشعريرة في جسد سامح، فبالتأكيد زيارتهما غير متعلقة
بأخبار الطقس.

- Umm... Forgive me gentlemen, but what is
this about?

بإبتسامة صفراء، قال المفتش درو:

- We prefer to have have a cup of coffee in your
office sir.

- Yes of course. Please come in.

بدأ المفتش مالون في الحديث بعد احتساء بعض من القهوة:

- We work for CSIS, and understand that Mr.
Ahmed Al-Masry is your adopted son. Is that
correct?

إستاء سامح من تلك المقدمة جدًّا، وعليه طلب بإصرار:

- Forgive me gentlemen, but can we skip the
theatrics, and go straight to the point please?

بنفس الإبتسامة المخادعة، أكمل المفتش درو الحديث:

- We regret to inform you that your son has been mingling with very bad people Mr. Iskaros.
- Elaborate please.
- Only if we have your word this conversation remains within the walls of this office, and that you will react wisely.

نقد صبر سامح، وبحدة عقد حاجبيه وهم بالوقوف موجهًا كلامه

لكل من المفتشين:

- Look, I have the feeling that you know this about me, but in case you don't, I'm a straight forward kind of guy. That being said, and if you are not going to cut to the chase, and if I am not in a legal trouble that requires you to arrest me, I'm afraid I'm going to have to ask you to leave.

– Mr. Iskaros, please sit down, and try to contain yourself.

هكذا طلب منه المفتش مالون آمراً، ثم أخذ يفسر الأمر بعض الشيء.

– Rest assured we are here only as a personal favour requested by Mr. Schmitt. He's a good friend of my father, and asked me to have an informal conversation with you.

– Schmitt? Aaron Schmitt?

– Himself... See, few individuals at Al-Farouk mosque have been under surveillance for some time now, and few weeks ago, a new member has joined their weekly gatherings. That new member is your son, Ahmed.

تساؤلات دفاعية كثيرة أخذت تتمحور في ذهن سامح.

- But that's not possible. I mean Ahmed's schedule is pretty much full, and moreover; I know his whereabouts all the time.

- Sir, instead of attending his weekly Arabic lesson lately, he joins the other consortium.

إتسعت عينا سامح وفغر فاه في ذهول رافضًا تقبُّل ما يقوله المفتش
مالون، لكن الوضع لم يسمح بأن يكذبه علانية، فقال:

- And who are they?

- We are in no liberty to divulge this information, but all we can tell you is that we have reasons to believe it's a home grown radicalized cell.

إختل توازن سامح، وهزّ رأسه داحضًا ما سمع، وقال:

- That's impossible... I don't believe you. I know Ahmed, and he would never...

قاطعه المفتش درو، وقال بحزم:

- We don't want you to jump to conclusions. We are not yet suggesting that your son is an active member, nor is participating in any suspicious activity. We do know however; that he attends their meetings, and that puts him in a very difficult position. I trust you understand.

ظل سامح يوميء برأسه ممتعضاً مبدلاً نظراته للمفتشين، لكنه عجز عن إصدار أي تعليق، فأكمل مالون قائلاً:

- What we recommend you doing is having a conversation with your son, and put some words of wisdom in his ears. Simply put, we will not allow anybody to exercise any sort of aggression against this country.

أكمل درو حديث زميله قائلاً:

- It also comes without saying that after Ahmed comes back to his senses, we expect his full cooperation in order to protect this nation.

يا للكارثة. ماذا فعلت بنفسك يا بُنيّ؟ أين عقلك حين إشتراكك مع
من يكره الحياة، ويخطط لإفساد دولة قد فتحت أذرعها لك؟
من الآن أصبحت مهددًا من هؤلاء الفاسدين المفسدين، وفي ذات
الوقت أصبحت العين عليك من قبل الأجهزة الأمنية في هذا البلد،
للأبد..

- مساء الخير يا ماما..

- مساء الخير.. مالك؟ يومك شكله كان مُرهق.

سرح سامح بذهنه للحظات، ثم رد على سؤال ليليان مترددًا:

- كان يوم مشحون فعلاً.

تنهد رويداً، ثم سألها بحزم:

- أmaal أحمد فين؟

- خرج، قال رايح لجماعة أصحابه.

- خرج إمتي؟

- قبل ما تيجي بحوالي ربع ساعة.

أخرج سامح هاتفه المحمول على الفور للإتصال بأحمد، وعند رد الأخير لم يترك له الفرصة للتحدث. فلم يرغب سامح أن تتسني لأحمد الفرصة ليكذب أكثر من ذلك.

- أحمد، ارجع البيت.. عايزك.

جاء رد أحمد صادقاً في اهتمامه:

- خير يا بابا؟ في حاجة؟

- بلا بابا بلا زفت، ترجع حالاً ومش هأكرر كلامي.

- خير طيب إيه اللي حصل؟

بصوت مرتفع أيقظ چاسون من نومه، وأحضر كارولين مهرولة من غرفتها قال:

- أحمد، تسمع الكلام من غير مناهدة وترجع البيت حالاً. تكون هنا في أقل من ١٠ دقائق. فاهم؟

أغلق سامح هاتفه، وألقى به بغضب محتدم ليصطدم بأحد المقاعد في غرفة إستقبال الضيوف لتتناثر قطعه المحطمة في أرجاء المكان. ولاحظ كل من كارولين وچاسون وكانا قد تسمرا في أماكنهما في منتصف الدرج العلوي، لكن لم يجرؤ أحد على الاستفسار، ولا حتى ليليان.

نظر چاسون لأخته وهمس في أذنها مستفسراً:

- What the hell is going on?

- No idea, but I can tell you this is the first time I've seen dad like that.

– So?! Should we go down, and be with him? Or go back to our rooms?

– Since when do you care?

تجاهل چاسون سخريه أخته، وقال:

– My gut tells me to be close to dad. I think he needs us with him.

دبّ الرعب في نفوس الجميع، وتغلغل إحساس من الفرح نوعًا ما إلى نفس چاسون، وأخذ يفكر: "بالتأكيد قد ارتكب أحمد حماقة ما.. أحمد، هذا الدخيل على حياتنا. هذا الشخص المدلل. ها هو أخيرًا يقع في شر أعماله وتظهر حقيقته. أخيرًا سيعرف أبي مدى خطئه حين قرر تبنيه."

ما أن وصل أحمد المنزل وأغلق الباب خلفه، إستقبله سامح بلطمة كادت أن تقلع عينيه من وجهه. سقط أحمد على الأرض وسط ذهول من الجميع، وهرولت ليليان لتتدارك الشاب. ولولا جسد ليليان الملتف حول أحمد لفتك به أبوه الذي إنفجر صارخًا في وجهه:

- هي دي جزاة البلد اللي فتحت لك دراعاتها؟ هي دي جزاة أمك
اللي فنت نفسها عشانك؟ هي دي جزاتي وجزاة البيت اللي اتريت
فيه بكرامة؟ رايح تنام في نفس السرير مع ناس بتكره الحياة، وعائزين
يحرقوا البلد اللي فتحت لهم ولأهاليهم دراعتها؟

سألته ليليان مرتجفة:

- في إيه يا سامح؟ ليه كده؟ إيه اللي حصل؟ قول لنا يا بني..

في تردد ذهبت كارولين لمساعدة أحمد على النهوض. ودب الفزع
نفس چاسون، لكنه لم يجرؤ على التحرك من مكانه، ولا حتى أن يُعبّر
عن مشاعره خوفاً من أن يسمعها أبوه وينقض عليه بدلاً من أحمد.

إستمر سامح في غضبه العارم وصراخه.

- عملت اللي محدش في الدنيا ممكن يعمله. ولا أي حد في مكاني
لا مسلم ولا مسيحي كان يعمل اللي أنا عملته معاك. ومش عايز منك
أي حاجة يا أخي، بس مش مستني منك إنك تبقي إرهابي.

صمت الجميع، وتوقفت عقارب الساعة، وتحولت الأنظار كلها إلى
سامح، إلا أحمد الذي ظل محددًا بأرضية المنزل الخشبية.

فقر اللغة العربية عند چاسون أجبره على النظر لكارولين علها تفهم
ما يرغب، وأن تترك أحمد لتقترب منه وتقوم بترجمة ما يقوله أبوه. قفز
من مكانه، وهز كيانه صوت صراخ الأب المسحوق حين قال:

- أقف زي الرجالة وبُصلي. رُد عليّ.. ليه تبيع نفسك لناس ماتعرفش
غير إنها تكره؟

إزاي أعجبت بالقبح ده وانت متربي في بيت ما فيهوش غير الحب؟

إزاي عرفوا يقنعوك إن الموت هو الحل لكل مشاكلهم؟

إزاي تسمح لنفسك تشوه صورة دينك بنفسك قدام نفسك وقدام
العالم بالأسلوب المنحط ده؟

عاد ووقف أحمد على أرجله بعد أن تركته كارولين، وكالجماد
المبرمج رد ناظرًا لچاسون:

- وشوفت الكره برضه في بيتك.

- ياه.. دول فعلاً غسلوك مخك. هو إنت ما تعرفش إن في أي أسرة الإخوات بيتخانقوا؟ ويحصل خلاف بينهم وبين بعض؟ وبعدين لو حسيت بالرفض والكره زي ما بتقول، تيجي تكلمني وتشكي لي. لكن إنت مش بس شوهت صورة دينك اللي عملت المستحيل عشان أحافظلك عليه، لأ ده إنت كمان قبلت فكرة ومنطق قتل الأبرياء عشان واحد سادي مختل عقلياً قال من ألف سنة إن هو ده الإسلام. وفوق ده وده تودي نفسك في داهية في بلد مش هترحمك. وعشان إيه؟

أخذ سامح يضرب كفاً على كفي وأكمل صارخاً:

- أنا نفسي أفهم مين اللي ضحك على المسلمين وقال لهم إن القرآن وحده لا يكفي وإن الأحاديث نسخت آيات منه، على الرغم من إن كثير من الأحاديث ثبتت عدم صحتها.

قول لي يا أحمد بك، هل الله نسي حاجة يقولها لرسول الإسلام؟؟ هل محتاج كِمالة؟ أو محتاج لمتترجمين لكلامه؟ أو سمح لناس تفرض وصايتهم على خلق الله بإسمه؟

إزاي يا بني عرفوا يضحكوا عليك ويقنعوك بأسباب كاذبة ملتوية،
وهي في الأصل إتفصّلتِ عشان يفرضوا على الناس الخنوع ليهم
والانبطاح تحت رجليهم عشان يبيعوا ويشتروا فيهم؟

قول لي يا علامة، إزاي أقنعوك ان الإسلام لا شيء بدون التراث وهو
ملوث بالدم؟ وكل ده عشان إيه في الآخر؟؟؟ قول لي.. عشان إيه؟؟؟

صمت أحمد طويلاً، ولم يجد لديه إجابة على هذا السؤال الذي كان
له تأثير النشادر على الشخص المُخدّر والذي بدأ في الإفاقة عند
إشتمامه.

في كل هذا لم يلاحظ سامح بكاء ليليان، ولا الترجمة الفورية التي
تقوم بها كارولين لأخيها. فقط شعر بغليان يسري في عروقه وأحس
بألم مبالغت في ذراعه الأيسر، وأنه على وشك أن يفقد الوعي، وقال
أخيراً وكانت قد خانته ساقيه:

– مش هأسمح لك إنك تدمر نفسك. مش.. هأسمحلِك.. إنك
تشوه.. دينك.

فقد سامح الوعي، ورحل مؤقتًا إلى عالمٍ آخر لم يدركه إلى أن أُفِيق في المستشفى.

- هـنآء؟

أجابـ كـارولـين بلـغـة عـربـيـة ذـات لـكنـة مـصـريـة وـاضـحـة:

- لآ يا بابا، أنا كارولين.

لم يكن سامح قد إستعاد يقظته كاملة، فصمت قليلاً وعاد متسائلاً:

- كارولين مين؟

- بابا، أنا كارولين بنتك.

عقد سامح حاجبيه وطلب من إبنته مساعدته على النهوض، وحين تأكد من عدم قدرته على ذلك، إكتفى بالجلوس على الفراش. وبعد

أن إستعاد وعيه كاملاً، نظر لإبنته مندهشاً كم كانت تشبه أمها، وقال لها:

- ومن إمتي بقي بتكلمي مصري؟

- أصلي خليت أحمد من فترة يعلمني، وبقيت بأعرف أقرأ وأكتب كمان.

للتو تغيرت ملامح سامح، وتذكر شجاره مع أحمد. كما أدرك أنه مودع في المستشفى، متعلق بشاشات عدة عن طريق أنابيب غائرة في ذارعه اليمنى، فسألها بشغف:

- هو فين؟

- برّة مع چاسون وتيته بيتكلموا مع الدكتور.

- طب إندهيله حالاً.

- حاضر، بس بلاش انفعال.

رمقها سامح محذراً، لكنه إقتنع بما قالت، خاصة أن جسده لم يكن في وضع يعينه على العراك مجدداً. وفي طريقها لخارج غرفة أبيها لتستدعي إخوتها، سألها سامح:

- أنا هنا بقالي قد إيه؟

- من إمبراح، تقريباً من ١٧ ساعة.

دخل أحمد مطأطئ الرأس، ووقف عند مؤخرة الفراش الطبي لكنه لم يجروء على أن تلتقي عيناه بعيني أبيه.

رمقه سامح وقال بحنان يُتَوَجَّه الأسي:

- عمري ما كنت أحب أشوف راسك مكسورة كده. كان نفسي دائماً أشوفك مرفوع الراس، ومش خايف غير من اللي خلقنا.

إرتجف أحمد من رهبة ما قاله أبوه، وبصوت يكاد يُسمع قال:

- أنا آسف.

مدّ سامح يده إليه، وبعد أن أمسك بها قال فاحصاً عمقه:

- آسف دي مالهاش تمن دلوقتي، وأصلاً ما تقولها ليش. آسف دي
تقولها لما تكلم المخبرات عشان تقول لهم كل اللي تعرفه، وحالاً.

دبّ الفزع مفاصل أحمد، وقال:

- مخبرات؟! -

- أو مال إنت فاكّر أنا عرفت مينين؟ هو إنت واصحابك هبل لدرجة
إنكم فاكّرين إن الأجهزة الأمنية في كندا نايمين على ودانهم؟ وبعدين
الهلع اللي إنت فيه ده كان لازم تعمل حسابه من الأول، مش بعد
فوات الآوان.

- طب أنا هيحصل لي ايه؟

- معرفش، لإنني معرفش انت متورط معايم لحد فين.

- أنا معملتش حاجة.. هما اللي كانوا بيخططوا أنهم....

قاطعه سامح قائلاً:

- مش عايز أعرف. الكلام ده تقوله للمخبرات مش ليّ أنا.

همّ سامح بالوقوف، ولسبب ما لم يردعه أحد ممن كانوا في الغرفة.
وبعد أن نزع الأنايب من ذراعه، ضغط على زر استدعاء الممرضة،
فحضرت على الفور بصحبة الطبيب.

- I called on you to tell you that I am leaving.

- But you can't!!

- Yes I can, and will... Just watch me. And yes, I
will sign on whatever waiver you need, just
make it quick.

بعد أن تأكد من عدم جدوى الحديث مع سامح، طلب الطبيب أن
ينفرد بكل من چاسون وكارولين. وبعد إنتهاء الطبيب من عظته، وجد
چاسون نفسه مجبراً على أن يقف في وجه أبيه ليمنعه من ترك
المستشفى في هذه الحالة المزرية.

- Dad, you can't leave now. For God's sakes,
you just had a heart attack.

- I don't care. We have to go and try and save your brother.

أمسك چاسون بمعصم أبيه، وأثقل عليها مما آلم سامح. ثم قال
بغضب يخنق كلماته:

- Enough dad... Enough of this madness. He's not my brother. How can you be so blind after all he did? Dad, for the love of God he's a terrorist.

بالرغم من إنهاك سامح، أمسك بقبضة ابنه وأجبره على إراحتها عن
معصمه الأيمن. ثم قبض على تلايب صدره وقال بحزم:

- Like it or not, he is my son, and that makes him your brother. And no, he's not a terrorist... He only forgot how to love, exactly like you.

ثم نظر الأب إلى كليهما، وأكمل غارقاً في حزنه:

- Both of you have lost your ways, and forgot that love is more important than even religion.

Both of you rationalize hatred, and intentionally ignored everything your mother had demonstrated in her life.

دفعت كارولين بچاسون خارج الغرفة حتى يتفادى أي صدام مع أبيه، فحماقته كانت قد أعمت بصره.

وللتو طلب سامح السيد شميت من هاتف أحمد، فكان لدينا له بهذا.

– Mr. Schmitt, I'm calling you to thank you very much for what you did, and also to let you know that Ahmed and I will be contacting CSIS very shortly.

صمت سامح للحظات، فكان قد سئم الأمر برمته، وأيضاً ليستعيد أنفاسه.

– Sam?! Are you OK?

- Yes, I am. It just hurts me to say that your services will not be requested. I understand the predicaments this would put you in if I asked you to. Besides, we will take full responsibility of our actions.

- Thanks for your call Sam, and let me know if you need anything. My services will always be available to you.

بعد الاتصال بجهاز المخبرات الكندية، طُلب من كل من سامح وأحمد أن يمكثا بالمنزل. وبعد مرور أكثر من الساعة، سُمع طرق على الباب وهمت ليليان للإجابة لكن سامح سرعان ما طلب منها التنحي جانبًا.

وعند فتح باب المنزل قام المفتش درو بتحيةة سامح، وطلب منه الأخير الدخول لكنه آثر البقاء خارجًا، ثم طلب من الأب إستدعاء أحمد. وأثناء إنتظار حضور الأخير طلب سامح من المفتش درو:

- As this is done voluntarily, I would like to join him.

تبادلا كل منهما نظرات ثابتة لبضع لحظات، ثم قال درو:

- You can, but not in the interrogation room. Trust you appreciate this is matter of national security, and you may not want to hear some, or any of what Ahmed would have to say anyways.

- Detective Drew, my son will not talk unless your guys agree to put him under a witness protection program.

صمت المفتش درو للحظات، وظن سامح أنه سيوافقهُ الطلب.

- Mr. Iskaros, this is not how it works. He talks first, then we verify how accurate the intelligence is. Then, and only then; we decide whether he would be eligible to be put under a witness protection program. I only hope your son is aware of the magnitude of this.

قال المفتش درو جملته الأخيرة تلك عند حضور أحمد وكأنه عن قصد قالها في تلك اللحظة بالذات. إستدار سامح ووجد أحمد مرتبًا، نادمًا على ما فعل. وأصرّ أن يحدثه بالإنجليزية أمام مفتش المخبرات قائلاً:

- If you really regret what you did, and want to redeem yourself, now is the time. We leave now,

and you make sure to tell them everything, and I mean everything. And do not lie, no matter what. Because if you do, that would be the end of you.

في مبني سري محكم التأمين، في مكان صَعْب على سامح فيه تحديد الإتجاهات، وإذا ما كان المدخل الرئيسي مواجهاً الشمال أم الغرب. لم يعرف أين هو، أو كم بُعد هذا المكان عن منزله. جاءه هاجس بأن يتوقف عن محاولة تحديد مكانه، فشعر بأنه ليس من باب الحكمة تحديد إحدائيات هذا المكان الرهيب.

دب الرعب في قلبه وإحتله حين وجد جنديين طويلي القامة متحجري الملامح والمعالم مرتدين زي القوات الخاصة، مسلحين ببنادق آلية لم يعرف طرازها. كانا في إنتظارهما، وما إن وصلا

لمنتصف قاعة الإستقبال الرئيسية بالمبنى المهيب الشاهق الإرتفاع،
إستدعى أحدهما أحمد بإيماءة صغيرة من رقبته. وحين شرع سامح في
إتباعه، شخصه الجندي الثاني أمراً ناهياً بالألا يتقدم خطوة أخرى.

وُضع سامح في غرفة مغلقة عديمة النوافذ، بها كاميرا مراقبة معلقة
في أحد الأركان شعر بها تفحص حتى أفكاره. وبعد مرور ما شابه
الدهر، فُتح باب الغرفة ودخل أحدهم. قدّم نفسه لسامح بالإسم
فقط، لكن المجروح إستنبط أنه أخصائي أمراض صدرية، وأنه على
الأغلب تم إستدعاؤه للإطمئنان على صحته. لحظتها أيقن سامح أنه
على الأرجح سيكون هو وعائلته مراقبين لفترة طويلة الأمد لا يعلم
مداها غير الله.

**- Thank you, and whoever asked you to come
and check in on me.**

إبتسم الطبيب وقام بتحيطه بعد إجراء بعض الفحوصات عليه ثم
غادر.

بعد مضي بضعة ساعات أخريات، كانت من أصعب الأوقات على
سامح وأطولها إنتظاراً، إنضم له المفتش درو وشخص آخر لم يفصح
عن هويته.

- Mr. Iskaros, we apologize for the long wait,
but this is unfolding into something bigger than
we initially anticipated.

- Don't want details. All I want to know is what
will happen to my son?

أشار له المفتش درو وطلب منه الجلوس كي يستريح، ثم قال له:

- We will need to keep Ahmed with us for few
days, and no, he's not being detained. It's merely
for his own protection. Also, we've arranged for
a couple of patrol units to secure the premises
around your house. They are being dispatched
as we speak, and should be there shortly.

قتل الفضول سامح، لكنه كان متأكدًا من خطورة معرفة أي معلومات أو تفاصيل أكثر من ذلك، فسأل موجهًا حديثه للشخص الغامض:

- For how long?

رد عليه المفتش درو قائلاً:

- We don't know at this point.

أغمض سامح عينيه وألقى برأسه بين راحتيه متمنيًا أن يكون هذا كله مجرد كابوس مفرع، لكنه رجع إلى أرض الواقع على صوت الشخص الآخر.

- You may need to relocate sir. We anticipate this cell, or their friends, to retaliate when they discover that Ahmed had double-crossed them.

- Well that's just not gonna happen.

- Sir, I strongly recommend you that...

رفع سامح يده اليمنى في إشارة منه إلى عدم استعداده لسماع
المزيد، وقال:

- Sir, whoever you are, and with all due respect, if it's our time, it's our time. But there's no way in hell that I will let those avaricious people terrorize, and force me to leave my home and become a fugitive.

- Well, in this case, I believe there's nothing more to be discussed.

- Can I see my son?

نظر درو للشخص الغامض وكأنه ينتظر موافقته لإجابة سؤال سامح،
ثم قال:

- He's left the building. He was transferred to a secure location.

- More secure than this?! But anyways I really want to see him.

- We will contact you, only when we are certain it is safe to do so.

كم أحس سامح بالغبرة في طريق عودته للمنزل .

كم شعر بإشتياقه لهناء . لم يكن ليحدث أيّ من هذا الجنون لو كانت على قيد الحياة.

كم شعر بالغبثيان وسئم الحياة بدونها.

كم شعر بكبر السن والشيخوخة والعجز .

هاجمته مشاعر إحتقارٍ للنفس مُزجت بالخوف من المجهول، وأنهار من الغضب الشديد تدفقت تجاه كل من يتاجر بالأديان لإماتة عقول وقلوب هؤلاء الشباب .

وصل لمنزله، وبعد أن قص موجز الساعات الماضية على أهل بيته، تركهم واتجه لغرفته الخالية. فتح دولاّب هناء الواسع والذي كان بمثابة غرفة مستقلة بذاتها. أمسك بأحد فساتينها ليشتم رائحتها التي

كانت قد أوشكت على مفارقتها. وما إن فعل ذلك حتى إنهار في
بكاء صامت .

توقع على نفسه، وأغلق باب دولابها من خلفه، وأمضى الليلة
هناك.. مع محبوبته.

ثقل هو التحرك والتنزه في هذا المكان العجيب.

لا أذكر التواجد فيه من قبل، لكنه مألوف برغم تلبده بالضباب والغيوم.

لعل التحرك صعب بسبب شاطئ البحيرة الطيني المبتل الذي أنا واقف عليه؟ أم أنني كبرت في السنين ولا تستطيع أرجلي حملي؟

أشعر برغبة قوية في الذهاب لهذا المنزل المتواجد على تلك التبة العالية. رهيب منظره، مُخيف. أتعجب لما يجذبني إليه. فهو ليس منزلي. بالتأكيد ليس بمحل إقامتي، فمنزلي لا يتعدى الطابقين، أما هذا المبني فأكثر من خمسة طوابق. على قمته صاري نحاسي متعلق بمنتصفه سهم دائم الإشارة لإتجاه الشمال. قاتم اللون، وحيد في تلك الغابة الغزيرة الأشجار، دون نوافذ. فقط باب أمامي يتوسط كياناً مستطيلاً هائلاً. غريب أنني لا أستطيع تمييز ما على جوانبه. ومهما

حاولت الذهاب لتفقد جانبي المنزل، يساراً أو يميناً، أو حتى الحديقة الخلفية، فتتبعني مقدمته. منزل لا معالم له، فقط بوابة أمامية.

تَباً، كم ثقيلة هي الحركة، وكم ثقيل هو الهواء. أتتفس بصعوبة.

من أين أتت تلك الجماجم؟ ولمن تلك العظام؟ أهي لجدودي؟

أتلك مدافن، مقابر عامة أم خاصة؟

كيف لكل تلك التوابيت التواجد تحت الأرض دون شواهد قبور؟ ترى، من خربها وإستباح حرمتها؟

دعني ألمس إحداها، فقد تدلني على تاريخ صاحبها. علّه يدلني على منفذ من هذا المكان العجيب، أو تفسيراً لم يصعب عليّ الركوض.

نمل عظيم العدد سعد من عظام تلك اليد. كادت أن تفتك بذراعي اليمنى. كيف لم ألاحظ عشه الضخم هذا؟ فقد تعدى طول العش الطيني القبيح السبعة أقدام، تخرج منه جموع النمل بالآلاف.

صوت أليف من بعيد نادى عليّ قائلاً: "أنفض النمل من فوق رأسك، وقم من وحلك، وإتبعني."

نظرت للمنزل الضخم، ألا و أنه لم يعد بنفس حجمه العظيم، بل أصغر وأضال. نفضت النمل وإنتهزته، وبصعوبة تركني.

قف..

قف..

قف..

إشارة مرور، تومض وتطفئ.

قف..

قف..

قف..

إنقطت عصاة أشبه بماسورة مياه معدنية متوسطة الطول تحولت لمضرب بيسول ضخم، وإنتظرت الإشارة أن تومض مجددًا لأهشمها.

"إتبعني"

جاء الصوت ثانية، لكنه تلك المرة أدفأ، أقل حدة، مألوفًا.

أعرف هذا الصوت. أعرفه جيداً.

إنه صوت هناء. إنها هناء.

فُتِحَ باب المنزل وتفجر الضوء خارجاً. أشعته ملأت المكان وتبدل الحال، وأمامها مثلتُ.

هناء.. محبوبتي. أين كنتِ؟ إفتقدتك كثيراً.

لساني ثقيل، وقلبي أثقل. لكني سألمسها، مهما كلفني الأمر.

أركض، أركض يا سامح.

أسرع، أسرع، أسرع. فيجب اللحاق بالمحبة هناء.

- هناء، وحشتيني.

- انت مش واحشني، خالص. لإني دايمًا شايفاك.

- هو أنا بأحلم؟

- لأ.. انت صحيت من حلم تاني. بس الحلم واقع مؤلم أكثر من

الكوابيس.

- مش عارف أوفي بوعدى.

تبًا، فحتى الدمع أجد صعوبة في إفرازه.

- تعالي نرجع مصر. تعالي نرجع عيال.

- على قد ما أنا عايضة أعمل كده، بس مش هينفع نسيب العيال.

- أنا خايف على أحمد. ممكن تخلي بالك منه؟

- أحمد بخير. بس إبقى اطلع مع چاسون رحلة صيد. هو يادوب

عشر سنين، بس هيستمتع بالرحلة أكيد.

- إوعى تمشي.. استني معايا.

- عمري ما هاسيبك، كتفي في كتفك.. كتفي في كتفك.. كتفي

في كتفك.

إستيقظ سامح، ولم يدرك ما إن كان حقاً إستيقظ من حلم، أم نام

من الحلم وبدأ حياة أخرى. فأى منهما الواقع، وما الحلم؟ أليس عالم

الأحلام هو عالم واقعي بذاته؟ أليس ما نسميه واقعاً، هو بطبيعة الحال

حلم بالنسبة لهذا العالم الغريب؟

أمسك بالمقبض، وأداره، ورغبة شديدة ملحة، وأمنية واحدة إحتلت تفكيره. أن يجد أحمد بالمنزل، ويكون ما كان مجرد كابوس.

ألمت أشعة الشمس المخترقة لنافاذة غرفته حدقتي عينيه، فلم يغلقها ليلة البارحة. بنصف عين مغلقة، ذهب لإسدال الستائر ليحمي قرنيته من شراسة الضوء.

إنتابه شعور غامر بلذة اللقاء بمليكنه. كم إشتاق إليها، وإلى حضنها الدافئ الحاني. رفع يده اليسرى ليشتم رائحتها مرة أخرى، فكان لا يزال ممسكاً بأحد فساتينها. فتش عن رائحتها، لكنها تاهت وذهبت مع الزمن. راعه الأمر، ورجع إلى دولابها كالمجذوب باحثاً عن عبقتها في ملابسها الأخرى. أخذ يشتم كل ملابسها، ولم يجدها في أي منها. في هلع، فتح أحد الأدراج ووجد عطرها المفضل يتوسط الدرج. أخرجه، بعثره في الهواء وعلى ملابسها. عله يلتصق مرة أخرى بملابسها.

إمتلأت الغرفة بعطر هناء، وإمتلأ الطابق العلوي بنفس الرائحة الزكية التي إستدعت أنف كارولين. وفي أقل من الثانية علمت أن أباه قد

إستيقظ من نومه، لكنها شكت أنه قد حصل على قسط مريح من النوم. لم يستغرق الأمر طويلاً لتدرك ما أبوها فاعل، لكن أتركه لحاله ولذكرياته، أم تذهب لإنقاذه منها؟

نقرت على باب غرفة أبيها، لكنه لم يسمعها. فتحت الباب وبأدب نادت وأستأذنت الدخول. لم يصلها رد. دخلت وتوسطت الغرفة، وبنظرة على جانبها الأيسر وجدته، وراعها ما رأت. وجدت رجلاً مجذوباً، يمسك بجميع عطور والدتها المنتقلة، يبعثر بها في الهواء وعلى ملابسها. لم يبك، لكن الإستياء كان واضحاً على معالمه. أخاف منظره تلك الفتاة الرقيقة، لكنها إقتربت منه، وما إن فعلت، نظر إليها بعينين ملتهبتين، ممتلئين بالدمع والإجهاد، أم أنها بالحري ممتلئة بالسوائل الدمعية الصباحية؟ لم تتأكد. لكنها عند رؤية ذلك الوشم الأسود الذي حاصر أعين أبيها، أيقنت أن تعب الأيام و إجهاد الزمن قد لحق به و هزمه.

- تعالي يا كارولين، ساعديني.. ساعديني أرجع ريحة هناء في هدومها.

صمتت، ويزغ فجر ما يجب عليها فعله في تلك اللحظة العصبية، بل ما يبدو أنه سيكون دورها ومسؤوليتها في لم شتات تلك الأسرة الصغيرة. لم تأبه لكثافة العطر في هذا المكان الضيق لدرجة الإختناق. فقط لإحتراق أبيها وضعفه. أغلقت باب الغرفة أولاً حتى لا يتسلل أحد ويراه في هذه الحالة المزرية. إقتربت منه، وأمسكت يده اليسرى بيمينها فتوقف عن بعثرة العطر، لكنه لم يدر وجهه بعيداً عن ملابس زوجته الراحلة. أغلق عينيه، ومال برقبته ناظراً لسقف الغرفة.

- حاسس إنني بأحلم.

قالها ولم يع إذا ما كان بالفعل حلماً أم يقظة. أوليس الحلم للواقع واقعاً؟ أليس الواقع بالنسبة للحلم حُلماً؟ أم الواقع هو الحقيقة؟ وما الحقيقة؟ إختزلت هي في تيارات كهربائية منبعثة من الدماغ لتعريف الملمس والصور والأصوات والمذاق؟ وهل تتمحور فقط حول تركيبات كيميائية تنطلق من المخ والغدد للحث على بقاء النوع؟

أم الحقيقة هي الحب؟ هذا العمق الأبعد من الزمن والمكان، وحتى الجاذبية. نعم، هو الحب. فلقاؤه ليلة البارحة بمحبوبته لم يكن مجرد

سراب أو تعبير لا إرادي عن إشتياقه لها. إستيعابها لكيانه وحضورها الدائم فوق الطبيعي في قلبه هو حقيقته.

- بابا، تعالى. إطلع من هنا وريح على الكنية.

أطاعها الأب المنسحق، وذهب للإستلقاء على الأريكة الموجودة أسفل إحدى النوافذ. كان كالجثة التي فارقتها الروح، يمشي كالشبح، غير مدرك لتحركاته. في طريقه، ألقى نظرة على الحديقة الخلفية والتي عكست حالته. فكانت في حالة مزرية، وأوراق الأشجار ذابلة ناشفة. حشائش الحديقة صفراء اللون، قاحلة وبقع منها قد ماتت بالفعل لتعكس طابعاً صحراوياً غريباً.

رأى خلف سور الحديقة سيارة سوداء عرف أنها إحدى سيارات المخبرات والتي كانت قد كُلفت بتأمينهم. تساءل إذا ما كانت هناك سيارة أخرى في الناحية الأمامية للمنزل. وقبل أن يفعل، أكددت له إبنته ذلك. إستاء للمنظر وشعر بغثيان في معدته الخاوية. شعر وكأنه هو المحبوس في منزله، محدد مهدد الحركة.

- أنا مش هاروح المدرسة النهاردة. هانزل أعمل فطار. أطلعلك الأكل هنا ولا هتنزل؟

لم يأتها رد، بل لم يسمعها الأب. وسرح بباله في صور زوجته الموضوعة على الطاولة الجانبية للفراش. جلست كارولين بجانبه، وأمسكت بيده. شعر بما ظن أنه لن يشعر به بعد وفاة زوجته. فها هو سامع بوضوح ما تريد كارولين قوله دونما إصدار صوت.

- عندك حق. جه الوقت اللي نطلع فيه هدوم هناء، ونبعثها لحد محتاج.

لم تستعجب كارولين ما قال وفهم، بل إفتخرت بتلك الصلة الروحية بينها وبين أبيها. نفس الصلة التي كانت بينه وبين أمها.

- وبعدين هي مش موجودة في هدومها وبس. دي موجودة..

- في قلبنا كلنا.

- بس أنا هاحتفظ بحاجة واحدة بس.

- طيب تعالى نبتدي، قبل ما تغير رأيك.

كانت تقصد مداعبة أبيها، وإبتسم فقط جبرًا لخاطرها. وبالفعل بدأ سامح وإبنته في إفراغ محتويات خزانة هناء. ثم توقف فجأة، مستدعيًا چاسون حتى تتسني له فرصة إختيار ما يرغب في الإحتفاظ به من ممتلكات أمه، كذكرى.

دون أن يتحدث، دخل چاسون الخزانة وإلتقط خاتماً. ذهب أبيض مرصع بالياقوت والماس، متذكرًا يوم تخرجه من المرحلة الإبتدائية، وكيف إرتدته أمه بإفتخار حيث كان هدية إبتاعها إياها من مدخرات مرتبه بعد طول عمل صيفي شاق. حمله بين أصابع يده اليسرى، وبدل النظر بين الخاتم وبين أبيه، وإبتسامة باهتة مترددة كاد أن يستأذن الأب لكي يحتفظ به. ضمه سامح إلى صدره، فبكي الشاب.

- You can have anything you want Jason. I love you.

لم يتأكد من رد فعل وليده، وإذا ما كانت تلك الدموع دموع ندم، أم حزن، أم حنق. لكنه إستلذ قربه على أية حال.

- What do you think if we go fishing this weekend?

أوما چاسون رأسه، ودون إلقاء التحية على أحد، رحل.

إستوقف سامح عقد فضي لهناء يتدلى في نهايته خرطوش مصري يحمل إسمها بالهيروغليفيه، كان قد إبتاعه لها هدية عيد ميلادها السابع عشر، وتذكر كم فرحت به لحد أنها لم تخلعه أبدًا لمدة زادت عن العشرة سنوات، حتى في يوم زفافهما. فكانت تكثرث لقيمة الأشياء الحقيقية وما تمثله، لا القيمة النقدية، ولا للمعان المعادن. قرر أن هذا ما سيحتفظ به، طوقه حول عنقه في الحال. ثم ترك مهمة إخلاء باقي محتويات الخزانة لكارولين.

بعد أن إستحم ونظف نفسه من شوائب الحزن والكآبة، شرع بالهبوط للطابق الرئيسي وإذ بليليان منتظرة عند مؤخرة الدرج السفلي وفي يدها فنجان قهوة ساخن، وعلى وجهها إرتسمت ملامح إبتسامة صادقة.

- صباح الخير يا سامح.

تداركت ما قالت، لكن لم يسعها الإعتذار عن نعت هذا الصباح بالخيرة. أخذ فنجان القهوة من يدها، مقبلاً جبينها شاكراً.

- ماما، إحنا بنفضي دولاب هناء، ولو عايزة تحفظي بأي حاجة من حاجتها، ممكن تطلعي تختاري.

تشابكت مشاعر ليليان وتعقدت بين الإرتياح والإمتعاض. فطالما شعرت بوجود إبتها في الحياة، وحضورها الدائم بالمنزل بسبب وجود أغراضها. شعرت أن موافقتها على قرار سامح يحمل في طياته خيانة لها. لكن الحياة عجلة مستمرة الدوران، ويجب علينا التحرك معها. وأخيراً قررت هي الأخرى تعضيد إحساسها بالإرتياح لقرار سيد البيت. فهناء في القلب والعقل، وذكرها تتخطى مجموعة من الأقمشة إرتدتها يوماً ما.

أما سامح، فذهب لمكتبه المنزلي، ليستعد لمواجهة واقع كابوسه.

صرخ هاتف منزله الأرضي، غير معلن عن رقم بعينه، بل طُمس كرقم خاص. تردد في الإجابة، وكلما طال الرنين، زاد تردده. ترى من الداعي؟ وهل المخبرات مراقبة لهاتفه؟ إذا كان الطالب أحد هؤلاء الأوغاد، هل باستطاعتهم تفقي آثار المكالمة؟ أم أنهم فقط أوغاد جبناء ولا تعلقو بهم الشجاعة للاتصال بمنزلي؟

كادت تتحول المكالمة إلى جهاز تسجيل الرسائل، لكنه رفع سماعة الهاتف، وانتظر. إرتجفت أوصاله، وما إن سمع صوت المفتش درو، سقط جالسًا على مقعد بحانب الهاتف في الطابق الرئيسي.

- Mr. Iskaros, there's nothing to fear. We are monitoring your phone for your own safety only, and if they tried to contact you, we will be able to trace the call.

لم يمانع سامح تكهن المفتش. ليس فقط لكونه صائباً، لكن تأكيدَه قدرتهم على تتبع المكالمات المشتبه فيها كان بمثابة دَفء نار الحطب الملتهب داخل الموقد في يوم قارس البرودة، مرحبٌ به.

- Can I talk to my son?

- This is why we called.

تلعلم سامح عند سماع صوت الشاب، ولم يعرف بما يبدأ حديثه. فالسؤال عن أحواله لم يكن في محله. سؤال ساذج، غير طبيعي، إخترع فقط للمجاملات الإجتماعية. والسؤال عما إذا كانوا يقومون بتعذيبه له تبعياته، خاصة أن المحادثة على مرأى ومسمع من الجميع هناك.

- Dad?

قرار الحديث لم يكن أبداً بالصعب على سامح، ومواقف ليست عديدة فشل فيها إيجاد ما يقول. لكنه يجب عليه إيجاد جملة مفيدة وبسرعة حتى لا يفشل أحمد في مواجهة أشباحه.

- Can we speak in Arabic? I mean you can get someone to translate what we are going to say later.

بعد ثوان جاء رد أحمد مؤكداً أن المستمعين للمحادثة وافقوا على مطلبه.

- أيوة يا بابا ممكن نكمل كلامنا بالعربي.

- كل اللي عايز أعرفه، إنت سامحت نفسك؟

صدم أحمد بسؤال أبيه هذا، فكيف يجيبه؟ وهل الغفران للنفس أمراً ضرورياً؟ أم أنه كذبة يكذبها البعض على أنفسهم لمحاولة النسيان، أو بالحري التظاهر فقط بغير ما في باطن النفوس؟ أم أنه عين الكبرياء؟ وهل بإستطاعة أحد أن يسامح نفسه؟ فكيف أغفر لنفسي فعلتي الشنعاء تلك؟ فقد خنت كل من أحبوني. خنت أبي، وأخي وأختي، بل خنت أمي. أمي، من أحببني حقاً وقبلت الموت لتعطيني فرصة الحياة.

صمت ولم يسطع الإجابة، وفرح سامح بهذا جداً حيث لم يكذب عليه، أو على نفسه.

- أصل يابني لو ما سامحتش نفسك، هتفضل في عذابك. ولو ما سامحتش اللي أرادوا بيك وبالبلد دي شر، مش هاتعرف تسامح نفسك.

- أنسى خيانتني إزاي؟

- إنك تسامح غير إنك تنسى. عمرك ما هتنسى، ونصيحة مني، إوعى تنسى. بس ما تجلدش نفسك. وهو ده الفرق.

صمت أحمد كان على الأرجح بسبب تفكره فيما قاله أبوه الذي أصر على تغيير مجرى الحديث بسؤاله:

- بتصلي؟

سمع سامح نصف ضحكة، وفهم مغزاها. وكاد أن يبكت ابنه، لكن فيه ما فيه، وتحميله فوق قدرته يؤدي فقط لإفشاله.

- لو ما سامحتش نفسك يا أحمد هتفضل في عذابك، وده هيبيني حاجز بينك وبين اللي خلقنا.

تنهد أحمد وبصوت منخوق سأله:

- المهم إن ماما تسامحني.

- وانت بتسألني أنا ليه؟ ما هي عندك في عقلك وقلبك. روح إسألها وشوف هي هتقول لك إيه. ولو قالت لك أي حاجة غير إنها بتحبك وإنها فعلاً سامحتك، يبقى ده مش صوتها، ده صوت الجلاد اللي جواك وعائز يلتهم نفسك.

- أنا لازم أمشي دلوقتي يا بابا، سلملي على إخواني وتيته.

كان سامح على يقين أن المفتش درو حاضر يستمع لتلك المحادثة، فطلب منه البقاء على الخط بعد رحيل أحمد ليتسني سؤاله عن موعد الإفراج عن أحمد. فقام المفتش بتلاوة نفس الرد المعتاد، وأنهم سيقومون بتحديث الأخبار لديه في الوقت المناسب. فقط في تلك المرة أنهى درو محادثته مع سامح بقوله:

- Just follow the news the coming few days Mr.
Iskaros

وبعدها ببضعة أيام، قرأ أخبار إلقاء القبض على أكثر من عشرين شخصاً، أغلبهم من الشباب المراهقين تأكد تورطهم في خلية إرهابية محلية النمو، قاموا بتخطيط عدد من الهجمات على مناطق حيوية في مدينة تورنتو الكبرى.

أصبح هذا حديث المدينة لعدة أيام، بل أسابيع. فالكل تكلم عما كان هؤلاء الأوغاد على وشك إقترافه. وبين مؤيد مبارك ومعارض لاعن، تباينت الآراء. وأحس سامح بالخجل والعار في كل مرة سمع فيها أحد الآراء. فقد شعر بمسؤوليته الشخصية تجاه ذلك الأمر.

بدأ يبكت نفسه ويعنفها، ويفعل بالضبط عكس ما نصح أحمد. فكل ما يحدث لا بد أن يكون خطأه. بالتأكيد فشل في أمر ما، في وقت ما سقط في بئر الحزن ناسياً أن الحياة أهم من الموت. فقد أمضى السنوات الثلاث الماضية على قيد الحياة. حياً، لكنه لم يعيش تلك السنوات. كان على وضع الطيار الآلي.

من غرائب الأمور ومفارقاتها، بل ما أدهش سامح جداً حين بدأ الإختلاط والاندماج في المجتمع الكندي أن قطاعاً كبيراً منه يتسم بالطابع القروي، وفيه يصعب الاحتفاظ بأسرار أو خصوصيات. فالأخبار فيه تنتقل من فم لأذن أسرع من تنقلها على صفحات وسائل التواصل الاجتماعي. أرق ذلك سامح جداً، وتساءل إذا كانت أخبار ابنه، وما سيطلق عليه من إشاعات، ستصبح بمثابة كعب أخيل له ولمستقبله المهني.

تم إستدعاؤه ذات نهار إلى غرفة الإجتماعات الكبرى في شركة الأدوية التي يعمل بها. كانت بالطابق العلوي في عمارة فخمة بوسط البلد بمدينة تورونتو. وكانت تلك هي المرة الأولى التي دعي فيها سامح لتلك الغرفة، فكانت خاصة بإجتماعات أعضاء مجلس الإدارة فقط. جلست سيدة أنيقة في آخر الغرفة غير آبهة لوجوده، وأخذت

تدق على جهاز الحاسوب الموضوع أمامها وكأن لا وجود له في المكان. طلّت غرفة الاجتماعات تجاه الجنوب الغربي مراقبة لبحيرة أوناريو. وكانت بلا نوافذ، حيث كانت الحوائط ذاتها نافذة زجاجية كبيرة، إمتدت من الأرض للسقف. طال إنتظاره واقفًا، ولم يدعه أحد للجلوس، فبدأ بالتنزه بنظره إلى الخارج، وغمرته نشوة عظيمة طغت على مخاوفه من تلك المقابلة. مشاهدًا الطريق السريع المسمى بطريق الملكة إليزابث، تعجب كم صغيرة هي السيارات، وكم بطيئة حركتها. على أرض الواقع، يطير بعض السائقين بجانبه متجاوزين المئة والخمسين كيلومترًا أحيانًا. لكنهم الآن مثل السلاحف. لم يفسد المشهد البانورامي الهائل هذا على إرتفاع المئتي متر سوى مبنى على الناحية اليسرى. لم يكن بنفس العظمة والإرتفاع، ولهذا أفسد المنظر. ربما إذا كان على نفس الارتفاع لأضاف للمشهد السينمائي، لكنه قبح منه. نظر سامح حوله ولم يجد أي طابع مميز للغرفة، كانت خالية من أي لوح أو تماثيل أو أي شيء يحفز على الاحتفاظ بصورة تذكيرية للمكان بمخيلته. كانت باردة، خالية من الروح، أقرب لبيوت وشركات دفن الموتى.

إنضم للغرفة نائب الرئيس التنفيذي لإدارة المبيعات، ومعه جمع من المديرين منهم المعروف لسامح كالمدير التنفيذي لشؤون الأفراد، ومنه الجديد عليه. جميعهم في حللهم الداكنة، والقمصان البيضاء المنشأة التي إنطعت عليهم وعلى أسلوب تحيتهم. الجميع رسمي جدًا، وكل حرف يخرج من فمهم محسوب موزون، حتى إيمااتهم وإبتسامتهم.

إبتسامه مبالغ فيها، مد نائب الرئيس يده لشحية سامح قائلاً:

- Sam, how are you today. Sit, please... Has Suzi offered you anything?

بسبب نباهته وفطنته الفطرية وخبرته، بدأ سامح يفهم فحوى دعوته لهذه الغرفة، وأنها ستكون المرة الأخيرة التي سيستمع بمنظر بحيرة أونتااريو من خلالها.

أوماً رأسه نافيًا، ويسرعة البرق، دون فقدان تلك الابتسامه الكاذبة، إستدار للسيدة الجالسة، الواقفة الآن إحترامًا له، وقال مؤنبًا:

- Suzi!!

- What can I get you Mr. Iskaros?

- Just water please, thank you.

- Sam, please, sit.

إنتظر الجميع، بما فيهم سامح حتى جلس نائب الرئيس أولاً، ثم
جلسوا. تعجب سامح وتساءل في نفسه كيف تكون الحياة العسكرية
إذن؟

بدأ نائب الرئيس في مدح سامح، وسرد تاريخ إنجازاته المهنية في
الشركة، وتسلقه السلم الوظيفي لفطنته، وحنكته، ومدى سعادتهم
لإنتمائه للشركة، مما أفقد سامح إهتمامه بالحوار. فكان على دراية
كاملة بهذا الروتين عند فصل أحدهم. فقد قام بتدبير تلك المقابلات
بنفسه من قبل. حفظ الديداجة بكل كلماتها، حتى نغمات الصوت،
والسكتات والنظرات.

شرد بنظره إلى خارج الغرفة، مشاهدًا قاربًا شراعيًا في عرض البحيرة،
ظن أن قبطانها يجاهد في رفع الشراع. وقرر ساعتها أنه سيشتري قاربًا
لنفسه. ربما يذهب لإحدى الجزر الكاريبية في الجنوب يومًا ما.

قاطع نائب الرئيس مباغتًا:

- Is this because of my son?
- Oh Sam. Don't be over sensitive. This is strictly professional as we are downsizing, and...
- You know that no one will hire me. If you fire me, I will be unemployable. Surely you do realize that, don't you?!
- Mr. Iskaros, you are a very smart individual, and I am certain that a lot of organizations out there will be pleased, if not honoured to have you on board. I mean, please feel free to use my name personally if you need any references at all.

- Listen, let's cut the bullshit. What's your severance package? Because, based on the overall number, I will decide whether to sue or not.

وهنا نظر نائب الرئيس للمدير التنفيذي لشؤون الأفراد، منتظرًا
إجابته على هذا السؤال، فقال:

- Well, you've been with the company for number of years, and the law clearly states that...

- Law?? Please spare me this speech, you people are the last to speak of the law, never-mind what's right and what's wrong.

- Sam, we can do this the easy way, or the hard way.

- Well, you know me. I always prefer the hard way. I will have my lawyer contact your lawyers.

ختم سامح إعلانه الأخير هذا عند وقوفه قبل مغادرته الغرفة، بل المبنى. وفي طريقه للمنزل، قرر العروج على إحدى صيدلياته، وكاد أن يتصل بالسيد شमित للبدء في إتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة تجاة شركة الأدوية. لكنه لسبب ما فضل أن يعطي لنفسه بعض الوقت ليهدأ كي يستطيع التفكير بوضوح.

كانت چانيس شريكته متواجدة بالصيدلية، وفوجئت بهلول سامح. إضربت ملامحها، وبسرعة حاولت إخفاء بعض الأوراق والملفات الممسكة بها في إرتباك لاحظته سامح.

- Sam, what are you doing here? Aren't you supposed to be at the company today?

بحدة، وتجهم رد عليها:

- What do you mean?

- Well, I wasn't expecting you today.

- Something happened at the Pharma company, and I left. What's that you're holding in your hand?

- Nothing.

أصابه دوار مباحث، وجاهد ضد ما إستنتج، لكنه أصر ألا يظهر هذا لشريكته، فهي على وشك أن تنضم لقائمة نابذيه.

هز رأسه رافضاً، وابتسم.

- Well, I have to admit, I did not see that coming. Especially from you.

تظاهرت چانيس بالبله، وبجهلها معنى ما قاله شريكها، وما أوشكت على الإستمرار في التمثيلية، حتى قاطعها سامح قائلاً:

- Well done Janice. Bravo... I have to give it to you, keeping this, this charade, this mask of holiness and righteousness. Bravo...

- Excuse me?!

- No I don't think I will. Cut the bullshit Janice.

يا لسخرية الأقدار، فلم يتخيل سامح خروج هذا المطلب من فمه
مرتين في أقل من الساعة. وإستطرد قائلاً:

- Listen, you want out, that's fine, but rest assured if you want do this and involve lawyers, that I will fight you, and that I will fight you hard with all I have.

إمتزج كبرياؤها بحنقها، وبما أن القناع سقط، قررت هي الأخرى
طعن سامح بكل من تملك من خسة.

- You're delusional Mr. Iskaros. You don't have that much, not enough to fight me anyways. Especially now after you got fired.

"كيف علمت؟ وبهذه السرعة؟ هل بدأت الشركة في تلويث سمعتي
بالفعل؟ هل شرعوا في إغتيالي معنوياً؟"

- You wanna fight me? Think again. A father of a terrorist? You think you will have any judge's sympathy? Come, come down and join us on planet earth. You are a joke Sam, that what you are, a joke. And you make me sick.

إهانتها لم تؤلمه، وإنحطاطها فقط أظهر حقيقتها التي ستعيش هي معها طالما حيت. لكن الحقيقة المؤلمة التي انفجرت في كلماتها كان لها أعظم التأثير. بالفعل لم يعد يملك الكثير، لا مال ولا مساندين معضدين. وحدته كادت أن تفتك به.

تمت التسوية بين سامح وشركة الأدوية التي قامت بفصله، حيث قامت الشركة بدفع ثلاثة أضعاف مستحقاته بصفة إستثنائية، نظراً لإعتبرات قانونية أكبر وأعقد. ففي حال فصل أحد الموظفين بإحدى الشركات، خاصة إن إعتلى منصب مدير تنفيذي أو أعلى، وإذا كان سنه تعدى حدًا بعينه يصعب بعده الحصول على وظيفة مشابهة في مؤسسة أخرى، وبنفس المنصب الإداري، ينظر القاضي في الحالة الماثلة أمامه نظرة مختلفة، وفي أغلب الأوقات ما يقضي لصالح المتضرر الذي تم فصله.

كانت تلك هي توصيات السيد شमित عن كيفية مقاضاة الشركة، خاصة أنه كان من المستحيل إثبات تعسف الشركة في فصله، أو ربط ذلك بظروف سامح الشخصية، وصلته بشخص تم وصفه ظلماً بالإرهابي. كما إقترح السيد شमित على سامح قبول التسوية متحاشياً حرباً قانونية مع الشركة .

- Sam, I suggest you accept the settlement offered. After all, you have only one lawyer, while they have a dozen, and can easily hire dozens more. Although there's a chance we could win this, they can perform some legal tricks to prolong the process, and until the judge would reach a decision, this would cause you to bleed a lot of money.

سئم سامح الدخول في حروب أنهكت قواه، فقبل التسوية.

- Thanks Aaron for everything. However; and as much as I appreciate your services and friendship, I really hope this would be the last time I would need you to represent me at the court of law.

إبتسم السيد شميت، وأدرك أن لا نية لسامح في خوض معركة أخرى مع شريكته السابقة چانيس. وأدرك أيضاً أن عميله العزيز قد حمل حسب طاقته طيلة الأعوام الماضية، وأكثر من ذلك فلن

يحتمل. إنتصب من خلف مكتبه، ثم تحرك ناحية سامح وبيد ممدودة صافحه بحرارة، وبلكنة أوروبية ميزها سامح بصعوبة قال:

- هنفدل أسدكاء.

إبتسم سامح مرحبًا بمحاولة السيد شميت تحدث العربية، وقال:

- Of course, but you won't get anymore of my money.

قهقهه الإثنان، ثم إصطحبه السيد شميت للمصعد بنفسه مودعًا.

متذكرًا كلمات أميرته في حلمه، رافضًا إستمرارية شعوره بالغيرة حين يشاهد جيرانه لاهين راقصين مستمتعين بالحياة الصيفية على متن قواربهم في عرض البحيرة، قرر سامح شراء قاربه الخاص. لكن أي قارب يتناع؟ أيكون إختياره للقارب شراعيًا، أم يكون مزودا بمحرك؟

فحلّمه إبحار البحار السبعة، وإكتشاف موانئ جديدة. لكنّه حلم غير واقعي لعدم تملكه متسعاً من الوقت للسفر بعيداً. كما أنّ فكرة قضائه عطلات دورية معسكرًا على متن القارب، والوقوف به والتمركز قرابة شواطئ تحتلها أعشاب لزجة قد تعلق بالقارب أو به إذا ما قرر القفز للإستحمام في المياه، كانت كافية لإثباته عن متابعة تلك الفكرة. وعليه قرر التحدث مع أحد جيرانه عن نية إقتناء لقارب هو الآخر.

- Don't do it. Don't even go there. It's the biggest mistake of my life, and I regret it. If you want to buy a boat, buy mine. Actually I'll give it to you. Just take it, and I don't want the money.

قهقهه سامح من أعماقة، لكن كُره جاره لقاربه حيّره حيث شاهدته مستمتعاً مع أسرته على متن القارب مرات ومرات. تذكر لعبه الدائم لموسيقى صاحبة جدّاً أسمعت كل الشاليهات المطلة على شاطئ البحيرة، ورقصه الماجن وقفره في الماء مع أبنائه غير آبه بدرجة حرارة المياه باردة كانت أم دافئة.

– Forgive me for asking, but how is it you hate having a boat so much? I mean I can tell you really enjoy your time on board with your family.

– I don't hate having it, I hate owning it. It's expensive to keep and maintain, time-consuming, and sometime just a pure frustrating ordeal. I can go on and on and tell you horror stories, and the bottom line is that owning a boat is a hole in the water into which you throw money. But really, what do you need one for, because this is what it comes down to.

– My dream is to sail the seven seas of course, but realistically, I just want to take my son and go fishing.

– Then you don't need a large boat, a simple small sailboat would do the trick.

شكره سامح على توصياته السديدة، ودعاه الآخر للإنضمام له على متن قاربه يوماً ما للتنزه في أنحاء البحيرة والبحيرات المجاورة.

رجع لمحلّه وبدأ رحلة البحث في شبكة الإنترنت عن قارب شراعي صغير في حالة جيدة. لكنه لم يكن مُعدّاً لهذا الكم من المعروض. فبالرغم من بساطة مطلبه، إلا أن الإختيارات كانت شبه لا نهائية. وبين اللامع البراق، والبسيط لدرجة القبح، تباينت أشكال وألوان وأحجام القوارب، حتى وقع إختياره على أحدها. كان بدن القارب الخشبي أبيض اللون، وجسده من الداخل كمؤخرته، فقد تم طلائهما بلون بني أنيق. ذو شراعين، وكان طول الضلع العمودي من القاعدة لرأس الصاري إثنتي عشرة قدما. وطول القاعدة الخشبية نفسها تعدي الأقدام الستة بقليل مما أعطى للشرع الرئيسي إحساسا بالعظمة والكبرياء. أما الشرع الأمامي فكان أصغر بطبيعة الحال، وكان حبل التثبيت الرأسي أطول من الصاري بشيء بسيط. توج منبر القارب بقوس معدني لامع شديد الأناقة جذاب، كما زود بذراع دفة ذات لون خشبي طبيعي. لكن الإسم الذي حملته هذا الزورق الجميل كان السبب الحقيقي في إنجذاب سامح له، فكان يحمل اسم

RACHEL، حيث ذكره هذا الإسم بقصة حب سيدنا يعقوب
لزوجته، السيدة راحيل.

على الفور قام سامح بالاتصال بوكالة بيع القوارب لتحديد موعد
يعاين فيه الزورق. وما إن وصل لساحة الوكالة، إنضم له ثلاثة من رجال
المبيعات، كذاب إجتماع وحلق حول قطعة حلوى مكشوفة. إحتوت
الساحة على أكثر من عشرين قاربا، منها الشراعي البسيط، ومنها
اليخوت العاتية العابرة للبحار، أقرب لكونها سفنا منها يخوتاً. قدم
سامح نفسه لرجال المبيعات، فرحب به الشخص المعني والذي
تحدث معه سابقاً وحدد موعد المعاينة، و عليه إنصرف الإثنين
الآخران في حسرة وحنق. تساءل رجل المبيعات إذا ما كان يرغب في
الذهاب لمعاينة RACHEL أم هو على إستعداد لإعتبار خيارات
أخرى، لكن سامح طلب الذهاب فوراً لمعاينة الزورق، وتمنى من كل
قلبه أن يكون بحالة جيدة. بالفعل وجدته في حالة ممتازة، وعليه بدأت
عملية مفاوضات طالت مدتها. وبعد الإتفاق على سعر البيع والشراء
وتكاليف التسجيل، شرع رجل البيع بإتخاذ جميع إجراءات نقل
الملكية، والترتيب لشحن القارب لعنوان الشالية بمنطقة مسكوكا.

بعد دقائق طال إنتظار سامح فيها، إهتز هاتفه المحمول داخل جيب سرواله معلناً إتصالاً قادمًا من منزله. علم بأنها ليليان حيث كان كل من چاسون وكارولين يقومان بالإتصال به من هواتفهم المحمولة الخاصة بهما.

– أيوة يا ماما، إزيك؟

– أيوة يا سامح، أنا كويسة. خليك معايا ثانية. في حد عايز يكلمك.

أثير فضول سامح، وتوجس من الأمر، خاصة أنه لم يسمع غير سكون قادم من الناحية المقابلة للهاتف. سمع صوت تنفس لأحدهم، لكن لم تأت تحية أو أي إعلان. ظن بالإتصال مشكلة ما، وكاد أن ينهي المكالمة ليعاود الإتصال بالمنزل، حتى جاءه أعظم إعلان سمعه منذ أشهر طالت وقست عليه.

– أنا أحمد يا بابا.

قفز قلبه راقصاً في صدره، وشعر بفرحة العصفور المسجون في قفص عند الإفراج عنه وعتقه.

– مش هنتكلم عن اللي فات، لإنه مات. هنبص لقدام. فاهم يا بني؟

لم يكن سامح ولا هناع كغالبية الآباء المصريين المهاجرين ممن يعملون أقصى ما في قدرتهم لإخفاء أبنائهم وعزلهم عن أعين العالم والمجتمع الخارجي خوفاً وحماية. بل آمنوا أن دورهم كأباء ينحصر في النصح والإرشاد وتزويد أبنائهم بأسلحة فكرية وأخلاقية كافية وافية، من خلالها يستطيع الأبناء أن يقرروا لأنفسهم ما في صالحهم.

كان أهم درس علماه لأبنائهم وذكراهما به يومياً، هو تحمل مسؤولية قراراتهم. فلكل قرار ثمن سيدفع ولو بعد حين. وعليه يجب عليهم التفكير ملياً قبل الشروع في إتخاذ أي قرار، خاصة إن كان قراراً مصيرياً.

أعطياهم مساحة من الحرية في الدخول والخروج، والمأكول والمشرب، وحتى الملابس والأصدقاء. عضداهم في كل شيء، حتى مشاريعهم الصغيرة حين كانوا أطفالا يتباحثون فيما بينهم عن كيفية زيادة دخلهم من خلال بيع المرطبات في الشارع الأمامي لمنزلهم، أو

في عرض خدماتهم لقص الحشائش في الصيف، وكسح الثلوج المنهجرة من الممرات الخارجية للمنازل المجاورة لهم في الشتاء. وكان أهم وأصعب درس لأبنائهم الثلاث هو إرشادهم في كيفية التدبر المالي، والإدخار.

وكلما كبر الأبناء في السن إتسعت مساحة تحركهم في الحياة بحرية. ولم يندما على ما فعلاه معهم، فكانا يحصدان ما زرعا في عقول الصغار. ومع كل قرار صائب إتخذه أي منهم، زادت ثقتهم في أبيهم، وفي أنفسهم.

كان چاسون أول من إتخذ لنفسه صديقة من أترابه في المدرسة، ورحب بها كل من سامح وهناء جداً، وأشعروها أنها أصبحت جزءاً لا يتجزأ من أسرته الصغيرة. خاصة أن تلك العلاقة الجديدة ذكرتهما بحبهما وهما في مثل سن چاسون.

كانت صوفيا من أصول أرجنتينية، فأبواها هاجرا لكندا مع أبيهما قبلهما حين كانا أطفالاً صغار في مطالع الثمانينيات من القرن الماضي. كانت من بيت طيب، حسنة الأخلاق، مليحة المنظر. طويل

كان شعرها مموجاً، ذات عينين عسليتين واسعتين، ووجه مستدير. ظفرت أنوثتها مبكراً، وكان سامح يستخدم هذا لمداعبة چاسون حين كان يعرب عن تقديره لإختيار الفتى لها كصديقة.

تمر الأيام وتذهب السنون، وتتوحد علاقة چاسون بصوفيا، خاصة بعد وفاة هناء. سعد سامح جداً من إقتراب صوفيا لإبنه. فكانت بالنسبة لچاسون المتنفس الوحيد خارج المنزل وداخله. فقد توترت علاقة سامح بچاسون جداً، وكانت هي السبب الوحيد لتواجهه بالمنزل حيث أصرت على اللقاء به في منزله. ظن سامح أن حكاية حبه لهناء ستتكرر في حياة صغيره، وأسعده ذلك كثيراً. فهناء كانت حبه الحقيقي والوحيد، وظن أن علاقة إبنه بمحبوبته حُكم عليها بالبقاء للأبد.

لكن الرياح تأتي أحياناً كثيرة بما لا تشتهي السفن. وبعد التحفظ على أحمد من قبل المخبرات، تبدل حال كل من كانوا حول هذه الأسرة. وبدأت صوفيا في التنصل من تلك العلاقة، ربما بسبب ضغط من ذويها، أو من أترابها، أو العرف العام في الإبتعاد عنهم سيئو السمعة.

سخرية القدر جعلت من سمعة الإنسان أمراً يشبه قلعة رملية على شاطئ البحر. يطول بناؤها ويصعب، وتكون دائماً تحت تهديد السيف من ربح، أو موج. تتبدد وتفنى في طرفة عين، ويستحيل إعادة البناء.

حاول الفتى المستحيل لإرضائها، وإقناعها بالبقاء لكنه فشل. وفي يوم أنهت صوفيا كل شيء، متخذة حجة وقوعها في حب آخر خنجرا غرسته في صدر چاسون، وأمات به الكثير. كما قُتلت قدرة أبيه على المواساة.

حاصر الفشل سامح، والكآبة أحكمت الإنعزال. من شدة خجله، لم يواسِ ابنه، بل تحاشي النظر إليه. تحمل مسؤولية ما يحدث، عالماً أنه يحمّل نفسه ما لا طاقة له به.

راقبت كارولين ما يحدث من مسافة ليست بالبعيدة. كم تمننت إنشقاق السحب وهبوط السمايين لمحاربة هذا الفشل الأسود الذي خيم على أسرتها. كم إلتاعها غياب أمها، بلسم هذه الأسرة. كم تحيرت لم يحترق المُحِب ويتعذّب. أين العدل؟ أين اليقين؟ أين ذهب شمس الحق؟

وجدت أخاها ذات يوم ملقى على أريكة في ركن مظلم بيدروم المنزل. جلست بجانبه، وأمسكت بيده. وبعدها بلحظات، إنضمت لهما ليليان حاملة ملابس متسخة تعتزم غسلها.

مزّع قلبها منظر حفيدها المزري، لكنها كانت قد سئمت تلك السحابة السوداء المخيمة على هذه الأسرة منذ أيام، أسابيع، بل أشهر طويلة.

نظرت لكارولين، وطلبت منها ترجمة ما تعتزم قوله لحفيدها.

- أنت حبيت صوفيا، وإحنا كمان. دخلناها بيتنا، واعتبرناها جزءا وعضوا في الأسرة دي، ومعاملتنا ليها أثبتت ده. لكن ده ماكنش كافي. هي كمان كانت لازم تحس إنها فعلاً جزء من الأسرة دي، وده معناه إنها لازم تكون معاك على الحلوة والمرة. هي أخذت قرار، إنها مش عايزة تتوسخ باللي اترمي ظلم علينا. مش معنى كده إنها إنسانة وحشة، بس معنى كده إنها مش ليك. هتكون عايزاك وإنت بتلمع بس، والحياة يابني مليانة زبالة، وهيترمي منها عليك في يوم من الأيام، ولمعانك ده هيظفي.

عند وصول سامح لمنزله، إستقبلته كل من ليليان وكارولين عند الباب الأمامي والذي فتحاته على مصراعيه. من خلاله لمح أحمد من بعيد، واقفا عند الباب الخلفي للمنزل والمطل على الحديقة الخلفية. مثل أخيه بجانبه وعلى وجهه إرتسمت ملامح دافئة مرحبة.

وصل سامح لمنتصف الطابق الرئيسي، ثم توقف. لم ييك، بل إنشرحت أساريره، وإرتسمت على وجهه إبتسامة عريضة أظهرت أسنانه البيضاء. فتح ذراعيه داعياً أحمد للإقتراب وإلقاء نفسه في حضنه. ركض الأخير ناحيته ملتاعاً، وإرتمى في ذراعيه كطفل صغير لا يتجاوز العامين. إنحنى ليقبل يد أبيه، لكن سامح رفض، وساعد عوده على الإنتصاب. رفع رأسه عالياً، ولم يتوقف عن تقبيل كل جزء من وجه ابنه.

فرح عامر ملأ المنزل. فرح كان قد غادره لفترة يعلمها الإله. صرخت كارولين حين أصدرت ليليان زغرودة مدوية من حنجرتها، والتي كانت بمثابة شرارة إنطلاق الإحتفالات.

ذهب چاسون على الفور للجهاز الصوتي الموضوع بجانب التلفاز، وقام بلعب موسيقى وأغاني زايد في صخبها. رقص الجميع فرحاً، وقفزت كارولين مع ليليان، وإتصل سامح بوليد وچيچي لينضموا إليهم. إحتفل الجميع كما لم يحتفلوا من قبل، وصفق وليد عند وصوله تصفيقاً حاراً وأطلق الصفاير من فمه إحتفالاً. ورقصت چيچي مقبلة أحمد والآخرين.

نظر سامح للوحة فحمية لهناء معلقة على الحائط الأيسر بجانب التلفاز، والتي كان قد رسمها لها أحد فناني شوارع مدينة تورونتو منذ عقد من الزمان، ورآها مبتسمة، فرحة، راقصة.

أخرجت ليليان الكثير من الأطعمة من الثلاجة، وأعطت سامح ريش ضأن ليقوم بشيها، وعرض وليد المساعدة.

خَفِضت الأصوات، وإنهمكت چيچي مع ليليان في تحضير أشكال
وألوان الأطعمة. ولم تأبه بالمبالغة في كم الطعام الذي سيقدم، فالיום
يوم فرح.

إقتربت كارولين من أحمد، وبصوت منخفض قالت:

- إوعى تنسى الليي ماما قالته لك. إنت جزء من الأسرة دي. مش
ضيف، ولا بنحن ولا بنمن عليك بحاجة.

قبل أحمد جبين أخته، وقال:

- ماما مش بس عايشة في قلبي وعقلي، لكن فيكي يا كارول. في
ملامحك وكلامك.

تركها أحمد وإنضم لأخيه المنهمك في تغيير الأسطوانات، فقد
تقمص شخصية الذي چي.

- I heard about you and Sofia, Jace. I'm sorry.

– It's for the best. She didn't want to be a part of this family and share our pain. So, what can I say? Shit happens.

– It's all because of me.

– It's Ok Ahmed, don't worry about it. It's good having you back.

– It's good to be back.

في يوم صيفي حارق، طلب سامح من أحمد وچاسون مساعدته في إنزال الزورق الجديد للبحيرة، وطلب من چاسون فقط الإنضمام له في نزهة بحيرية، وإصطياد بعض الأسماك.

- But I don't know how to fish dad.

- Neither do I, but we'll learn.

بعيداً عن الشاطئ وعن أعين الناس، ألقى سماح أولاً بصنارته بعد جهاد في تثبيت الطعم على الخطاف. ووجدها چاسون مادة كوميدية للسخرية من أبيه، حتى بدأ هو الآخر في فعل نفس الشيء. ضحكا على جهلهما فيما كان بمثابة روتين يومي لأناس إعتمدوا على اصطياد الأسماك لإطعام أنفسهم وذويهم.

أخرج سامح زجاجة مياه بلاستيكية من الصندوق الثلجي، ومد يده معطيًا إيها لچاسون. فأشعة الشمس القاسية تسببت في تصيب العرق من جباههما كأنهما بداخل غرفة ساونا.

أمسك بها چاسون، وبعد أن أفرغها، قال:

- Dad, I can't forgive him. I really tried, but I can't. I tried so hard that I no longer know whether I can't, or don't want.

أرؤى سامح عطشه من زجاجة مياه أخرى، وبعد أن أفرغها، أسقطها في مياه البحيرة، وما إن امتلأت حتى أفرغها على رأسه، عليها تلطف من حرارة جسده المرتفعة.

- That's a good start Jace. This is were you should begin. By admitting that forgiveness is hard. It's bigger than us.

كبرياء چاسون طيلة الأعوام الماضية منعه من تأيين أمه بدمعة واحدة. لكن كيل قلبه كان قد امتلأ، وبدأ في الطفح خارجًا. بكى، وتركه سامح ولم يوقفه.

- If you can't, it means you're trying. It means you're facing your demons. And I think that's good enough. The real danger lies in not wanting to forgive, because pride is in there hiding somewhere. And that will surely destroy you.

كم شعر سامح بضالته حين إنتهى من عظته. كم إحتقر رياءه ونفاقه الكريه. فها هو يحث ولديه على المغفرة والصفح للنفس والآخر، وأما هو فيعذب نفسه كل ساعة وكل دقيقة من كل يوم لموافقته قرار هناء بعدم المشول للعلاج. سمح للجلاد بالفتك بنفسه حتى كاد أن يؤمن أنه قتلها. قتل محبوبته، وقتل نفسه معها. لكنه لم يعتد بنفسه، ولم يهتم. نجح في إقناع نفسه أن الأهم أن يحب الإخوة بعضهم البعض، لضمان مستقبل منير لهم ولذريتهم بعدهم.

- Jace, even if you don't forgive him. Even if you don't forgive me, which I won't blame you if you don't, but at least try and find a civilized way to live with your brother. I think this is the least that should be done. Peace is not far, nor unobtainable.

نظر إليه چاسون، وإمتزج خجله بإمتنانه لما سمع من أبي. تذكر كم إشتاق لتلك المحادثات العميقة معه، وكم أضع من فرص وأيام في بعده عنه لن يسترجعها.

لم يمتلك الشاب اليافع موهبة الحديث المنمق المرتب، وكان دائماً ما يجد صعوبة بالغة في التعبير عن لب مشاعره. لكنه شكر ربه لإرساله سمكة لتعلق بخطاف صنارته حتى يتغير لحن الحديث الميلودرامي هذا.

هب سامح من مكانه لمساعدة چاسون في جذب الصنارة والإمساك بالسمكة، فقد أشارت ملامحه أنها سمكة ضخمة. وما إن بدأ في

التحرك في الزورق حتى علم أنها فكرة غير صائبة. فراحيل ليست
بقارب تسمح بتحرك من عليها براحة وحرية.

بسبب تفانيه في العمل، ولباقة حديثه وشخصيته المحبوبة، إرتقى عليّ السلم الوظيفي إلى أن وصل لمركز رئيس قطاع الإنتاج في إحدى شركات تجميع السيارات المعروفة. وأتاحت له وظيفته الفرصة لبناء علاقات طيبة محترمة مع الكثير من الشخصيات المرموقة والهامة في الدولة المصرية. ومن خلال تلك العلاقات إستطاع أن ينتظر سامح وأسرته في مطار القاهرة الدولي، وفي مكان خاص جدًا قليل من يستطيع الوصول إليه.

كانت مفاجأة سارة جدًا لسامح حين إستقبله عليّ أمام باب الطائرة عند وصولها أرض المطار.

- عليّ!!

هكذا صرخ سامح فرحًا برؤية صديق طفولته. تلك الصداقة التي تحدثتُ بعد المسافة وعدم اللقاء لمدة فاقت الخمسة والعشرين عامًا.

نسي الصديقان عامل الزمن والمكان، وغاصا في أحضان الذكريات والحنين. مما إضطر المضيفات أن يطلبوا منهما التحي جانباً حتى يتسنى لباقي المسافرين الخروج من الطائرة.

- عامل إيه يا عليّ؟

كلمات قالها سامح مجففاً لدموع لم يستطع التحكم فيها.

- خمسة وعشرين سنة يا بن الكلب ما تنزلش فيها مصر ولا مرّة؟

- عندك حق.. أنا فعلاً واطي، بس المهم إني هنا أخيراً.

- طب يلاً عشان نخلص ورقكم.. إزيك يا طنط؟

ردت ليليان على تحية علي بابتسامة صادقة:

- الحمد لله يا عليّ. إنت عامل إيه؟ مراتك وعيالك كويسين؟

- الحمد لله رب العالمين، كلنا بخير.

أمسك سامح بيد صديق عمره ليقدمه لأبنائه.

- تعالى يا سيدي أما أعرفك.. دي كارولين، وده چاسون، وده أحمد.

إتسعت عينا عليّ وأخذ يحملق في ملامح كارولين، وقال:

- آمنت بالله.. عمري ما كنت مقتنع بحوار الاستنساخ ده، بس إنت أكبر دليل. أنا شايف قدامي هناء مش كارولين.

فوجئ عليّ بكارولين ترد عليه بلغة عربية ولكنة قاهرية واضحة:

- دي حاجة تسعدني إني شبه ماما.

- إيه ده؟ بتتكلمي مصري؟

- أحمد علّمني.

ربت عليّ على كتف أحمد وقال مهينًا:

- برافو عليك يا بوحמיד. دي حاجة محترمة منك إنك تعلم أختك عربي.

- Dad! Are we ever going to get out of the airport?

جاء سؤال چاسون هذا مؤكداً على ضجره من طول الرحلة.

- يلاً يلاً، خلينا نخرج من هنا.

عند البوابة الخارجية تحدث عليّ في هاتفه الذكي، وطلب من السائقين اللذين كانا قد تقاول معهما لنقل المسافرين الحضور بسيارتهم من ساحة الإنتظار. ثم أخذنا يحمّلان أمتعة المسافرين في السيارتين الكبيرتين. وبعد، أخذ الواحد تلو الآخر يركب السيارة المخصصة له، لكن أحمد أخذ يحمّل في إحدى السيدات المنتظرات أمام بوابة الوصول، فنادى عليه أبوه:

- أحمد!! يلاً تعالي اركب. مش عايزين اليوم يروح علينا. دي هتبقى مفاجأة هايلة لجدك.

غير مبال بما طلبه منه، إنطلق مندفعاً ناحية امرأة واقفة لحالها أمام إحدى البوابات. ودون أن يفهم أحد مغزى ما فعله أحمد، تسمّر سامح مكانه حين رأى تلك السيدة تلف ذراعيها حول عنق أحمد.

كانت طويلة القامة نوعًا ما، أطول من غالبية السيدات المصريات. شقراء طويل شعرها، أملس وصل إلى خصرها. ميز وجهها ذاك الدملى على ذقن محدب، فى أسفل وجه مستطيل دون تمييز لوجنتيها، وكأنها ولدت دونهما. كان من الواضح على ملابسها أنها من الطبقة فوق المتوسطة، حيث إهتمت بانتقاء ألوان متناغمة أظهرت حرصها فى إتباع أحدث صيحات الموضة الأوروبية. لم يخل عنقها من عقد ذهبي غليظ لم يحمل أى رمز ديني بعينه، كما إرتدت خاتمها الماسي بافتخار واضح كأنه صولجان.

وبعد لحظات ركض سامح ناحيتهما، ومن خلفه عليّ للحاق بهم. وجد ابنه يبكي ملتحمًا بهذه السيدة، وبصوت مرتاب سأله:

– أحمد؟ فى إيه حبيبي؟

نظرت إليه السيدة، وقالت بصوتٍ محشرج لا يخلو من لكنة أجنبية:

– أنا آسفة.

عندها كان قد إنضم إليهم عليّ، وسأل:

- في إيه؟؟ مين دي يا أحمد؟

نظر إليه أحمد، والدهشة لازالت تستحوذ على ملامحه:

- دي ماما..

لُجِّمَ سامح وأمسي كلوح من الثلج في سيبيريا، غير قادر على الحراك أو التفاعل مع العالم الخارجي من حوله. أصابته ثورة من مشاعر الغضب الممتزجة بالحيرة التي لا تخلو من الألم. لم يستطع الحديث، أو التأكد من هوية تلك المرأة، فدموع أحمد كانت خير إثبات.

أما عليّ إن دفع ليسأل سامح:

- هي دي الست اللي....

وفي أقل من الثانية أمسك سامح بذراعه حتى لا يكمل ما كان على وشك البوح به، وأيضًا ليستند عليه.

صمت الصديق الوفي مستنكرًا، أما سامح، وكاد أن يفقد القدرة على

الحديث، طلب منه:

- من فضلك يا عليّ، سيينا شوية.

نظر سامح لمارجريت، وكانت نظرتة لها مُحمّلةً بالأسئلة.

أتعلم هذه المرأة أني على علمٍ أنها تركت صغيرها عن قصد؟

ترى ما هي الظروف القاهرة التي أجبرتها على التخلي عن أعز الناس؟

كيف إستطاعت، وطاوعها قلبها على الإختفاء طيلة الخمسة عشرة

سنة الماضية؟

أين الزوج؟ الأب؟

ماذا تعني تلك المقابلة، وما مصيرها؟

أفكار غاضبة، وقلب مكسور لسماعه كلمة "ماما" تخرج من فم ابنه

لشخص ما غير هناء. ولكن، هي بالحق أمه، البيولوجية على أقل

تقدير.

صمت ثقيل خيم في أفق أرض المطار، وأعين متطلعة خلف سامح،

شعر بها تخترق ظهره. نظرات إختلسها محاولاً إيجاد تفسير في أعين

هذه السيدة الخضراء الداكنة لما فعلت.

إقشعرت مفاصله عند تطلعه لملامح وجهها ونظراتها الباردة، وباغته إحساس إرتياح لعدم وجود هناء معهم في تلك اللحظة. فبكل تأكيد كانت ستفتك بتلك المرأة.

قطع الصمت الممل سؤال طرحه أحمد على مارجريت:

- إنتي.. إنتي هنا مستتية مين؟

- أنا مستتية واحدة صاحبي راجعة من برّة.

"ماذا؟ أينسى الجميع ما حدث؟ أينسى هذا الشاب اليافع ترك تلك المرأة له في طفولته؟ ويتحدث كما يتحدث الأصدقاء بعد فراق ليس بالبعيد؟ أتكون تلك هي النهاية؟ وبعدها عودة أحمد لذويه؟"

أفكار صارعت سامح، لكن مبادئه رفضت احتمالية إفشاء سر جُرم هذه السيدة في حق ابنها. وأخيراً إستطاع إسترجاع حنكته، وقرر التحكم في دفة الأحداث.

- مدام مارجريت، رحلتنا كانت طويلة ولازم نمشي. لو تحبي، ممكن تدينا نمرّة تليفونك، أو عنوانك ونرتب نتقابل.

دون تفكير، باغته أحمد قائلاً:

- إيه لو تحبي دي؟ طبعاً تحب. وبعدين أنا مش عايز أمشي وأسيبها.
أنا هاستني هنا معاها.

- أحمد حبيبي، إحنا كان عندنا ترتيباتنا ولازم نمشي حالاً. وبعدين
إنت شخصياً محتاج ترتاح من السفر، عشان لقاءك بمامتك وباباك ما
يكونش مجرد ترحيب وخالص. أكيد هيكون في كلام كتير يتقال.

لم تُعقَّب ماجريت بل استساغت القول، وأعطت رقم تليفونها
لسامح لكنها رفضت الإفصاح عن عنوان منزلها. وكان قد توقع سامح
هذا، لكنه فوجئ بأن الأمر لم يستوقف أحمد.

نجح عليّ في تخيل حال سامح حين إنتقلت هناء من عالمنا. فهذا
هو أمامه الآن مهموماً، حزيناً، منكسراً، وكأنه كُبر عقداً من الزمان

فجأة. ربت الصديق الحميم على كتف صاحبه، ونظر خارج النافذة
المقابلة له إلى المباني التي باتت غير واضحة المعالم. نظر خارجًا بلا
هدف بعيداً متحاشياً النظر لسامح حرصاً منه ألا يجرح كبرياءه.

كان السكون هو سيد الموقف طوال الطريق من مطار القاهرة إلى أن
وصلوا إلى حي شبرا العتيق. وقبل بضعة أمتار من منزل الجد، همس
سامح في أذني صاحبه محدقاً في أرضية السيارة:

- سر أحمد يموت معاك يا عليّ. أرجوك.

- أوعدك.

كان الرد قصيراً ووافياً.

في مدخل العمارة القديمة بشارع الترعة، صرخ الأحفاد بصوت
أسمع الجيران جميعاً .

"جدو"

"يا جدو"

فتح عم جرجس باب منزله وبعد أن ألقى نظرة سريعة على المنادين
صاح:

-إيه ده؟ يا ولاد الكلب!!

وركض عم جرجس مهرولاً على درج العمارة الرخامي، وكاد أن يفقد
خطوته لكن چاسون كان قد لحق به في الوقت المناسب. وفي تدفق
من المشاعر الحميمة، إرتمي الجميع في أحضان الجد العزيز.

- عم جرجس، إزيك يا راجل يا طيب.

- أنا كويس يا عليّ، تعالى ادخل. تعالوا كلكم، إتفضلوا.

- لا أنا هأكل عشان عندي مشاوير، وكمان البشر دول محتاجين
يرتاحوا وتشبعوا كلكم من بعض. هأكلمك يا سامح نتقابل بالليل على
القهوة.

أوماً سامح برأسه موافقاً، لكن الهمّ إستحوذ ملامح وجهه، ولاحظ
الجد.

- بيتك حلو أوي يا جدو.

- إيه ده؟ إنتي إتعلمتي عربي إمتي يا كارولين؟

- أحمد علمني، وبقيت بأعرف أقرأ وأكتب كمان.

مال چاسون على أخته وفي عتاب غير خال من الحق سألها:

- Right, we're all proud of you... But am I going to be the only one here who can't have a conversation with anyone during this trip or what?

- Sorry Jace, and don't worry, I'm here.

بعد فتح بعض الحقائق وتقديم الهدايا للجد، ذهب سامح للمطبخ لتحضير بعض الشاي، وإنبهر لوجود كل شيء في مكانه كما كان قبل هجرته.

وجدته ليليان شارد الذهن حائرًا، فقالت:

- بيتيألي أكثر حاجة هتوحشك في كندا هي القهوة.

إبتسم سامح، وقال محاولاً إخفاء فشله في ملاحظة غليان الماء:

- ده صحيح جداً، لكن مصر وحشاني أكثر.

ربت ليليان على كتف صغيرها وقالت:

- قادرة أتخيل انت بتمر بإيه يا سامح، بس إفتكر إن كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله.

قاطع الجد حديثهما فرحاً:

- طب مش كنتوا تقولوا عشان أجهز الدنيا.. المهم أنا طلبت أكل من درويش، وإنتي يا ليليان خشي ريحي جوا، أكيد تعبانة من الرحلة. أنا ربت الإوض وهأنام مع العيال، وإنتي خدي راحتك في الاوضة. وإنتي يا سامح اوضتك زي ما هي.

- ألف شكر يا بابا بس إحنا حجزنا في هيلتون رمسيس عشان ما نتقلش عليك.

- نعم يا روح أمك؟ إنت إيه بقيت كندي خلاص؟ نسيت سلو بلدنا؟

ضحك سامح، وأخذ عم جرجس في حضنه وقبّل رأسه قائلاً:

- طب خلاص خلاص، أنا هاأقعد معاك.. بس العيال، وماما ليليان سيهم براحتهم. أنا طلبت من عليّ إنه يأجر لنا عربية بالسواق بتاعها يكون معنا طول فترة زيارتنا عشان نتحرك بحرية.

تغيرت شبرا كثيراً عما تذكره سامح، لكن عقبها الأصيل تحدى العقود الطويلة. وفي طريقه إلى المقهى تلك الليلة، تعرّف عليه الكثير من أصحاب المحال القدامى، وهبوا لتحيته ودعوته للدخول وإحتساء قرح من الشاي كما هي عادة ولاد البلد، لكنه شكرهم جميعاً وإعتذر بأدبه المعتاد.

رأى المقهى من بعيد، ورق قلبه لزمن فات. زمن كان فيه فتى يافع، ثم شاباً مُقبلاً على الحياة مليئاً بالآمال والتطلعات، محدود المسؤولية، قليل التحديات، عديم الأعداء. تذكر هناء، ولهوه معها ومع أترابه في الحي، وكيف تفننوا في إختراع ألعاب جديدة، تافهة لكنها كانت سببا في بناء شخصياتهم وتطور مداركهم. تذكر إختلاسه أولى قبالاته لمحبوته في مدخل عمارتها. كم تلذذ بنشوة وإندفاع الأدرنالين يجري في عروقه، وكم تلذذ من شهد شفيتها. كم أحس بالفخر

والأمان في كل مرة كان يمشي بجانبها في شوارع شبرا، ممسكاً بيدها الرقيقة، كتفه بكتفها. كم أحبها.

أما المقهى، فلم يتغير. بل كان كما كان، مُلاحظ من بُعد خاصة، وأبوابه الخشبية العالية المزينة بنوافذ زجاجية ذكرت المارة أنها كانت خمّارة ذات يوم. وها هي المشروبات الساخنة لا زالت تقدم في أكواب زجاجية مزركشة، محمولة على صواني فضية جميلة لامعة.

وما إن وصل للمقهي بعد آذان العشاء، وبالرغم من كبر سنه، هبّ مالكها بالوقوف من مكانه على رأس المقهى، ومن تحت صورة قديمة للرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وقام بالترحيب بسامح.

- إزيك يا دكتور.. حمدا لله على سلامتِك. والله ليك وحشة يا بن الناس الطيبين.

- الله يخليك يا حج رشدي، وانت كمان واحشني يا راجل يا أصيل. عامل ايه، وصحتك أخبارها ايه؟

- الحمد لله على كل شيء.. حال البلد مش ولا بُد، بس هنعمل ايه آدينا بنزُك.

- صدقني يا حج رشدي الحال في العالم كله مش ولا بُد والناس في كل مكان بتصارع مع الحياة. إنت صحتك بخير؟

- والله يا بني لولا القهوة دي كان الواحد اتشل في البيت. الحمد لله على كل شيء.

- بعد الشر عليك.. الحمد لله إنك بخير.

وصاح الحج رشدي مستدعيًا صبيّ المقهي:

- شاي يا بني هنا بسرعة.. بس إيه الغيبة الطويلة دي؟ أكثر من خمسة وعشرين سنة، صح؟

تنهد سامح وكأنه تذكر كل ما جرى من أحداث خلال الخمسة والعشرين عامًا الماضية، وقال شارد النظرات:

- فعلاً، أكثر من خمسة وعشرين سنة. كل مرة نوي ننزل تطلع لنا ظروف خارجة عن إرادتنا تجبرنا إننا نأجل السفر. بس الحمد لله آديني هنا.

- حمدا لله على سلامتک.. أهة الأستاذ عليّ وصل .أسيبکم أنا
لذکریاتکم.

حییّ عليّ الحجّ رشدي، وانضم لسامح وقال مباعثاً دون تحية
صديقه:

- بص يا سامح، أنا عارف إنك تعبان من السفر، وخبر ظهور والدّة
أحمد قلب كل الموازين، وعارف كمان إني وعدتک أحتفظ بسرّه،
بس أحمد لازم يعرف.

- طب أقعد بس ووطي صوتک.

- بلا أوطي صوتي بلا نیلة، إنت ايه يا أخي؟ بعد كل اللي مرينا بيه؟
أنا عمري ما أنسى لما طلبت مني أدور على أهله. كأنهم مش
موجودين في الحياة أصلاً. وبعد السنين دي كلها عادي كده، كأنه
كان نايم في حزنهم إمبرح؟ أنت شوفت أمه أصلاً إتعاملت معاه
إزاي؟ ده رد فعل أم ده؟؟ حتى لو كانت سابتة وهو طفل قاصدة. إيه؟
مافيش مشاعر خالص؟ وعادي تسيبه يمشي؟ دي كأنها ما صدقت

خلصت منه تاني كأنه طاعون .إيه؟؟ عامل لها حساب جامد أوي كده
ليه؟

- إفهم يا عليّ. أنا مش عامل حساب ليها ولا لأبوه، بس أنا ما
أقدرش أحكم على حد. أنا ما أعرفش ظروفهم إيه ولا السبب اللي
خلّاها تعمل كده، وبصراحة مش عايز أعرف. أنا كل همي أحمد.
الولد ده إتأخذ منه كل حاجة، وما كانش ينفع إني أكون الإنسان اللي
آخذ منه أهم وآخر حاجة فضّلته. ما كانش ينفع إني أكون الشخص
اللي يدمر صورة الأب والأم عنده، لأن ده كان هيدمر حياته تماماً. لا
كان هيبقى شخص عنده أي نوع من أنواع الثقة بالنفس، ولا ينجح في
حياته العملية، ولا يعرف يكوّن علاقة صحيحة مع أي واحدة
يتعرف عليها، ولو حصل مش هيعرف ينجح كأب لإن صورة الأب
عنده هتكون إتدمرت تماماً.

- يا أخي أنا مش فاهمك ولا فاهم فلسفتك دي، خصوصاً بعد
ما....

وصمت عليّ حين تدارك ما كان سيقول، فنظر إليه سامح معاتباً
وقال:

- خصوصاً بعد إبه يا عليّ؟ كمّل جملتك.

- خصوصاً بعد ما أحمد كان على وشك أنه يبقى بن لادن يا سامح.

صمت سامح، وتغيرت نبرة عليّ بعد لحظات وقال بهدوء:

- أنا مش قصدي يا سامح، بس حقيقي أنا مش فاهم إنت بتعمل
كده ليه؟

- لإني بأحبه يا عليّ، واللي بيحب حد ما يسمحش لنفسه أنه يكون
سبب يتوجع منه اللي بيحبه.

إنتظر الصديقان حتى فرغ صبيّ المقهي من وضع المشروبات على
المائدة الذهبية الصغيرة أمامهما، ثم نظر عليّ إلى صديقه وسأله
بشغف:

- طب إنت هتعمل إبه دلوقتي؟ هتروح للناس دول؟

- ده مش قراري، ده قرار أحمد. ولو مش عايزني آجي معاه لما يروح يقابلهم، أنا هاأحترم رغبتة.

صاح عليّ بوجه صاحبه:

- لأ بقي، إنت كده تبقي مجنون رسمي.

ثم إستطرد قائلاً بعد أن إستوعب شخوص من بالمقهي له:

- ماتبصليش كده.. طبعاً إتجننت لما تسيب ابنك يروح عند ناس إنت عارف إنهم سابوه عن قصد وهو طفل عشان يخلصوا منه. هيبقى إزّي الحال لو آذوه أو ضربوه أو حتى قتلوه؟ أهه المرّة اللي فاتت ما خلصوش منه، يبقى المرّة دي يتأكدوا انه مش هيرجع تاني.

تملك الرعب من نفس الأب الحنون، ونظر طويلًا في عينيّ صديقه العميقتين، وقال:

- عندك حق.. في دي عندك حق.

- طبعًا عندي حق، وأنا كمان رجلي على رجلكم. العالم دي أكيد لبط وأنا أعرف أتعامل معاهم كويس.

وبعد مرور بضع دقائق من الصمت كسره علي قائلاً بنبرة أثارت فضول سامح:

- المهم، أنا مرتبلكم جدول هايل. وعشان كمان كارولين وچاسون يتعرفوا على بلد أبوهم. أنا إتعاقدت مع مرشد يكون معاكم ومع السواق. هتشوفوا مصر بأسلوب إنت نفسك ما شوفتهاش بيه.

- علي..

- عارف هتقول ايه، ولو قلته والمصحف لأكون رازعك على قفاك.

- يا علي بس كده كتير، أنا مش جاي عشان أكلفك.

- عيب يا سامح، يعني أنا لو جيت لك كندا ما انت هتعمل كده وأكثر كمان.

إبتسم سامح لصديق عمره وربت على كتفه وقال:

- أكيد طبعًا. دايمًا عامر يا علي.

وقبل أن يكمل سامح حديثه، قام شجار عنيف بين إثنين من رواد المقهى، ورفع الأول السلاح الأبيض على الآخر وبعثوا بعضهما البعض بأقذع الألفاظ.

- إنت ابن كلب كافر زي اللي بتدافع عنه. ده شتم في البخاري يا ابن الكلب، عايزه يعمل إيه تاني؟

- إنت اللي ابن ستين كلب. بتطالبوا بالحرية إنت واللي زيك، وعند أول مزلقان تكفّروا الناس وتحلّوا دمهم بكل بساطة.

إنتاب سامح الذعر من هول ما رأى وسمع، فلم يعتد طوال الأعوام الماضية على مثل تلك المواقف، ولا هذه الحدة في الحديث.

همّ الحج رشدي من مكانه على رأس المقهى، وأمسك بهذين الشابين، وكفتوة من فتوات زمن ولى، جرّهما إلى الخارج. تفاجأ سامح لخنوع المتقاتلين دون مقاومة لقبضة سيد المقهى. وبأعلي صوت حتى يُسمع أهل المنطقة والمارة معاً، زأر الأسد رشدي:

- ماشوفش خلقتكم هنا تاني يا ولاد الكلب!

ساد التوتو أرجاء المقهى بعدها، وسأل سامح:

- هو في إيه؟ إيه اللي حصل ده؟

- أقعد أقعد، ده عادي هنا دلوقتي. ماحدش بقى بيسمع حد ولا حد عنده خُلق ولا أخلاق. وكله ماشي يخانق في دبان وش الناس اللي حوالية.

- أيوة، بس إيه الموضوع؟ وليه الانفجار اللي حصل ده؟

- يا سيدي في واحد كان بقاله فترة بيطلع في التلفزيون، وبينتقد صحيح البخاري وبيقول مش عارف ايه على ابن تيمية، ودعا الأزهر لتنقية التراث الإسلامي. قام الأزهر تسبب في سجنه بتهمة إزدراء الدين الإسلامي، ولسه محكوم عليه النهاردة الصبح واتسجن سنة.

- مسيحي؟

ضحك علي بصوته الجمهوري ضحكة هزت أرجاء المقهى، وقال:

- لو مسيحي كان إتقتل، مش إتسجن. جرى إيه يا سامح؟ شكلك
نسيت مصر.

صمت الإثنان وأخذوا في نفث دخان الأرجيلة، وبعد بضع دقائق
سأله سامح:

- فاكر يا علي لما كنا قاعدين على نفس التراييزة دي قبل ما أهاجر؟
فاكر لما قلت لك أني مش نفسي أهاجر وإنه هزأني؟
- آه فاكر.

- عرفت دلوقتي ليه؟

فُتِحَ بابَ المنزلِ، وخلفه وقف رجل قصير القامة، ذو جبهة عريضة
 وأنف إستحوذت على الكثير من وجهه. وبالرغم من قصره، كان قوي
 البنية حاد النظرات، ذا عيين عسليتين ضيقتين. إندفع أحمد من
 خلف كل من سامح وعليّ صارخًا:

– بابا!!

إستسلم الأستاذ حسين لذراعي أحمد اللتين التفتتا حول عنقه، ولكن
 عدم ترحيبه بالضيوف كان واضحًا على ملامحه الجامدة.

– أهلاً.. إفضلوا.

في آخر بهو الشقة، وقفت فتاة ذات وجه مستدير، شقراء جميلة.
 نظر إليها أحمد وكانت قد غالبته دموعه، وسألها:

– مروة؟

ذهب لمعانقتها، لكنه فوجئ ببرود إمتداد يدها لمصافحته. فلم تكن على إستعداد أن تعانق شخصا غريبا بالنسبة لها.

خلف أخته وقفت مارجريت مرتبكة، ولم تحضر لتحية الضيوف، فكان من الواضح أنها تنفذ أوامر كانت قد أمليت عليها.

كان منزل الأستاذ حسين ذا طابع أنيق، ولم يخل من التحف والأثاث الفخم. دعا الضيوف للجلوس في حجرة الاستقبال، وأشار بيده من بعيد فأنصرفت كل من مارجريت ومروة.

إستنكر أحمد الموقف برمته، وفوراً شعر أن وجوده غير مرغوب فيه، لكن.. "لماذا يا ترى؟" "ألست أنا الابن المفقود منذ أكثر من خمسة عشرة عاماً؟"

إرتعدت أوصال أحمد حين عادت ذكريات طفولته له. ضرب أبيه المبالغ فيه له، وصياحه المستمر ونعته بالغباء وكل ما يحط من قدره. تذكر ضرب أبيه المبرح لأمه يوماً ما دون سبب واضح له، وكيف طرده من المنزل حين أراد الدفاع عن أمه. وكيف لم يزعج هذا الرجل مضيه تلك الليلة القاسية البرودة أمام عتبة المنزل. تذكر أيضاً كيف أن ذلك

الرجل تمنى له الموت علناً أكثر من مرّة. "لكنه أبي مهما كان" هكذا أقنع أحمد نفسه.

عند جلوس عليّ، لمح سامح جسماً معدنياً ما داخل سترته، وفهم أنه كان قد أحضر طبنجته الخاصة معه. حمله به ودقق النظر، وعرف الأخير أن سامح قد رأى سلاحه، فقام بغلق سترته جيداً، ثم نظر للأستاذ حسين وابتسامة ثعلبية مآكرة قال:

- إحنا بنشكرك علي دعوتك اللطيفة دي يا أستاذ حسين.

شعر الجميع بثقل الهواء في المكان، وتوترت الأجواء أكثر حين توجه الأستاذ حسين لأحمد بالحديث مبالغاً:

- إوعى تفكر إنك عادي كده ترجع للبيت وكل حاجة خلصت واللي فات مات والحوارات دي.

شلت ذكريات أحمد القاسية تفكيره، وخنقت الكلمات في حنجرتة. وشعر سامح بذلك لكنها لم تكن معركته، وتمنى أن يسترجع أحمد شجاعته ويقوم بالرد على قسوة والده، لكن حسين كان قد بدأ في إستكمال هجومه الشرس:

- ضعت مننا وإنت صغير، وقلنا قضاء الله وقلنا بالمكتوب.

نظر سامح لعلّي وتأكد من نيته بالفتك بهذا الرجل، ورتاءً لحال أحمد ورداً لجبروت حسين قرر سامح التحدث محاولاً تدارك الأمور قبل أن تتفاقم:

- تأكد يا أستاذ حسين إن أحمد هنا فقط عشان يسلم عليك وعلى أخته. إحنا هنا في زيارة قصيرة لمصر وراجعين كندا بعد أسبوعين. أحمد عنده حياته وشغله ودراسته هناك.

قفز أحمد من مكانه ثائراً، وقال للأستاذ حسين:

- إنت بتعمل معايا كده ليه؟ ده أنا لو كلب وضعت منك ولاقتني بعد يومين هتحن وإنت إيه؟ حجر؟ ضعت منكم من أكثر من خمستاشر سنة ورجعت. بتعاملني كأنها غلطي ليه وكأني أنا اللي هربت منكم.

أمسك سامح بيد أحمد لكنه رفض التراجع، وشكر الله حين رأى مارجريت قد حضرت في الوقت المناسب، خاصة أنه لاحظ عليّ يتحسس مسدسه.

- حسين، من فضلك.. مش ده اللي إتفقنا عليه.

جلس حسين لكن شظايا الشر والغضب كانت تتطاير من عينيه،
وطلب سامح من أحمد أن يهدأ لكنه رفض، وحينها إنتصبت قامة عليّ
حيث تأكد من عدم جدوى إستمرار تلك المقابلة، و قرر قطعها
بالرغم من قصرها.

- سامح، واضح جداً إن وجودنا غير مُرْحَب به هنا. مستنيين إيه؟ يلاً
استنوني تحت في العربية.

وبعد إنصرافهما، إنقض عليّ علي حسين وأمسك بصدرة بكل ما
أوتي من قوة ونظر محذراً مارجريت بعدم الإقتراب. وضع طبنجته علي
رأس حسين، وإنفلتت صرخة من جنجرة مروة، لكن نظرات عليّ لها
قتلتها قبل الإكتمال.

- أحقر منك ما شفتش، وعلى فكرة أنا عارف سرکم إنتوا الاتنين
وعارف إنكم سيبتوا إنكم بمزاجكم. رمتوه في الزبالة يعني. والراجل
اللي إنت ما إحترمتهوش ضيف في بيتك هو اللي قال لي، وتخيل يا
أخي إنه رفض تماماً إنه يقول لأحمد عن حقيقتكم يا أنجاس. وصرف

عليه دم قلبه وإتبناه ورفض إنه يحمل اسمه عشان يحتفظ له بهويته،
وربّاه أحسن من المحروسة بنتك اللي واقفة هناك دي، وصمم إنه يربيه
كمسلم صحيح وصارع أبواب جهنم اللي إتفتحت عليه بسبب اللي
عمله. ومراته فنت حياتها في تربيته وفي الآخر كوباية شاي ما
تقدمها لوش يا وسخ.

لم يجرؤ حسين على الحراك، بل لم يستطع حيث قبضة عليّ كانت
قد أحكمت على عنقه، وإستكمل عليّ قائلاً:

- اسمعني كويس يا طُراش الكلب.. إحذر إنك تشوفني مرّة تانية
حتى لو كانت صدفة، عشان دي هتكون آخر مرّة تشوف فيها أي
حاجة في حياتك.

بصق عليّ على أرضية منزل الأستاذ حسين في طريقه للخارج، ثم
رحل.

هتف جرس منزل عم جرجس، وعند فتحه الباب وجد مارجريت واقفة مترددة.

- الدكتور سامح موجود؟

- موجود يا بنتي، نقوله مين؟

- أنا مارجريت، والدة أحمد..

إبتسم عم جرجس لها حانياً وقال:

- تعالي يا بنتي ادخلي. هو جوا بيجهز شنتطه عشان مسافرين الفجر.

أدخلها عم جرجس غرفة إستقبال الضيوف على الناحية اليسرى من مدخل منزله. وبعد مرور بضع دقائق إنضم لها سامح وقال مرحباً:

- أهلاً مدام مارجريت، تشربي إيه؟

قاطعه عم جرجس قائلاً:

- ودي برضه تفوتني؟ كوبايتين عَناب تروقوا بيها أعصابكم.

وضع عم جرجس الصينية على المائدة الرخامية بمنتصف الحجرة
وتركهما.

- أنا آسفة يا دكتور على اللي حصل، وآسفة أكثر على اللي عملته
من خمستاشر سنة.

دمعت عينها، وغالبها إحتقار النفس.

- It was beyond me... I had to leave him behind,
and it killed me. I lost my baby, and myself.
Hussein is not Ahmed's real father... I cheated
on him with his best friend back then, and when
he found out, he tried, he really tried to accept
Ahmed as his own, but couldn't. Years passed
by, and became more and more aggressive to
him, and one day we had a big fight. He gave me
an ultimatum, and made me choose between
him and my son. Back then I had nothing, and

was helpless. I had no one to go to, and no other option but to plan and leave him behind in Canada. My only prayer was that he would find a good family to live with, and it seems that my prayer was heard.

أجهشت ماجريت بالبكاء، ولم يحاول سامح تهدئتها عالمًا أن في
البكاء راحة للنفس.

- No one knows this secret... I had to tell you because you deserve to know, and to ask for your forgiveness.

تغلب سامح على دهشته سريعاً، وبحنانٍ بالغ رفقها.

- Marge, forgiveness is not mine to give you, it's Ahmed's. I am holding nothing against you, but if you seek absolution, talk to your son. Ahmed

has a very gentle soul, and I am certain he will let go of the past.

– But you're leaving tonight.

– Yes we are, but you still can talk to him anytime you want.

هدأت مارجريت بعض الشيء، وبعد أن جففت دموعها المنهمرة، همت بالرحيل، وفي طريقها للخارج قالت:

– I don't think I'll ever be able to thank you enough.

إرتسمت على وجه سامح إبتسامة هادئة، وقال مودعاً إياها:

– Your tears told me that you still have a heart. Just make sure to do the right thing so you won't lose Ahmed again.

توقفت السيارتان أمام بوابات مطار القاهرة الدولي وخرجت منها الطيور المهاجرة. وبدأ السائقان في تفريغ حمولة سيارتهما من حقائب السفر وتحميلها على الكاريتات المعدنية الخاصة بالمطارات. لاحظ سامح شيئاً غريباً لم يفهم فحواه حتى سأل أحمد:

- فين شنطك؟

- بابا..

نظر إليه سامح ولم يُعجب بنبرة صوته، فنظر إليه شاخصاً منتظراً إجابة سؤاله.

- أنا مش راجع كندا معاكم. أنا هأقعد في مصر.

- نعم؟!!

وفيما هو يحاول إستيعاب ما سمع، أدرك سامح أن كارولين وچاسون كانا على دراية بهذا القرار.

- You knew about this?!

لم يصله رد من أي منهما، فواصل إستجوابه لأحمد:

- يعني إيه مش راجع كندا وهتقعد هنا؟ مش فاهم.. تقصد على طول؟ طب والماسترز بتاعتك؟ وحالك ودنيك وفلوسك و....

أمسك أحمد بكتفي أبيه وفي ودٍ قال له مطمئناً:

- أنا إتواصلت مع الجامعة ورتبت كل حاجة. إعتذرت عن الدراسة لمدة سنة. ومن هنا للسنة اللي جاية رينا يحلها.

- جاي تقول لي الكلام ده دلوقتي؟ ايه يا أحمد؟ بتحطني أمام الأمر الواقع؟ وبعدين تقعد هنا تعمل ايه؟ لك إيه هنا؟

- ليّ أختي يا بابا. عايز أتعرف عليها، وعايزها تتعرف عليا. وعارف إن ده هيكون صعب، وممكن ما أعرفش أعمل كده، وممكن هي أصلاً ما تكونش عندها رغبة في أنها تعرفني. بس في كل الحالات أنت علمتني أواجه الأمور الصعبة وما أهرش منها. ودي مجرد محاولة، عشان ما أرجعش أندم بعدين.

شرع سامح في إقناع أحمد بالعدول عن قراره هذا، لكن يد كل من كارولين وليليان الحانيتين أمسكتا به، وقالت له ابنته:

- Let him go dad. Ahmed is not a kid anymore, nor any of us. He needs to do this, on his own.

إرتقى سامح على الرصيف أمام بوابات المطار، وغالبه الإحساس باليأس. رفض وناهض الواقع أمامه، لكنه أخيراً إستسلم، خاصة بعد أن إنحنى أحمد وقبّل جبينه قائلاً:

- إنت ريتني كويس. ما تخافش عليّا

نهض سامح مصارعاً الدمع في عينيه، وبكل ما أوتي من قوة ضم أحمد لحضنه، وقال بصوت مخنوق:

- تكلمني كل يوم، فاهم؟ وما فيش أعمار. ترجع مع السواق على عمك عليّ، وتقعّد معاه وأنا هأحولك فلوس من كندا بعد ما تفتح حساب في البنك هنا.

ودّع أحمد كل من ليليان وكارولين، ووقف چاسون أمامه وقال:

- Dude... I've been a royal asshole to you over the past years. I'm sorry, you didn't deserve this, and I hope you would forgive me.

فرح أحمد فرحًا جمًّا لسماعه تلك الكلمات التي طال إنتظاره
لسماعها، وأمسك برأس چاسون وقال له:

- You're my brother man. I already forgot.

- Take care of yourself, and be a blessing to those you meet.

- You too Jace. We will meet again, I promise you that...

مرّة أو مرتين شهريًا كان سامح أحيانًا يسطحب ليليان وأحيانًا أخرى أبناءه ليذهبوا إلى بحيرة روسو بمنطقة مسكوكا لزيارة هناء، حيث ذرى رمادها. ولكن تلك المرّة ذهب لحاله، وإرتدى البزة الأكثر أناقة عنده، ووضع من أفخم عطره.

كان دائمًا ما يُحضِر الزهور لها، وخاصة القرنفل حيث كانت زهرتها المفضلة، وعند وصوله لنفس المكان حيث فارقتة هناء، قال مبتسمًا:
 - هناء.. حبيبي وحشتيني. إحنا رحنا مصر، وكانت رحلة مرهقة ومعقدة. بس أنا متأكد إنك لما تسمعي التفاصيل هتحسي بالفخر بكل أولادك.

وقص سامح على محبوبته تفاصيل الرحلة، وكأنه يتحدث معها وجهًا لوجه. هكذا كان، فلم يشعر لحظة بعدم تواجدها في هذا المكان الخلاب، وكان وجهها الملائكي قد رُسم على جذوع الأشجار.

وفي طريق عودته ليستقل سيارته، فوجئ بكارولين وچاسون يغادران سيارة الأخير. فكانا قد تبعاه دون أن يشعرا، وقررا عدم إزعاجه حتى ينتهي من حديثه مع أمهم الغالية.

إبتسم سامح وقال:

- **WOW... Can't go see my wife without being stalked by you guys eh!**

قبّلته إبنته وقالت:

- **If I have a man who would love me half the way you love mom, my happiness would be indescribable.**

ثم نظرت إلى أخيها الذي ظل واقفاً الناحية الأخرى للسيارة، وقال
بخجل:

- **This actually scares me, because I know I will never be half the man you are.**

مصطحبًا كارولين تحت كتفه الأيسر، ذهب سامح ناحية چاسون
وأمسك بوجهه وقال:

- You are more of a man that I've ever been... It takes a lot to apologize sincerely, and you did that.

- I miss Ahmed dad.

- I miss him too Carol, but like you said, he needs to do this on his own.

- You think he'll ever be back?

نظر سامح لچاسون وتردد للحظات، فلم يكن متأكدًا من إجابة
سؤاله هذا.

- I think what matters is that we know that we love him, and also that he loves us, and nothing can take that away.

فصل الخريف كان من أمتع الفصول وأقربها لسامح، وكان يشناق
لحلولة كل عام حتى يتسني له العمل في الحديقة الأمامية والخلفية
بمنزله، ويقوم بتنظيفها من أوراق الشجر المتساقط. كانت حقًا متعة
حقيقية لسامح حين يشاهد عن كثب شكل وألوان أوراق الشجر
المختلفة، خاصة تلك التي غيرها الزمن. أحياناً كان يمسك بكل ورقة
ويقف يأندهاش أمام إبداع الرحمن وخلقه لأوراق متميزة، فلم تتطابق
أي ورقة مع الأخرى أبداً. وفي خلال تسييحه الصامت، توقفت إحدى
سيارات الأجرة بالممر الأمامي لجراج منزله، وإذ بأحمد يغادر السيارة
ويقف شاخصاً ناحية أبيه.

الإقرار بأن أحدهم قد عاين النور، هو وصف فقير وخال من نشوة
الطرب العقلي الذي يعرفه فقط المتحولون. فهو ضوء جديد يتدفق
عبر الجمجمة، بل الكون كله يبدو وكأنه يتحرك في نمط مثل قطع
ألغاز البازل، والتي يجمعها ساحر بضربة واحدة من عصاه. فهناك الآن
إجابة على كل الأسئلة، والشكوك، والصراعات الماضية المعذبة.
ماض أصبح بعيداً بالفعل، خاصة إذا كان هذا الشخص قد عاش في

هذا العالم المليء بالجهل الكئيب عديم المذاق، عديم اللون، عالم أولئك الذين لا يعرفون.

لمعت عينا أحمد في إنكسار ضوء الشمس عليهما، وكاد الأب يكذب ما رأى. لكنه ركض ناحية ابنه فاتحًا ذراعيه.

إرتمي أحمد في حضن أبيه، وانفجر في البكاء قائلاً:

– الأب مش اللي بيخلف، ولا حتى اللي بيربي.. لكن اللي بيحب.

النهاية

شكر و تقدير

من كل القلب أشكر زوجتي الغالية لتحملها حماقتي طيلة الأعوام السابقة، و خاصة لتقلب مزاجي خلال فترة كتابة الرواية. حبيبي، حكمتك تبني مستقبلنا و إحتوائك يرجعني سالماً من أرض الغربة التي أهاجر إليها أثناء كتابتي.

أخص بالشكر أيضاً الكاتب الموهوب و الأخ العزيز طارق حسن رفعت. أخي العزيز، شكراً جزيلاً من أجل توجيهاتك و نصائحك الغالية. أشكرك من أجل مشاركتك لي في كتابة "عين النور". كلماتك حقاً كانت ملهمة و هامة جداً في هذا الجزء من الرواية.

كما أخص بالشكر السيد محمد جمال، و جميع العاملين في، أو المتعاونين مع منصة كتبنا. سيدي، منصتك هي حقاً مستقبل النشر في الشرق الأوسط. أشكرك من أجل تعاونك و دقة مواعيدك.

رسالة ..

إلى كل إنسان على هذا الكوكب الافتراضى .. كن فى
الحياة إنسان .. وصل رسالة طيبة للناس وانشر بينهما
الخير والحب والسلام .. كن أنت فقط ولا تحاول أن
تكون غيرك .. اصنع لنفسك عالم يليق بك .. إزرع
داخلك الثقة والطموح والتفاؤل والرضا وحب الله
والذات والوطن .

" الناشر "

للتواصل مع الدار :

www.facebook.com/dar.cleopatra

Gmail : dar.cleopatra@gmail.com

: للاتصال

01019983371 / 01125574129 / 0225244534